الدكتور علي الوردي
أستاذ متمرس بجامعة بغداد

الفيلسوف الثائر

السيّد جمال الدين الأفغاني

حققه وقدم له
عبد الحسين الصالحي

مؤسسة البلاغ

دار سلوني

الفيلسوف الثائر

السيد جمال الدين الأفغاني

الفيلسوف الثائر

السيد جمال الدين الأفغاني

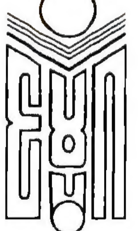
عبد الحسين الصالحي



الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م







بئر العبد - مدخل مدرسة حارة حريك الرسمية الثانية - بناية فوعاني - الطابق الأول
ص.ب : ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠-١١٠٧ - هاتف : (٠٣/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس : ٠١/٥٥٣١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني : www.albalagh-est.com
E-mail : Albalagh-est@hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ

ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ

الإهداء

إلى الذين أُخفِضُ لهما جناح الذلّ من الرّحمة

إلى والدتي وفاءً لذكراها

إلى والدي الذي علّمني أنّ الحريّة حقٌّ مقدّسٌ...

وأنّ الدفاع عن هذا الحقّ هو من أنبل الواجبات

أُقدّمُ هذا الجهد المتواضع إلى أرواحهم الطاهرة

راجياً من الله أن يتقبّل منّا وهو السميع العليم

ولدكما

عبد الحسين

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلقنا من ذكرٍ وأنثى وجعلنا شعوباً وقبائلَ لنتعارف بيننا. إنّ أكرما عند الله أتقانا والصلاة والسلام على خير الأنبياء المرسلين وأشرف السفراء الإلهيين محمد ﷺ رسوله الذي بعثه رحمةً للعالمين وعلى عترته الطاهرين وأوصيائه الغرِّ المحجّلين.

وبعد...

كثر الكلام عن حياة ونضال أعظم شخصية ظهرت على مسرح التاريخ في أواخر القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر الهجري ألا وهو فيلسوف الشرق ومصلح الأمّة السيد جمال الدين الحسيني الأسد آبادي المعروف بالأفغاني فكُتِب عن سيرته وأفكاره وحركته الثوريّة ونضاله التحرريّ وفلسفته الإصلاحيّة مؤلّفات مستقلّة وبحوث ومقالات وأطروحات كثيرة حصل أصحابها على درجة دكتورا من كبريات

الجامعات العالميّة بمختلف اللغات، إلّا أنّ هناك جوانب مهمة من حياته لا تزال مجهولةً ولم يتطرّق إليها الباحثون والمعنيون من المؤرّخين والمحقّقين الذين كتبوا عن سيرته إلّا بعض الإشارات والتكهنات التي استنتجوها من بحوثه ومؤلّفاته ومقالاته، وكذلك بعض الكلمات التي وردت في مؤلفات تلامذته؛ فرأيتُ من الواجب علينا أنْ نسير بدراسة منهجيّةٍ بعيدين عن التعصّب حول المراحل التي مرّ بها والحواضر العلميّة التي عاش فيها وتشبع بالثقافة التي تمكن بواسطتها أن يحدث تلك الزلازل والعواصف الشديدة في كبريات العواصم الإسلاميّة وغير الإسلاميّة والمراكز العلميّة وقد خضعت له عباقرة العلماء ونكست له تلك الرؤوس الجبّارة من السياسيين أو المفكّرين أو المثقّفين تكريماً وتعظيماً لشخصيته الفذّة في العالم الإسلاميّ. وأحاولُ في وضعي هذه المقدمة أن لا أكرّر ما ذكره المؤلّف، بل أستدرك على كلامه. والجدير بالذكر أنّه سبق لي أن نشرت مقالاً مسهباً بمناسبة الذكرى المئوية لاستشهاده تحدثتُ فيها عن دوره القيادي ومراحل دراسته ونضاله السياسي ونشاطه العلمي والاجتماعي في مجلّة الحوزة القميّة الناطقة باسم الحوزات العلميّة الشيعيّة في العدد ٦١ من عام ١٤١٥ هـ ١٩٩٤م فليراجَع.

لا شكّ أن ظهور السيد جمال الدين المعروف بالأفغاني على مسرح التاريخ الإسلاميّ قد أثار جدلاً كبيراً، وجاءت ثورته ضدّ الطغاة والاستبداد والمستعمرين فاتحة عهدٍ جديدٍ في النهضة الفكريّة في البلدان الإسلاميّة ومطلع النّور والمعرفة. ولا تزال مدرسته الفكريّة مستمرّةً حتّى عصر النهضة الحديثة والحضارة الأوروبيّة. وليس من اليسير أن أكتب عن سيرة رجلٍ بعد ذلك الاضطراب والتشويش في عامّة الكتب وما لعبت فيها الأهواء من دور كبير دسّت داخلها الأقلام المأجورة من أكاذيب وأضاليل.

ولعلّ تاريخ نشوئه وارتقائه لا يكفيه بحثٌ خاطفٌ، بل يحتاج إلى مجلّدات. وعلى الرغم من أنّ اسم الأفغاني اسم لامع في العالم الإسلامي، ظلّت حياته يكتنفها الغموض، وهناك الكثيرُ من النّاس يجهلون كلّ الجهل جوانب من حياته ونضاله. وقد عرض الدكتور المؤلّف عرضاً موجزاً لكن وافياً لتلك الحقبة من حياته.

وقد جاء دراسته كاملة تعطي القارىء العزيز صورةً واضحةً عن حياة أحد نوابغ العلماء من أعلام المصلحين الإسلاميّين في مطلع القرن الرابع عشر الهجري ومدرسته العملاقة. وكان دوري في هذا الكتاب التحقيق الوافر التعليق على أقوال المؤلّف ودعم بعض الوثائق والصور والمستندات التي خلَّفها السيد جمال الدين في أمتعته الشخصيّة داخل صندوقٍ في دار أمين الضرب، حين حلّ عنده ضيفاً في طهران. وكان المؤلف قد أشار إليه بصورةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ. وكما أرى، من الضروري أن أذكر أوّلاً نسبه بإيجاز وبعض جوانب من حياته والمجتمع الذي عاش فيه ومكان دراسته حيث أستدرِكُ على بحث المؤلّف.

نسبه الشريف

هو السيد جمال الدين بن السيد صفدر بن السيد علي ابن شيخ الإسلام المير رضي الدين محمد الحسيني بن القاضي المير أصيل الدين محمد بن المير زين الدين بن المير ظهير الدين بن المير أصيل الدين بن المير ظهير الدين بن السيد عبد الله (معاصر الإمام زاده أحمد) ابن السيّد مرتضى بن السيّد منصور بن المير سعيد بن السيد محمد بن السيد عبد المجيد بن السيد إسماعيل (الملقّب بالطاهر الذي كان من الأمراء في عصر السلطان سنجر) ابن نصر الله بن السيد داود بن السيد عبد الله بن يحيى بن عمرو[١] ابن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام[٢].

(١) وعمرو هذا هو الذي ثار مع أخيه زيد طلباً بدم جدّهما الإمام الحسين (ع) وقتلا في عام ١٢١ هجريّة بأمر هشام بن عبد الملك.

(٢) يقول شيخنا الأستاذ الشيخ آغا بزرگ الطهراني في (نقباء البشر ج١ ص٣١٠): توجد في حيّ سيدان من توابع أسد آباد همدان مشجرتان في نسب السيد جمال الدين إحداهما بخطّ السيّد سيف الدين بن السيد عبد الوهاب والأخرى بخطّ إمام الجمعة السيد المير شفيع وليس فيهما أيّ اختلاف وهذا النسب في غاية الصحّة وهو هناك كالشمس وضوحاً وجلاءً فإنّ كاتبي المشجرتين من سادة أسد آباد الأجلّاء المعاريف المجاورين لدار والد السيد جمال الدين...

أصله وأسرته

آل شيخ الإسلامي ويقال آل الجمالي: من أعرق الأسر العلويّة العلميّة الشيعيّة وأشرف البيوت في الرياسة في أسد آباد همدان يعرف بطائفة شيخ الإسلامي لكونه منصب بعض أسلاف السيد جمال الدين منذ العصر الصفوي، وهم بيتٌ قديمٌ هناك توفي جدّه الأعلى السيد عبد الله الحسيني المعاصر للإمام زاده أحمد في سنة (٨٦٢ هجرية). يقول حُجّة التاريخ شيخنا الأستاذ الشيخ آغا بزرگ الطهراني في موسوعته الخالدة (طبقات أعلام الشيعة):

(... وتعاقب ذريّة جدّهم الأعلى السيّد عبد الله الحسيني حتى اليوم في حيّ سيدان من أسد آباد بجنب مرقد الإمام زاده أحمد، لهم قبورٌ مشيّدةٌ وألواحٌ صخريّةٌ على قبورهم يُشعِر الكثير منها بالعظمة والرفعة والسيادة والشهادة.

وإليك نصّ بعضها:

(مرقد نخبة الأكابر ونقبة الأخيار جلال

الدولة والدين السيّد صالح السعيد الشهيد.. الخ).

وكان آباء المترجَم له يتمتّعون بمرتبةٍ عاليةٍ لدى حكّام البلدة وأعيانها وكان أهل البلد يرون احترامهم من الواجب المحتّم؛ ويروي بعضهم بعض الكرامات لأهل هذا البيت. وبالجملة فكونه همدانيّاً أسد آبادياً ممّا لا يعتريه شكٌّ أو شبهةٌ لما يأتي من معلوميّة محلّ ولادته.

وأمّا ما طفحت به كتب الغربيين وبعض المصريين من نسبته إلى الأفغان فهو ممّا لا نصيب له من الصحّة. على أنّ سبب شهرته بذلك لأنّه نسبَ إليها نفسه في مصر وما والاها تعميةً للأمر ورجاءَ بلوغ الهدف وحصول الغاية، ولولا ذلك لما سُمّي بحكيم الإسلام ولا لقّب بفيلسوف الشرق ولا كانت له هذه الشهرة الواسعة ولا أنزله الصدر الأعظم علي باشافي استانبول منزل الكرامة والعزّة ولا عَظَّمَهُ ملوك عصره ووزراؤه ولا عُيّن عضواً في مجلس المعارف ولا عَيَّنَتْ له حكومة مصر ألف قرش مصري شهرياً ولا عكف عليه طلّاب مصر وفضلاؤها وأخذوا عنه ولا اتّخذوه مرشداً موجّهاً ودليلاً هادياً، بل لشنّوا عليه الغارات وألصقوا به أنواع الشبهات ونسبوا إليه الهفوات وو..)[1].

---

(١) الشيخ آغا بزرگ الطهراني: نقباء البشر ج١ ص٣١١، الطبعة الأولى، النجفيّة.



السيد هادي الجمالي الأسد آبادي اسمه المستعار في شعره (روح القدس)



ال[illegible]ي
الأسد [illegible] الله
خان ابن اخت السيد جمال الدين

استوطنت هذه الأسرة الجليلة في أسد آباد قرب همدان سنة ٦٧٣ هجرية وأوّل من عُرف منهم السيد عبد الله الحسيني المتوفّى سنة ٨٦٣ هجريّة وقد عُرِفَتْ أسماء آبائه خلفاً عن سلف من ألواح قبورهم بجوار إمام زاده أحمد[١] في حيّ سيدان القريب من دار السيّد صفدر والد السيّد جمال الدين ومن المشجرتين اللتين مرَّ ذكرهما، واشتهروا باسم آل شيخ الإسلام منذ العصر الصفوي في القرن العاشر الهجري لكونه منصب أسلافهم. وأوّل من عُرف بهذا اللقب هو السيّد مير أصيل الدين محمد الحسيني شيخ الإسلام ثمّ توارثَ هذا المنصب نجلهُ السيّد ظهير الدين محمد الحسيني شيخ الإسلام حتّى السيّد المير رضي الدين محمد الحسيني شيخ الإسلام جدّ السيّد صفدر والد السيّد جمال الدين. ومن أشهر رجال هذه الأسرة الكريمة في القرن الرابع عشر الهجري السيّد مسيح الله المتوفّى سنة ١٢٩٩ هجريّة شقيق السيّد جمال الدين والسيّد هادي الجمالي المتوفّى سنة ١٣٤٦ هجرية كان أديباً شاعراً يتخلّص في شعره الفارسي بـ (روح القدس)، وله قصيدةٌ في مدح ابن عمّه السيّد جمال الدين والسيّد الميرزا شريف الجمالي المتوفّى سنة ١٣٥١ هجريّة، وهو الشقيق الأكبر لميرزا لطف الله وله مراسلة مع أبو تراب أفندي خادم السيّد جمال الدين[٢]، والسيّد كمال الدين بن السيّد مسيح الله الجمالي المتوفّى سنة ١٣٥٥ هجريّة، والسيّدُ محمود بن السيّد كمال بن السيّد مسيح الله الجمالي كان معلّماً في مدرسة الجماليّة التي أسّستها الحكومة في أسد آباد تخليداً لذكرى السيّد جمال الدين والميرزا لطف الله خان المتوفّى سنة ١٣٤٠ هجريّة ابن أخت السيّد جمال السيّد جمال الدين

---

(١) إمام زاده: يعني ابن الإمام أو حفيده وهو لقبٌ يطلقه الشيعة على أبناء أو أحفاد أئمّتهم.

(٢) مجموعة أسناد ومدارك، صورة فوتوغرفيّة، رقم ٦٥، طهران، منشورات جامعة طهران، سنة ١٣٨٣هـ، ١٩٦٣م.

ومؤلّف كتاب (شرح حال آثار سيّد جمال الدين أسد آبادي) الفارسيّة، والمطبوع عام ١٣٠٤ هجريّة ١٩٢٦م في برلين (أي في حياة السيّد جمال الدين)، وترجمه إلى العربيّة كل من الأستاذين صادق نشأت وعبد النعيم حسنين، طُبعت الترجمة العربيّة في القاهرة عام ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م. والسيّدُ صفدر المتوفّى بعد سنة ١٣٠٤ هجريّة والد السيّد جمال الدين وغيرهم من رجالات أسرة آل الجمالي الذين لا يزال أحفادهم يقطنون في أسد آبادي وهمدان، وقد ضبط الأستاذ صدر واثقي جملةً من ألواح قبور هذا البيت الجليل وأدرجها في أطروحته التي قدّمها إلى كليّة الإلهيات والمعارف الإسلاميّة في طهران عام ١٣٨١هـ ١٩٦١م[1] والتي تكرر طبعها عدة مرات.


صورة دار السيد جمال الدين في أسد آبادي في مجلة السيدان بجوار إمام زاده أحمد ويرى في الصورة السيد صفات الله خان يشير إلى الغرفة التي ولد فيها السيد جمال الدين

هذه جملةٌ من رجالات هذه الأسرة الجليلة في القرن الرابع عشر الهجري من عاصروا السيد جمال الدين، وذكرهم الميرزا لطف الله خان ابن أخت السيّد جمال الدين في كتابه الذي ذكرناه سابقاً، وأورد أسماء بعض منهم في الوثائق والمستندات التي كانت في أمتعة السيّد جمال الدين عند أمين الضرب في طهران أهداها ورثة أمين الضرب إلى مكتبة

---

(١) صدر واثقي، سيّد جمال الدين حسيني ص١٢- ١٣، طهران، منشورات بيام، الطبعة الثانية.

مجلس الشورى في طهران وهي محفوظة حالياً هناك. ثمة آخرون من فضلاء ورجال هذا البيت العريق في المجد والفضل يطول بنا الحديث لو أردنا ذكرهم جميعاً.

ولادته ووفاته

ولد السيّد جمال الدين في شعبان سنة ١٢٥٤ هجريّة في قرية أسد آباد على بعد خمسة وثلاثين كيلو متراً من همدان من أبوين علويين ولا يزال دار ولادته موجوداً ومعروفاً حتّى اليوم عند أهالي القرية.

والده العالم الفاضل السيّد صفدر بن السيّد علي بن السيّد المير رضي الدين محمد الحسيني شيخ الإسلام.

أمّه هي العلويّة سكينة بكم بنت شريف الدين الحسيني القاضي في أسد آباد شقيق السيّد المير رضي الدين محمد أبناء القاضي السيّد المير أصيل الدين محمد الحسيني شيخ الإسلام وقد مرّ نسبهم الشريف إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع).

توفيّ السيّد جمال الدين في اسطنبول في شوال سنة ١٣١٤ هجريّة ودفن في مقبرةٍ خاصّةٍ للعلماء والأولياء وهي معروفة بالتركيّة بـ (مقبرة شيخلر مزاد لغي)، ثمّ نقل رفاته في عام ١٣٦٤هـ ١٩٤٤م حين كانت العلاقات الإيرانيّة التركيّة متوتّرةً، فقدمت الحكومة الأفغانية طلباً إلى تركيّة تطلبُ فيها نقل رفات السيّد جمال الدين إلى أفغانستان، فوافقت الحكومة التركيّة على الطلب المذكور وتمّ نقل رفاته في تابوتٍ نفيسٍ

من اسطنبول إلى كابل من طريق العراق (بغداد بصرة)، ثمّ نقل إلى الهند جوّاً ومنها إلى أفغانستان ودفن في ضريحٍ خاصٍّ في العاصمة كابل وشيّد على قبره الشريف نصبٌ تذكاريٌّ ضخمٌ.

هل هو إيرانيّ شيعيّ أم أفغانيّ سنّيّ؟

انقسم المؤرّخون وأرباب الفضيلة في أصله ومذهبه ومسقط رأسه إلى فريقين: أحدهما يذهب إلى القول بأنّه ليس أفغانياً ولا سنّياً بل هو إيراني شيعي، وولد في قرية أسد آباد على بعد خمسةٍ وثلاثين كيلو متراً عن مدينة همدان.

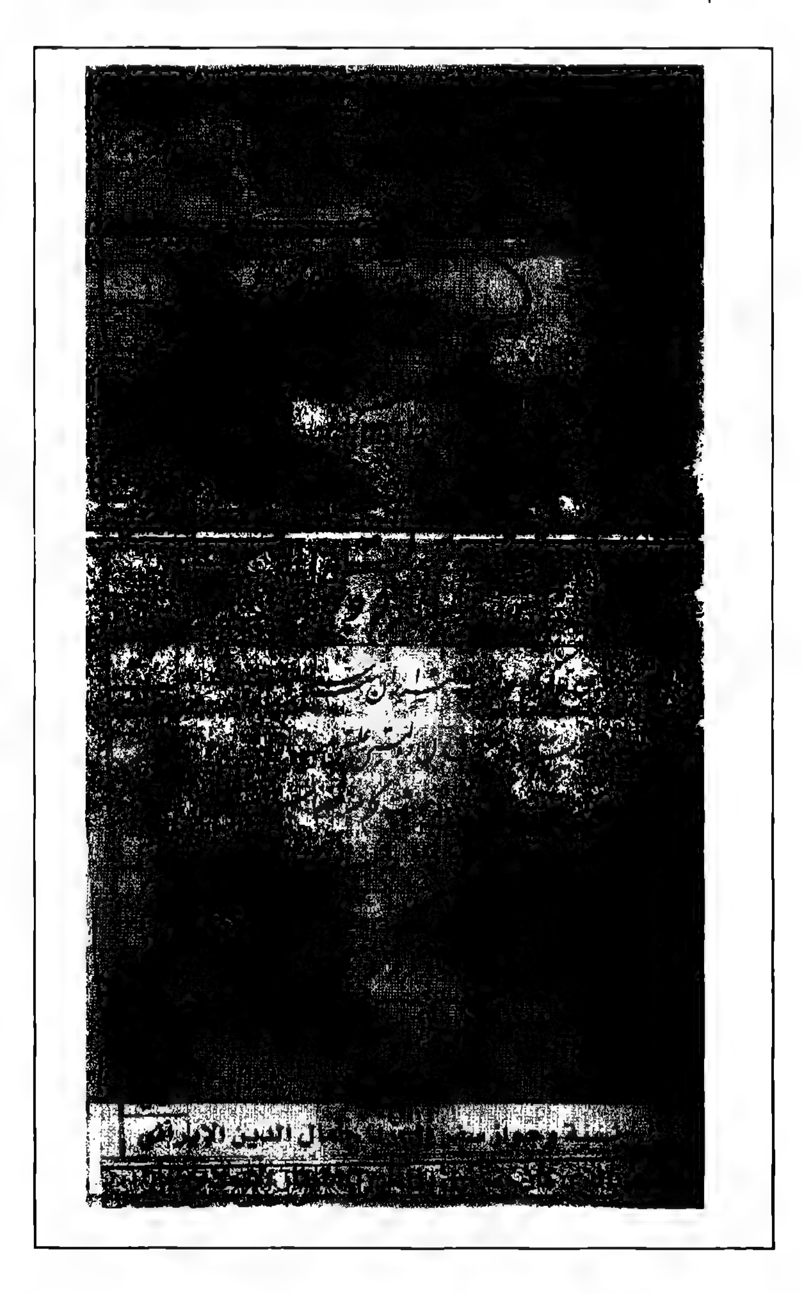
أمّا الفريق الثاني فيقول عنه:

إنّ أصله وولادته في أفغانستان وهو من الطائفة السنّية، وقد ولد في قرية أسعد آباد التي هي من قرى بلدة كنر القريبة من العاصمة كابل.

وقد ذهب المؤلّف؟؟ إلى القول الأوّل أي أنّه إيرانيٌّ شيعيٌّ وليس أفغانياً سنّياً. وممّا يجدر ذكره هنا أنه قد وُجد في أمتعته التي تركها في دار صديقه أمين الضرب جواز سفره وأوراق ووثائق دامغةٌ ومستمسكاتٌ قاطعةٌ. وسوف ننشر بعضها في هذا الكتاب إن شاء الله خدمةً للتاريخ ولإزالة أيّ شكٍّ لدى أهل الضمائر الحرّة.

ولابدّ أن أذكر سبب إخفاء السيّد جمال الدين مذهبهُ وانتمائه إلى

إيران على بعض تلامذته وأصحابه، إذ كان له هدفٌ سامٍ وأمنيةٌ غاليةٌ حيث أراد بها توحيد صفوف المسلمين ونجاح نضاله ضدّ الاستعمار البغيض ولم ينكر أصله ومذهبه على أصدقائه الإيرانيين.



ويقول شيخنا الأستاذ شيخ الذريعة الشيخ آغا بزرگ الطهراني في هذا الصدد في موسوعته الخالدة (طبقات أعلام الشيعة):

(... فليس له في الأفغان أية علاقة، إذ لم يولد يكنر ولم ينتقل مع أبيه إلى كابل ولم ينفهما دوست محمد خان أمير الأفغان ولا كانت لبني عمّه سيادةٌ على شيءٍ من أراضيها ولا يعرف عنهم الأفغانيون شيئاً فضلاً عن أن يكون لهم منزلةٌ في قلوبهم حرمة لنسبهم إذ لم يمتّوا إلى السيّد علي المحدّث الترمذي بصلةٍ ولا رحمٍ، وإنّما هذه أمورٌ أملاها المترجَم له على تلميذه الشيخ محمد عبده شارح (نهج البلاغة) مبالغةً في تعمية الأمر وإغراقاً فيه، وإلّا فالأمر أوضح من أن يخفى. ويكفي الشيعة الإماميّة فخراً في قبال مصر ورجالها أن يكون معلّمها الأوّل ورئيس نهضتها الحديثة الشيخ محمد عبده تلميذاً للمترجَم له، فقد صرّح غير مرّةٍ بأنّه أخذ كلّ ما عنده منه واعترف (في مقدّمته التي كتبها لرسالة المترجَم له في الردّ على الدهريّة) بالعجز عن تحديد منزلته العلميّة ووصفها فقال: أمّا منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدّها قلمي إلّا بنوعٍ من الإشارة إليها، لهذا الرجل سلطةٌ على دقائق المعاني وتحديدها

وإبرازها في صورها اللائقة بها كأنّ كلّ معنىً قد خلق له. وتكفي هذه الشهادة على علوّ منزلة المترجَم له وجلالة قدره وسموّ مكانته في العلوم...)[١].

وهناك مستنداتٌ ووثائقُ كثيرةٌ تثبت أنّ السيد جمال الدين كان إيرانياً شيعيّاً وذكر المؤلّف عشر أدلّةٍ، ورأيت هناك تسعة شواهد ذكرها الأستاذان صادق نشأت[٢] وعبد النعيم حسنين في مقدّمة ترجمة كتاب (جمال الدين الأسد آبادي) المطبوع في القاهرة[٣]، ولا يخلو من الفائدة، وقد تعمدت أن أذكر هذه الشواهد هنا ولو كان بعضها متشابهاً مع الأدلّة المذكورة للمؤلّف.

(... وهناك حقيقةٌ حرّصنا على إظهارها، حتى تكون فكرة النّاس عن جمال الدين صحيحةً وكاملةً، ويكون حكمهم عليه منصفاً ودقيقاً، وهذه الحقيقة هي أنّ جمال الدين كان إيرانياً من أسد آباد بالقرب من همدان، وكان شيعياً جعفري المذهب، ولم يكن أفغانيّاً من أسعد آباد من قرى كنر من أعمال كابل بأفغانستان، كما لم يكن سنّياً

---

(١) الشيخ آغا بزرگ الطهراني: نقباء البشر ج١ ص٣١١ و٣١٢، الطبعة النجفيّة الأولى.

(٢) الأستاذ صادق نشأت (١٨٩٦ ـ ١٩٦٧م) كاتبٌ ومحقّق ومؤلّف ومترجم بارع، جمع بين الدراستين الحوزويّة والأكاديميّة، وتصدّى للتدريس في كليّة المعقول والمنقول وأستاذ محاضر بجامعة طهران، وله مؤلّفاتٌ كثيرةٌ منها: سلسلة فلاسفة إيران در إسلام، شرح حال غزالي، تاريخ سياسي، خليج فارس، توحيد أهل توحيد.

(٣) الترجمة العربيّة، القاهرة (١٣٧٦هـ ١٩٥٧م)، مكتبة الإنجلو المصريّة.

حنفي المذهب.

هذا بالرغم من أنّ جمال الدين قد اشتهر بانتسابه إلى بلاد الأفغان، فلا يكاد يذكر إلّا باسم جمال الدين الأفغاني، بل إنّه هو نفسه كان يحرص على هذه النسبة، وقد دَفَعَتْ إلى هذا دوافع خاصّةٌ تتعلّق بدعوته الإصلاحيّة سنعرضها في هذه المقدّمة.

والملاحظ أنّ لقب جمال الدين الأفغاني قد راج حتى غطى على الحقيقة التي تثبتها الدراسة، والأدلّة الماديّة الملموسة، وهي أنّ جمال الدين إيرانيٌّ صريح النسب. ونحبُّ أن نقرّر أنّنا حينما نثبت أصله، ونؤكّد نسبه لا نهدف إلّا إلى إثبات الحقيقة التي هي غاية الدارسين، ولا نرمي إلّا إلى تصحيح خطأ شائع متعارفٍ عليه بين النّاس بلغ من الرواج درجةً جعلته يطغى على الحقيقة، ونحن إنّما نحاول خدمة التاريخ، ونشر الحقيقة.

أمّا شخصية جمال الدين فإنّها ملكٌ للأمم الشرقيّة والإسلاميّة جميعاً، فسواءٌ أكان أفغانيّاً سنّياً، أم إيرانيّاً شيعيّاً فإنّه مصلحٌ شرقيٌّ إسلاميٌّ، وبطلٌ من أبطال تحرير الشرق والمسلمين، يزهو به كلّ شرقي، ويعتزّ به كلّ مسلم أيّاً كان موطنه.

هذا فضلاً عن أنّ أفغانستان قطرٌ إسلاميٌّ مجاورٌ لإيران وهي تشترك معها حتّى الآن في اللغة والدين فلن يضير أيّ قطر إسلاميّ أن يثبت أنّ جمال الدين إيراني ما دامت الأقطار الشرقيّة تعدّهُ ملكاً لها جميعاً، وجزءاً من مفاخرها، بل إنّنا نعتقد أنّ الدارسين ـ أينما وجدوا ـ يحرصون على معرفة الحقائق وتحريها.

والشواهد التي تثبت أنّ جمال الدين إيرانيٌّ من الكثرة والوضوح بحيث يشغل تسجيلها حيّزاً كبيراً، ولكنّنا سنكتفي بالمهمّ منها،

ونوجزها فيما يلي:

أوّلاً: من البديهيّات أنّ جمال الدين لو كان أفغانيّاً كما هو معروفٌ لبقيت عائلته أو نفرٌ قليلٌ منها في أفغانستان، ولوجد من يدّعي القربى أو الصلة أو النسب لهذه العائلة، ويتّخذ من هذا وسيلةً للتفاخر والشرف.

فهل توجد في أفغانستان بقيّةٌ من عائلة جمال الدين؟!... ليوجه هذا السؤال إلى الأفغانيين أنفسهم، فسوف يجيبون عليه بالنفي...

فأين توجد عائلة جمال الدين إذن؟!.. إنّ الزائر لقرية أسد آباد القريبة من همدان بإيران يجد بقيّة أسرة جمال الدين تسكن في حيّ (سيدان)[1] وتعرف بالأسرة الجماليّة، ويجد من أفرادها المشهورين: السيّد هادي روح القدس، والميرزا لطف الله، والميرزا شريف خان، وعطاء الله خان، وصفات الله، ونصر الله، وفتح الله، وسعد الله، وقد اشتهروا جميعاً بلقب الجمالي نسبةً إلى جمال الدين.

كما يجد الزائر مدرسةً باسم المدرسة الجماليّة أنشأتها وزارة المعارف الإيرانيّة في أسد آباد مسقط رأس جمال الدين وسمتها باسمه تخليداً لذكراه، وتمجيداً له.

وممّا يتّفق مع العقل والمنطق بعد هذا الدليل الماديّ الملموس أن يكون جمال الدين إيرانيّاً من أسد آباد، لا أفغانياً من أسعد آباد، وأن يكون انتسابه إلى أفغانستان لشيءٍ في نفسه يتعلّق بدعوته الإصلاحية، فقد وجد أنّ انتسابه إلى الأفغان ييسر مهمّته في العالم السنّي، وخشي أن يؤدّي كونه إيرانيّاً إلى وضع العراقيل في طريقه، ويحول دون نشر دعوته خصوصاً في العصر الذي كان يعيش فيه، فقد كان التعصب المذهبي على أشدّه، وكان يكفي أن يعرف النّاس في العالم السنّي أنّ جمال الدين

---

(١) سيدان: الجمع الفارسي لكلمة (سيد) بمعنى (السادة).

إيرانيّ، فينصرفوا عنه مهما كانت دعوته، ومهما كان ما أوتيه من علمٍ أو منطقٍ.

ولم يكن أمام جمال الدين غير هذه النسبة لأنّ أفغانستان مجاورةً لإيران من ناحيةٍ، وتشترك معها في اللغة والدين من ناحيةٍ أخرى كما أنّ جمال الدين عاش في أفغانستان بضع سنين وألّف كتاباً سمّاه (تاريخ الأفغان)، ولقّب في أثناء إقامته بالأفغانيّ وكان مكروهاً من حكّام إيران وعلى رأسهم ناصر الدين شاه فكانت الظروف المحيطة به، والأهداف التي يرمي إليها تحتم جميعها أن يختار جمال الدين لقب (الأفغاني) دون غيره.

ثانياً: إنّ المتأمّل قليلاً في اسم والد جمال الدين، وهو (صفدر) يستطيع أن يقطع بأنّه إيرانيٌّ شيعيٌّ، فهذا الاسم لا يخلو من الدلالة على أصل جمال الدين الإيراني، ومذهبه الشيعيّ، لأنّ اسم (صفدر) مركّبٌ من كلمتين هما: (صفّ) العربية و(در) الفارسيّة التي معناها (ممزّق) أو (مفرّق) ومعنى هذا الاسم (ممزّق صفوف الأعداء في ميدان القتال).

وقد أسند الإيرانيّون هذه الصفة إلى عليّ بن أبي طالب ولقّبوه بهذا اللقب نظراً لما كان يبديه في الحروب من بسالةٍ عجيبةٍ ضدّ المشركين.

ولا يوجد لاسم صفدر مسمّى في أفغانستان، رغم أنّ لغتها هي الفارسيّة، كما لا يوجد له مسمّى في أيّ بلدٍ سنّي آخر، فهو لا يوجد إلّا بين الشيعة.

وهذا ممّا يرجّح أنّ جمال الدين إيرانيّ شيعيّ وليس أفغانيّاً سنّياً.

ثالثاً: إنّ المتتبّع لنشأة جمال الدين، وأسلوب تحصيله للعلوم المختلفة يستطيع أن يدرك في سهولةٍ ووضوحٍ أنّه شيعيٌّ إيرانيٌّ فقد احتذى حذو الشيعة في دراساته.

فقد ولد جمال الدين في عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٩)، وظلّ في المنزل حتى العاشرة يشتغل بحفظ القرآن الكريم، ويتعلّم مبادئ العربيّة تحت إشراف أبيه ورعايته.

ثمّ حمله والده إلى قزوين في عام ١٢٦٤، حيث التحق بمدرستها، وكان والده يعمل مدرّساً بها، فمكث فيها عامين، سافر بعدهما إلى طهران في عام ١٢٦٦ ليتتلمذ على يد أقا سيد صادق أكبر علماء الشيعة في طهران في ذلك الوقت، ثمّ انتقل جمال الدين بعد ذلك إلى النجف، وهو البلد الذي كان ـ ولا يزال ـ موطن العلم والعلماء في نظر الشيعة، ومركز الدراسات العليا في المذهب الشيعيّ، يحجُّ إليه كلّ من يريد التخصّص في علوم الدين، وبلوغ مرتبة الاجتهاد، فيقيم فيه، ويتابع الدراسة على يد أحد المجتهدين من علماء الشيعة، وحاملي لواء المذهب الشيعي.

وقد أقام جمال الدين في النجف أربع سنوات وتتلمذ فيها على يد الشيخ مرتضى الأنصاري أحد علماء الشيعة المعروفين.

والواقع أنّ المتأمّل في الطريقة التي اتّبعها جمال الدين في تحصيله ليدرك بسهولةٍ أنّه شيعي، وأنّه يسلك مسلك الشيعة في الدراسة.

إذ ممّا تمتاز به الدراسات الدينيّة في المذهب الشيعيّ الإلمام بقسطٍ وافرٍ من العلوم الفلسفيّة، والتوسّع في دراسة المنطق وعلم الكلام إلى جانب دراسة الفقه وعلم الأصول.

وهذا النوع من الدراسة يهب الدارس قوةً في الجدل والاستدلال وقدرةً على البحث والنقاش، والتلاعب بالألفاظ ومدلولاتها، بحيث تتّفق ورغبات الدارس، وتخدم أغراضه وهو يجادل خصمه.

ولا توجد هذه الدراسة عند علماء أهل السنّة الذين يقتصرون

في دراستهم على الفقه، وأصول الفقه مع توسّع ملحوظٍ في الحديث والتفسير واللغة العربيّة والأدب.

وقد كانت دراسة جمال الدين على الطريقة الشيعيّة ممّا جعل قوّته في الحكمة والمنطق وعلما لجدل من الظواهر التي لفتت إليه الأنظار في الأوساط العلميّة في مصر وتركيا، فوجد فيه طلّاب العلم لوناً جديداً لم يألفوه من قبل، فمالت إليه أفئدتهم، والتفّوا حوله، وافتخروا بالتتلمذ على يديه ومن هؤلاء محمد عبده وسعد زغلول ولم يجدوا في التتلمذ عليه سواءً أكانوا من طلّاب العلم أو من رجال الأزهر حَطاً من قدرهم، رغم ما كانت تمتاز به مصر من علوّ كعب في الدراسات الدينيّة بالذات.

وإنّ هذه الطريقة التي اتّبعها جمال الدين في دراسته، وهذا اللون الذي تميّزت به ثقافته لدليلٌ قويٌّ على أنّه إيرانيٌّ شيعيٌّ، وليس أفغانيّاً سنّياً.

رابعاً: ولعلّ من أوضح الأدلّة على أنّ جمال الدين إيرانيٌّ اعتراف بعض كبار المسؤولين من الأفغانيين أنفسهم بذلك واقتناعهم به.

وقد اعترف بذلك الأمير عنايت الله خان عم أمان الله خان ملك الأفغان الأسبق، واقتنع بصحّته، ولذلك حرص في أثناء سفره من طهران إلى بغداد على النزول في قرية أسد آباد، وقد مكث فيها فترةً اجتمع في أثنائها بنفرٍ من أفراد الأسرة الجماليّة، وتحدّث معهم ثمّ زار قبور أجداد جمال الدين، والدّار التي ولد فيها، ولم يغادر أسد آباد، إلّا بعد أن تأكّد من أنّ جمال الدين أسد آبادي إيراني.

وقد روى هذا أكثر من واحدٍ من الثقات على لسان الأمير، وهو أمرٌ لا ينكره الأفغانيون أنفسهم.

خامساً: ومن أقوى الأدلّة على أصل جمال الدين، وكونه إيرانيّاً شيعياً

اللهجة التي كان يتحدّث بها اللغة الفارسيّة، رغم أنّ اللغة الفارسيّة هي اللغة التي يتحدّث النّاس بها في كلّ من إيران وأفغانستان حتّى الوقت الحاضر، إلّا أنّ اللهجة الأفغانيّة تختلف في النطق والأسلوب عن اللهجة الإيرانيّة، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ يوجد في كلّ اللغات، ويستطيع أن يدرك الفرق بين اللهجتين كلّ من له إلمامٌ بالفارسيّة.

وقد شهد كلّ من اتّصل بجمال الدين، واستمع إلى أحاديث ـ كما سيأتي ـ بأنّ لهجة الفارسيّة كانت إيرانيّة بحتةً، ليس لها صلةٌ باللهجة الأفغانيّة، ولا يوجد بينها وبين اللهجة الأفغانيّة أيّ تشابه، رغم أنّه أقام بضع سنواتٍ في أفغانستان مدفوعاً بميله إلى الأسفار ورغبته في زيارة البلاد الإسلاميّة، ونشر دعوته فيها.

كما أنّ أسلوب كتابته كان إيرانيّاً خالصاً، ويتّضح هذا من المقالات العديدة التي كتبها، فالذي يقرأ رسالة نيجرية[1] أو المقالات الكثيرة التي كتبها باللغة الفارسيّة والذي نشر جزءاً منها في كتاب (مقالات جماليّة) في طهران في سنة ١٣١٢هـ شمسية، يستطيع أن يدرك بسهولةٍ ويسرٍ أنّ أسلوبها أشبه بكتابات الإيرانيين منه بأيّ أسلوبٍ آخر[2].

---

(١) معناها: (الرسالة الطبيعية) وقد كتبها جمال الدين في الردّ على الدهريّين.

(٢) من القرائن التي تثبت أنّ جمال الدين من أسد آباد فضلاً عن لهجته الفارسيّة ما ورد في كتاب (مردان خودساخته) أي (الرجال العصاميون) فقد ذكر تقي زاده في مقالته عن جمال الدين ـ في ص٤٤ ـ ما يأتي:

«ولو أنّ السيد جمال الدين قد عاش مدّةً من أوائل عمره في أفغانستان، ولكن يبدو بعد جمع الروايات والدقّة السكافية، أنّ انتسابه إلى إيران ـ دون تعصّب ـ أصحّ، وخصوصاً وأنّني قابلت أشخاصاً متعدّدين من ملازمي جمال الدين الإيرانيين وكان يلقّب نفسه صراحةً بأنّه إيرانيّ.. ومن الأشخاص الذين حدّثوني عنه الكاتب القفقازيّ الشهير محمد أقا شاه تختنسكي وقد قال لي إنّ السيد كان يتحدّث اللغة التركيّة باللهجة الهمدانيّة، وبديهيٌّ أنّ انتشار هذه اللغة في نواحي كابل من الأمور المستبعدة».

وهذا كلّه يرجّح أنّ جمال الدين كان إيرانيّاً شيعيّاً، ولم يكن أفغانياً سنّياً.

سادساً: وهناك سببٌ يجعلنا نقتنع بأنّ جمال الدين إيراني الأصل ألا وهو اهتمام جمال الدين بإيران أكثر من اهتمامه بأيّ قطرٍ آخرٍ، وميله إلى إصلاح أحوالها، وجعلها المصدر الذي يغذّي حركة إصلاح العالم الإسلاميّ، وتوحيد صفوفه.

وهذه غريزةٌ فطريّةٌ لا يمكن لإنسانٍ أن يقاومها فحبُّ الوطن يستقرُّ في قلب الإنسان، مهما جار الوطن عليه، وهذا ما لاحظناه في تصرّفات جمال الدين، فقد كان يحاول دائماً أن يدخل إيران كلّما أقصي عنها، وأن يفكّر في التخلّص من ناصر الدين شاه، لمّا أيقن أنّه العقبة التي تحول بينه وبين وصوله إلى أهدافه الإصلاحيّة في إيران؛ وقد كان اشتراكه في مؤامرة قتل هذا الملك سبباً في افتضاح أمره هو، وتخلّص السلطان العثمانيّ منه في النهاية.

وكانت تصرّفات جمال الدين في تركيا تثبت أنّه إيرانيٌّ، فأغلب من كان يجتمع بهم في إسلامبول كانوا من الإيرانيين مثل: ميرزا حسنخان خبير الملك، والشيخ أحمد روحي، وميرزا أقا خان الكرماني، وزين العابدين المراغي، والسيّد توفيق الهمداني، وحسين دانش الأصفهاني، وأمثالهم من الإيرانيين الذين وجدوا في إسلامبول في أثناء إقامته فيها.

ولذلك فإنّ خصوم جمال الدين حينما أخذوا يناوئونه، ويدسون له، لم يجدوا شيئاً يغمزونه منه إلّا كونه إيرانيّاً شيعيّاً، وأنّه يكذب ويدّعي أنّه أفغاني سنّي حتى يجد له طريقاً في تركيا والأقطار الإسلاميّة السنّية، وهذا ما فعله شيخ الإسلام أبو الهدى في إسلامبول، فقد غمزه من هذه الناحية واستطاع أن يغيّر رأي السلطان فيه.

وهذا دليلٌ واضحٌ يبيّن حقيقة أصل جمال الدين، وأنّه لم يكن أفغانياً سنّياً، بل كان إيرانياً شيعياً.

والواقع أنّ جمال الدين كان إيرانياً في طبعه وتفكيره وتصرّفاته رغم كثرة أسفاره، وكانت تدفعه دائماً رغبةٌ ملحّةٌ إلى التفكير في أمر إيران، والعمل لما فيه خيرٌ، وطبيعيٌّ أنّ الإنسان لا يتحمّل الأذى والهوان إلّا من أجل وطنه، وقد تحمّل جمال الدين كثيراً من العناء من أجل إيران، ومحاولة جعلها المركز الرئيسيّ للجامعة الإسلاميّة.

غير أنّ جمال الدين لم يستطع السير بدعوته في إيران، أو لعلّه يئس من تحقيق أهدافه فيها في الوقت الذي يريده، ووجد أنّ بلدته أسد آباد أضيق من أن يقيم فيها، وأنّ الظروف في إيران لا تمكّنه من القيام بأيّ نشاطٍ، فدفعه هذا إلى حبّ الأسفار، وزيارة البلاد الإسلاميّة، ونشر دعوته فيها، على أمل أن تحقّق أهدافه عن هذا الطريق.

وقد روى هذا عنه ابن أخته لطف الله خان حين قال[1]: «وفد علينا بأسد آباد السيد الخال الأجل بعد عودته من الحجّ قاصداً الذهاب إلى زيارة الإمام عليّ الرضا بخراسان، ومكث عندنا ثلاثة أيام لتجديد العهد مع والده، وأفراد أسرته، فتعلّقت به قلوب سكّان البلدة، وطلب إليه والده الذي كان لا يزال حتى ذلك الحين (١٢٧٠هـ) على قيد الحياة أن يغيّر من عزمه، ويبقى في أسد آباد، ويعيش معهم فيها، فاعتذر جمال الدين عن قبول الطلب قائلاً: إنّني كصقرٍ محلّقٍ يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيّقاً لطيرانه، وإنّني لأتعجّب منكم إذ تريدون أن تحبسوني في هذا القفص الضيّق الصغير[2]».

---

(١) انظر كتاب المقالات الجمالية، لجامعها لطف الله الجمالي، طبع طهران، ص٢، الأفغاني.

(٢) نصّ عبارته بالفارسيّة هي: «من مانند شاهبازى هستم كه فضاي عالم با ابن وسعت براى

ويبدو أنّ جمال الدين لمّا صمّم على السفر والطواف بالبلاد الإسلاميّة، وجد أنّ انتسابه إلى إيران سيقف عائقاً دون دخوله هذه البلاد، ودون القيام بالدعوة فيها، فلقّب نفسه بالأفغاني، حتى يتمكّن من أن يجد أذناً صاغيةً بين الشعوب الإسلاميّة السنّية التي يزورها، ولم يكن أمام جمال الدين لقبٌ آخرُ يستطيع أن يحتمي به غير الأفغاني لأنّه فضلاً عن أنّ أفغانستان بلاد سنّية، وأنّ لغتها هي اللغة الفارسيّة كلغته هو فإنّ مذهبها هو المذهب الحنفي الذي كان المذهب الرسميّ في الدولة العثمانيّة؛ وكان التعصّب المذهبيّ على أشدّه خصوصاً في عصري السلطان عبد الحميد في تركيا والشاه ناصر الدين في إيران، ولولا صنيع جمال الدين هذا ما تيسّر له أن يتزعّم علماء الأزهر في مصر وهو إيرانيٌّ شيعيٌّ.

وقد حقّق انتساب جمال الدين إلى الأفغان له هذا الغرض، بل حقّق له نفعاً آخر هو أنّه جعله بعيداً عن متناول ممثلي إيران وقناصلها في الخارج، لأنّ أفغانستان لم يكن لها تمثيلٌ في الخارج في ذلك الوقت، كما كان للإنجليز نفوذٌ كبيرٌ فيها فكانوا يرعون أتباعها في الخارج، وقد يسّر هذا لجمال الدين مهمّة السفر إلى الأقطار الإسلاميّة السنّية، كما يسّر له الإقامة فيها بعد طرده من إيران.

وقد ازداد إصرار جمال الدين على أنّه أفغانيٌّ حينما ساءت علاقاته بحكّام إيران حتى يبعد الشرّ عن أسرته في أسد آباد، فقد جرت العادة في ذلك الوقت أن تؤخذ الأسرة بجرم أيّ فردٍ منها، ولو أنّ هذا لم يغن أسرة جمال الدين فتيلاً ولم يبعد عنها الشرّ بعد اتّهام جمال الدين

طيران اوتنك باشد، تعجب دارم از شماكه ميخواهيد مرادراين قفس تنك وكوجك باي بند كنيد» المقالات الجمالية، ص١٢.

بالاشتراك في تدبير قتل ناصر الدين شاه.

وهذا أيضاً دليلٌ قويٌّ على أنّ جمال الدين إيرانيّ، وإلّا ما نكّل بأسرته في أسد آباد بعد اتّهامه هو، ولما وجد مبررٌ لاتّهام أشخاصٍ في أسد آباد في حادثةٍ وقعت في طهران، ولم يكن لهم فيها ناقةٌ ولا جملٌ.

سابعاً: ومن الأسباب التي تقنعنا بأنّ جمال الدين إيرانيّ أنّ السلطان عبد الحميد نفسه اعترف بأنّه السيّد إيرانيّ شيعيّ بعد أن تأكّد من ذلك، فقد وصلته عريضة[1] من أهل أسد آباد بهمدان تقرّر أنّ جمال الدين منها، وأنّه ينتمي إلى إحدى الأسر المقيمة فيها؛ وكانت هذه العريضة كافيةً لتغيير رأي السلطان فيه.

ولم يستطع جمال الدين أن ينفي عن نفسه أنّه إيرانيّ، ولو كان أفغانيّاً لسارع بتكذيب ما جاء في العريضة ولأرسل إلى موطنه أفغانستان يطلب شهادةً تثبت أنّه أفغانيّ لتشفع له عند السلطان.

والواقع أنّ رجلاً كجمال الدين لم يكن من السذاجة بحيث لا يتوقّع انتقاماً من مظفّر الدين شاه ابن ناصر الدين شاه الذي اتّهم بتدبير قتله، ولا شكّ أنّه كان يعرف أنّ المغمز الوحيد الذي يمكن أن يغمز منه هو اتّهامه بأنّه شيعيّ، لأنّ هذا وحده يكفي لتغيير رأي السلطان العثماني فيه، فلو لم يكن كذلك لاستعدّ لدفع التهمة عنه، ولكنّه لم يستطيع أن ينفي عن نفسه أنّه شيعيٌّ إيرانيٌّ فأصابه وأفراد عائلته ما أصابهم.

ثامناً: وممّا يرجّح أنّ جمال الدين إيرانيّ تمجيدهُ للإيرانيين وإشادته بذكائهم، رغم ما لاقاه من الحكومة الإيرانيّة والملك الإيرانيّ من اضطهادٍ وعنتٍ؛ وهو شيءٌ أسرف في ذكره في حقّ الشعب الإيرانيّ، كما كان جمال الدين يصرّح دائماً بأنّه لولا فساد الحالة السياسيّة في إيران لما

(١) قدّمت العريضة بواسطة السفارة الإيرانيّة في الآستانة.

غادرها مدّة حياته، ثمّ حرصه العجيب على إصلاح هذه الحالة كلّما زار إيران، وتشجيعه على قتل ناصر الدين شاه لمّا يئس من إصلاحها اعتقاداً منه بأنّه أصل الدّاء، وسبب البلاء.

ولعلّ من المفيد هنا أن نفصل هذه المسالة بعض الشيء نظراً لذكرها موجزةً في الكتاب، فلعلّها تكشف جوانب الموضوع كشفاً يعين على الإلمام به.

فلقد كان نشاط جمال الدين في وقتٍ كانت إيران فيه تحت حكم ناصر الدين شاه الذي استمرّ نصف قرنٍ من الزمان، وقد وضع ناصر الدين كلّ همّه في التمتّع بلذائذ العيش، واللهو والمتع والصيد تاركاً بلاده تعاني ضروباً من الضعف والانحلال، وكان رجال الحكم لا يجرؤون على مطالبة السلطان بالإصلاح، قانعين بما تحت أيديهم من منصبٍ وجاهٍ، ومتقرّبين إلى السلطان بأنواعٍ من النفاق والزلفى، فكلّما ظهر شخصٌ مصلحٌ كجمال الدين أسرعوا إلى إطفاء نوره، وإخماد دعوته، بأن يشكّكوا الشاه فيه، وفي دعوته، وفي حقيقة نواياه، ويحذّروه من ثورة قد يدبرها ضدَّه، فلا يلبث الشاه أن يغضب عليه، ويأمر بإخراجه من البلاد.

وقد حدث هذا لجمال الدين أكثر من مرّةٍ، ولكنّه كان في كلّ مرّةٍ يجاهر بفساد الحالة، وبضرورة التعجيل بالإصلاح ممّا أثبته حسين عدالت في رسالته التي كتبها عن جمال الدين إذ يقول:

«واتّفق أنّ رافق الصدر الأعظم ميرزا علي أصغر خان أتابك يوماً السيّد جمال الدين في ذهابه لزيارة ضريح شاه عبد العظيم بالري[1]، فأخذ السيّد يشرح له وضع البلاد، وما وصلت إليه من تدهورٍ وانحطاطٍ،

---

(١) (الري) هي الآن إحدى ضواحي طهران.

بحيث أصبحت محلّاً لأطماع الرّوس والإنجليز، فأجهش الصدر الأعظم بالبكاء وقال له: إنّ كلّ ما ذكرته حقٌّ لا جدال فيه، ولا مفرَّ لإنكاره ولكنّ هذا الرجل يقصد ناصر الدين شاه لا يحبّ أن تتغيّر الأحوال لأنّ كلّ همّه أن يقضي وقته في لهوٍ وفراغ بالٍ، وألّا يحاول عمل شيءٍ قد ينغّص عيشه، ويعجّل بنهايته، ونحن مع علمنا بأنّ الشعب يكرهنا، ويرمينا بالخيانة، إلّا أنّنا لا نستطيع القيام بأيّ عملٍ لإصلاح حال البلاد وتحسين أمور العباد».

وقد وجّهت الحكومة الإيرانيّة بأمرٍ من ناصر الدين شاه الدعوة لجمال الدين ثلاث مرّاتٍ لزيارة إيران، والقيام بإصلاحات فيها ولكنّه كان في كلّ مرّةٍ يقابل بثورةٍ من الرجعيين والمنافقين، تنغّص عليه عيشه، وتشكّك الشاه في نواياه، وكان لا يمضى وقتٌ طويلٌ حتّى ينفض هؤلاء عن أنفسهم غبار الموت، ويأخذوا في تدبير المكائد، ونصح الشاه بالابتعاد عنه، واتّقاء شرّه، ويوهّموه بأنّ هدف جمال الدين الأسمى ليس إلّا إقصاءه عن الملك، فيتخّوف منه ويأمر بإخراجه من البلاد.

ولكنّ جمال الدين كان لا ييأس أبداً، ولا يدع للوهن سبيلاً إلى عزيمته، فكان يفرّق بين الملك وحكومته من ناحيةٍ، وبين الشعب الإيرانيّ من ناحيةٍ أخرى فكان يقول دائماً: «إنّ في شعب إيران حيويةً كامنةً لابدّ أن تظهر في يومٍ من الأيّام، وإنّ في أفراده ذكاءً خارقاً يؤهّله للصعود في معارج التقدّم والكمال، حينما تتهيّأ له الظروف المواتية».

وكثيراً ما صرّح بأنّ الأحوال في إيران لا تساعد على بقائه فيها، وأنّ الأحوال لو تيسّرت له، فإنّه سيبقى ولا يغادرها وسيسعى جاهداً لتحقيق الإصلاح فيها، والوصول إلى الأهداف التي يعمل من أجلها.

والذي يلاحظه المتتبّع لحركات جمال الدين هو أنّه ظلّ يتنقّل

بين إيران وأفغانستان، والهند والحجاز ومصر وتركيا وفرنسا والنمسا وإنجلترا وروسيا، ويذكر إيران والإيرانيين أينما ذهب، ويتمنّى أن تتهيّأ له الوسائل التي تساعده على إقامة صرح الوحدة الإسلاميّة، وأن يتّخذ من إيران مركزاً لها، فلمّا يئس من تحقيق هذا سعى إلى إيجاد وحدةٍ إسلاميّةٍ تحت زعامة الدولة العثمانية، ويتّضح ذلك ممّا ورد في المقالات الجمالية، إذا جاء فيها ما يأتي:

«كان السيّد جمال الدين لا يرجو خيراً من إيران ما دام ناصر الدين شاه القاجاري على رأسها، وكان الشاه المذكور يعلم هذا حقّ العلم، فكان يخاف السيّد، ويتضايق من أحاديثه وأفكاره، ويتميّز غيظاً وغضباً من جرأته وصراحته... فمثلاً قال ناصر الدين له بعد وصوله إلى طهران للمرّة الثانية: يا سيّدنا إنّك قد أتيت أهلاً، ونزلت سهلاً، فقل الآن ما تريده، وما تطلب منّي أن أفعله.

فقال جمال الدين: أريد شيئين: أذناً صاغيةً تسمع ما أقوله، وإرادةً قويّةً تأمر بإجراء ما سمعته، فتهيّب ناصر الدين من هذه الجرأة في الحديث، ثمّ أمر بطرده من البلاد».

وليس عجيباً بعد ذلك أن يتآمر جمال الدين على ناصر الدين ويحرّض على قتله، وقد جاء في المقالات الجماليّة ما يلي: «ولمّا ألقى جمال الدين عصا الترحال بعد زيارته الأخيرة لإيران صمّم على البقاء في الآستانة، واجتمع حوله مريدون، وكانوا من الإيرانيين، ثمّ انضمّ إليه رجلٌ هاربٌ من إيران يدعى ميرزا رضا الكرماني، وكان يعرفه من قبل، فلمّا سأله عن سبب فراره قال له: كنت أشتغل بالتجارة في طهران، فاشترى كامران ميرزا أحد أنجال السلطان ناصر الين منّي بضاعةً وطلب منّي أن أذهب إلى داره لقبض ثمنها، ولكنّه أخذ يماطلني، ويحدّد لي

مواعيد مختلفةٍ، كانت تنتهي دون جدوى حتّى مضت ثلاث سنوات، فطلبت منه أن يعطيني البضاعة أو يدفع نصف ثمنها، ولكنّه رفض ثمّ لم يلبث أن أمر بضربي وحبسي، غير أنّني دبّرت وسيلةً للفرار من السجن والنجاة بنفسي، وإن كنتُ نادماً أشدّ الندم على ما فعلت، فقد ضاعت منّي فرصة الأخذ بالثأر بعد ما أصابني من ذلٍّ وخسارةٍ وهوانٍ...

حقّاً لقد كان يجب عليّ أن أنتقم لنفسي وشرفي من هذا الأمير الغاشم الغادر.

فقال له جمال الدين: وكيف كنت تنتقم لنفسك لو كنت في إيران؟!

فقال: كنت أقتل الأمير.

فقال جمال الدين: فما الفائدة إذن من قطع الغصن مع بقاء الأصل؟!... إنّ الأولى اجتثاث الشجرة من جذرها[1]».

وهذه الأحداث كلّها شواهد صدقٍ على أنّ جمال الدين كان إيرانيّاً شيعيّاً، وليس من الطبيعي أن يحدث ما حدث من جمال الدين، أو يحلّ به ما حلّ لو لم يكن إيرانيّاً شيعيّاً، وهي في الواقع لا تدع مجالاً لأيّ

(١) ومن المعروف أيضاً أنّ جمال الدين لعب دوراً في إلغاء امتياز التبغ الذي منحه ناصر الدين، وذهب لمقابلة ميرزا حسن الشيرازي في سامراء، وكتب له خطاباً ذكر فيه الأدلّة والبراهين القاطعة التي تثبت عدم أهليّة ناصر الدين لحكم بلاد المسلمين، والأضرار التي تلحق بإيران والعالم الإسلاميّ من جرّاء التبغ، والخطاب منشورٌ متداولٌ، وهو يبدأ بتعابير خاصّةٍ بالشيعة في مخاطبة رجال الدين منهم، ممّا يدلّ على خبرة جمال الدين وإتقانه للمصطلحات الشيعيّة الإيرانيّة، وهي مصطلحاتٌ لم تكن معروفةً لدى غير الإيرانيين من المسلمين.
وترتّب على هذا أنّ الميرزا حسن الشيرازي العالم الأكبر والمرجع الأوّل للشيعة إذ ذاك أفتى بتحريم المعاملة في أمر التبغ الإيراني مع الشركة الإنجليزيّة التي حصلت على الامتياز الأمر الذي أدّى إلى إلغائه وتأميم تجارة التبغ.
وهذا أوّل تأميمٍ حدث في البلاد الإسلاميّة.

شكٍّ في أنّ جمال الدين إيرانيّ شيعيّ.

تاسعاً: وهناك سببٌ قد يعدّ في نظر البعض تافهاً، ولكنّه يمكن أن يتّخذ دليلاً على ترجيح أنّ جمال الدين إيرانيّ شيعيّ متعصّب لبلاده ومذهبه في كلّ شيءٍ حتّى في اتّخاذ من يقوم على خدمته ويُعنى بشؤونه الخاصّة، فقد عُرف عنه أنّه كان له خادمٌ اسمه (أبو تراب) وأنّ هذا الخادم كان ملازماً له أينما ذهب.

واسم (أبو تراب) لا يمكن أن يوجد في غير إيران، فهو من الأسماء التي يتسمّى بها الإيرانيّون دون غيرهم، لأنّه لأحدى الكنى والألقاب الخاصّة بعليّ بن أبي طالب.

وقد وثّق جمال الدين صلته بهذا الخادم، بحيث جعله يلازمه في جميع أسفاره، كما جعله موضعاً لأسراره الخاصّة.

وهذا ممّا يرجّح كونه إيرانيّاً شيعيّاً متعصّباً حتى في استخدام الخدم[1].

ويشبه هذا أيضاً توقيعه باسم (جمال الدين الحسيني) وهو يرجّح أنّه شيعيٌّ إيرانيٌّ، فذكر لقب (الحسيني) له معنىً خاص عند الإيرانيين من الشيعة لتعلّقهم الشديد بآل البيت، ولاسيّما الحسين بن علي الذي كان جمال الدين يعدُّ نفسه من نسله.

هذه كلّها أسبابٌ تجعلنا نقطع بأنّ جمال الدين كان إيرانيّاً شيعيّاً، ولم يكن أفغانيّاً سنّياً، وأنّه لم يتّخذ لقب الأفغاني إلّا وسيلةً للوصول

---

(١) نرى أن السيد بعد وفاة أبو تراب وظّف خادماً من أقباط المصريّين باسم جرجي أفندي كان ملازمه حتى وفاته، ولم يتّخذ خادماً سنّياً حتى لم يطلع على كيفيّة عباداته في الخلوات واجتماعه وكلامه مع الشيعة الإيرانيين الذين كانوا يتردّدون عنده لكي لا ينكشف أمره عند العامّة. الصالحي.

إلى أغراضه، وتحقيق أهدافه، وإن كان لم يظفر بشيءٍ من هذه الأهداف نتيجةً لما أحاط به من ظروفٍ.

ونحن لا نبغي من هذا أن نفحم من يزعم أنّ جمال الدين أفغاني، بل نحاول أن نثبت أمراً لم يتأكّد حتّى الآن عند الكثيرين، وأن ندفع ماراج وتأكّد بينهم من أنّه أفغاني، وهو أمرٌ اشتهر حتى غلب على الحقيقة.

وممّا يؤسف له أنّ الذين تعرّضوا لدراسة جمال الدين لم يحاولوا تحرّي الدلائل التي تؤدّي إلى إثبات الحقيقة، وهو ما دفعنا إلى تخصيص هذه المقدّمة لإثباتها خدمةً للتاريخ بصفةٍ عامّةٍ، ولتاريخ البلاد والشعوب التي مرّ بها جمال الدين، وأقام فيها بصفةٍ خاصّةٍ.

ولسنا في حاجةٍ إلى أن نبيّن أنّ إثبات أنّ جمال الدين إيرانيٌّ لا يعدُّ مفخرةً للإيرانيين دون غيرهم لأنّ الأفذاذ من أمثال جمال الدين لا يعدّون ملكاً للإيرانيين والأفغانيين فحسب بل للعالم الإسلاميّ والشرقيّ بصفةٍ عامّةٍ، لأنّ جمال الدين كان يسعى لإيجاد وحدة تضمّ الدول الإسلاميّة والشرقيّة...)[1].

ومن الأدلّة القاطعة التي تثبت أنّ السيّد جمال الدين كان إيرانيّاً شيعيّاً، ثقافته الشيعيّة وأدبه الحوزوي وإذا ألقينا النظر إلى رسائله مع علماء الشيعة يظهر لنا هذا الأمر جليّاً ومنها رسالته إلى السيّد الميرزا محمد حسن المجدّد الشيرازي (١٢٣٠ ١٣١٢هجرية) في سامراء حيث يقول فيها نصّاً (لقد خصّك الله، بالنيابة العظمى، عن الحجّة الكبرى، واختارك من العصابة الحقّة...)، لا تصدر هذه العبارات والمصطلحات إلّا من أقلام علماء الشيعية ومن درس في الحواضر الشيعيّة ومن ترعرع في

---

(١) صادق نشأت وعبد النعيم حسنين جمال الدين الأسد آبادي المقدّمة ص٨ ٢٧، القاهرة، منشورات مكتبة الإنجلو المصريّة، سنة ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م.

حوزاتها ويعتقد بالإمام المنتظر عجّل الله فرجه الشريف.

ثانياً: نرى أن السيد جمال الدين لم ينكر مذهبه وقوميّته على أصحابه من الإيرانيّين إن كانوا في داخل إيران أو خارجها وهؤلاء على علمٍ بأنّ السيّد جمال الدين هو إيرانيّ وشيعيّ وليس أفغانيّاً سنّياً، إلّا أنّه يتستّر بهذا الظاهر لأسبابٍ خاصّةٍ منها أمنيته السامية بتوحيد مذاهب المسلمين حيث نلاحظ أنه قد أجمع المؤرّخون وأرباب الفضيلة من الإيرانيين الذين عاصروا حياة السيّد جمال الدين أو التقوا معه على إيرانيّته وتشيّعه فضلاً عن تصريحهم في مؤلّفاتهم وبحوثهم قائلين: بأنّ في بقيّة الدول يتصوَّرون أنّه سنّيٌ وأفغاني وممّن يؤكّد لنا هذه المقولة هو الوزير محمد حسن خان اعتماد السلطنة (١٢٥٩ـ ١٣١٣هجرية) الذي اجتمع معه أكثر من مرّة في كتابه (المآثر والآثار) المطبوع قبل وفاة السيّد جمال الدين بثمان سنواتٍ وجاء فيه ما ترجمته (... السيّد جمال الدين الأسد آبادي: إنّ له شأنٌ عظيمٌ في العلوم القديمة والفنون الجديدة، ويجب على الإيرانيين أن يفتخروا بوجود هذه الشخصيّة.

درس العلوم الشرعيّة في قزوين ثمّ رحل إلى طهران، وقضى فترةً من الزمن في أفغانستان والهند وذهب إلى اسطنبول وهاجر من هناك إلى أرض مصر، وتصدّى للتدريس هناك حيث تتلمذ على يده ثلّةٌ من العلماء والمحقّقين الأزهريين، وزيّن الصحف والجرائد المصريّة ببلاغته الشامخة.

بعد إقامته في مصر قرّر الرحيل إلى أوروبا، واختار مدينة باريس مركزاً لتأسيس جريدته العروة الوثقى ونشر أفكاره التحريريّة، ومن هنا اشتهر اسمه في جميع الممالك، وذاع صيّت فضائله ونغمة خصائصه.

بادرت بعض الدول العظمى إلى منع انتشار جريدته الفريدة المشار

إليها، وبذلوا الكثير من الجهد لتوقيفها، لذلك وجد نفسه مضطراً إلى ترك أوروبا والتوجّه إلى آسيا وعند وصوله إلى الحدود الإيرانيّة، دُعي من قبل كاتب هذه السطور إلى دار الخلافة، وزار صاحب الجلالة الإمبراطورية (أرواحنا فداه) مرّاتٍ عديدةٍ واستقبل من قبل جميع أصناف النّاس من العالي والداني، ثم شدّ الرحال من إيران إلى روسية، والمقيم حالياً في مدينة سان بترسبورغ، كان محترماً ومعزّزاً أينما سكن، يعتبر أهل السنّة والجماعة بأنّ السيّد كان أفغانياً كما أنّ تلميذه الأجل، أستاذ الأدب (محمّد عبده) يؤكّد ذلك أنّ في مقدمة رسالة ردّ نيجريّة.

على كلّ حالٍ إنّ هذه الشخصية من أعاجيب الأيام ونوادر الأدهار)[١].

وهناك وثائقٌ كثيرةٌ تثبت كونه إيرانيّ وشيعيّ وإذا أردنا ذكرها هنا يطول بنا الحديث وهذا القدر كافي لأصحاب الضمائر الحرّة والمحقّقين في هذا الحقل.

---

(١) الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة، المآثر والآثار ص٢٢٤، طهران، الطبعة، الحجرية سنة ١٣٠٦ هجريّة.

دراسته

نشأ جمال الدين على حبّ العلم وأخذ أوليّات العلوم عن والده في مسقط رأسه أسد آباد، وتعلّم القراءة والكتابة والأدب العربيّ، وحفظ القرآن المجيد وسائر الفنون المتداولة، وقد عرف منذ أوائل عمره الشريف بالنبوغ المبكّر وبالذكاء المفرط، يقول ابن أخته الميرزا لطف الله خان المتوفّى سنة ١٣٤٠ هجريّة (... أنّ السيّد جمال الدين ظلّ في المنزل حتى العاشرة، وكان يتلقّى دروسه الأولى تحت إشراف أبيه ورعايته فقرأ القرآن، وحفظه (صورة) في بضعة شهورٍ، كما درس مبادئ اللغة العربيّة وأتقنها جيّداً.

وكان منذ صباه ولعاً بالمناقشة في المسائل الدينيّة، ومحاولة تفسيرها وإدراك كنهها، وكان يزداد سروراً كلّما بلغ الغاية فيها، وكان والده يشجّعه على ذلك ويحفّزه على مواصلة السير في هذا الطريق، فكانت هذه الظاهرة واضحةً فيه منذ نعومة أظفاره حتّى رُوي أنّه كان يكتفي بقراءة بعض الأبواب من الكتب العربيّة، ثمّ يقوم بتدريس الباقي لزملائه، كما يشهد بذلك ابن خاله العلّامة حاجّ سيّد هادي الأسد آبادي الذي لا يزال على قيد الحياة



(... وصفوة القول أنّه كان أعجوبةً في ذكائه، وقوّة حافته، وقد ساعده هذا على سرعة تبحّره في العلوم الإسلاميّة المختلفة وكانت الأسفار هي الهواية المحبّبة إلى قلبه منذ صغره...)[1].

ويقول حجّة التاريخ شيخنا الأستاذ آغا بزرگ الطهراني في موسوعته الخالدة

(... نشأ على أبيه نشأةً طيّبةً فعُني بتربيته ولقّنه المبادئ بنفسه وكانت تلوح عليه آنذاك إمارات النبوغ فقد كان يمتاز بذكاءٍ

---

(١) الميرزا لطف الله خان : جمال الدين الأسد آبادي ترجمة صادق نشأت وعبد النعيم حسنين، ص٥١، القاهرة، منشورات مكتبة الإنجلو المصريّة عام ١٣٧٦هـ ــ ١٩٥٧م.

مفرطٍ وفراسةٍ غريبةٍ وفكرٍ دقيقٍ ونظرٍ عميقٍ إلى غير ذلك من الأمور المشعرة بيومها إلى ما توصّل إليه وكانت له حافظةٌ عجيبةٌ هي السبب الأوّل في ترقّيه فإنّ ما يُؤَثر عنه من هذا القبيل يجلب الحيرة لسامعه...)[1].

(١) الشيخ آغا بزرگ الطهراني: نقباء البشر ج١ ص٣١٢، الطبعة النجفيّة الأولى.

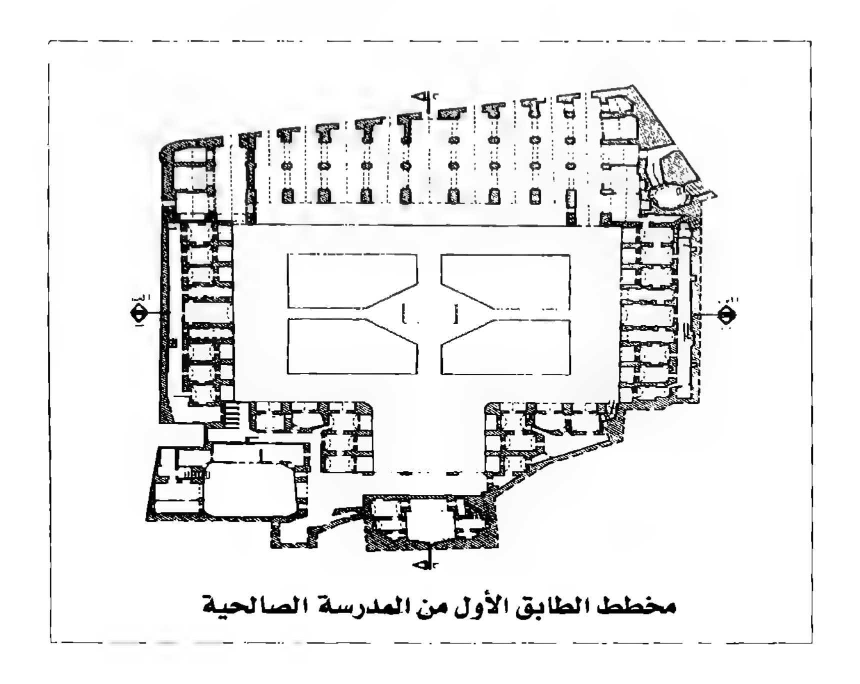
هجرته إلى قزوين

أجمعت المصادر الشيعيّة والمؤرّخون الإيرانيّون والمحققّون المحايدون من غير الإيرانيين على أنّ السيّد جمال الدين عندما بلغ العاشرة من عمره الشريف وقد شاهد والده إمارات الفطنة والبلوغ والذكاء المفرط ظاهرةً على ولده أخذه معه إلى قزوين لإكمال دراسته.

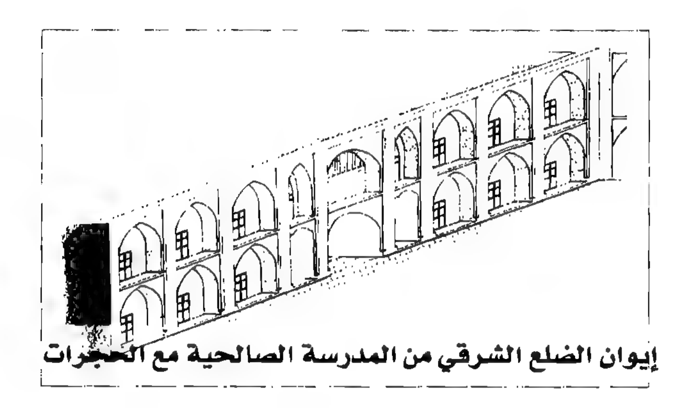
يقول ابن أخته الميرزا لطف الله خان في كتابه (سيّد جمال الدين أسد آبادي) الفارسيّ والمطبوع في برلين عام (١٣٠٤هـ ـ ١٩٢٦م) أي قبل وفاة السيّد جمال الدين بعشر سنواتٍ ما ترجمته وتلخيصه (... إنّه كان أعجوبةً في ذكائه وقوّة حافظه...

ولمّا رآه والده مولعاً بطلب العلم أخذه معه خفيةً عن أمّه سكينة بيكم في حدود سنة ١٢٦٤هجريّة إلى قزوين وكان في أوائل العاشرة من عمره الشريف والتحق بالمدرسة التي كان والده مدرّساً بها وعكف على طلب العلم حتّى في أيام الأعياد والعطل ليلاً ونهاراً. وكما كان في الليالي البيض من كلّ شهرٍ (وهي ليالي ١٣ و١٤ و١٥) يصعد إلى سطح المدرسة ويرصد النجوم حتى طلوع الفجر. ومن أعماله العجيبة في قزوين حيث عمّ فيها الوباء، وفي يومٍ ذهب لشراء الخبز من حانوت الخبّاز القريب من

مدرسته وكان الأخوند المُلا حسين القزويني من أصدقاء والده قد توفّي فجأةً في طريقه فجلبت هذه الحادثة انتباه السيّد وأخذ يتعمّق في دراسة الطبّ وتشريح الموتى...)[1].

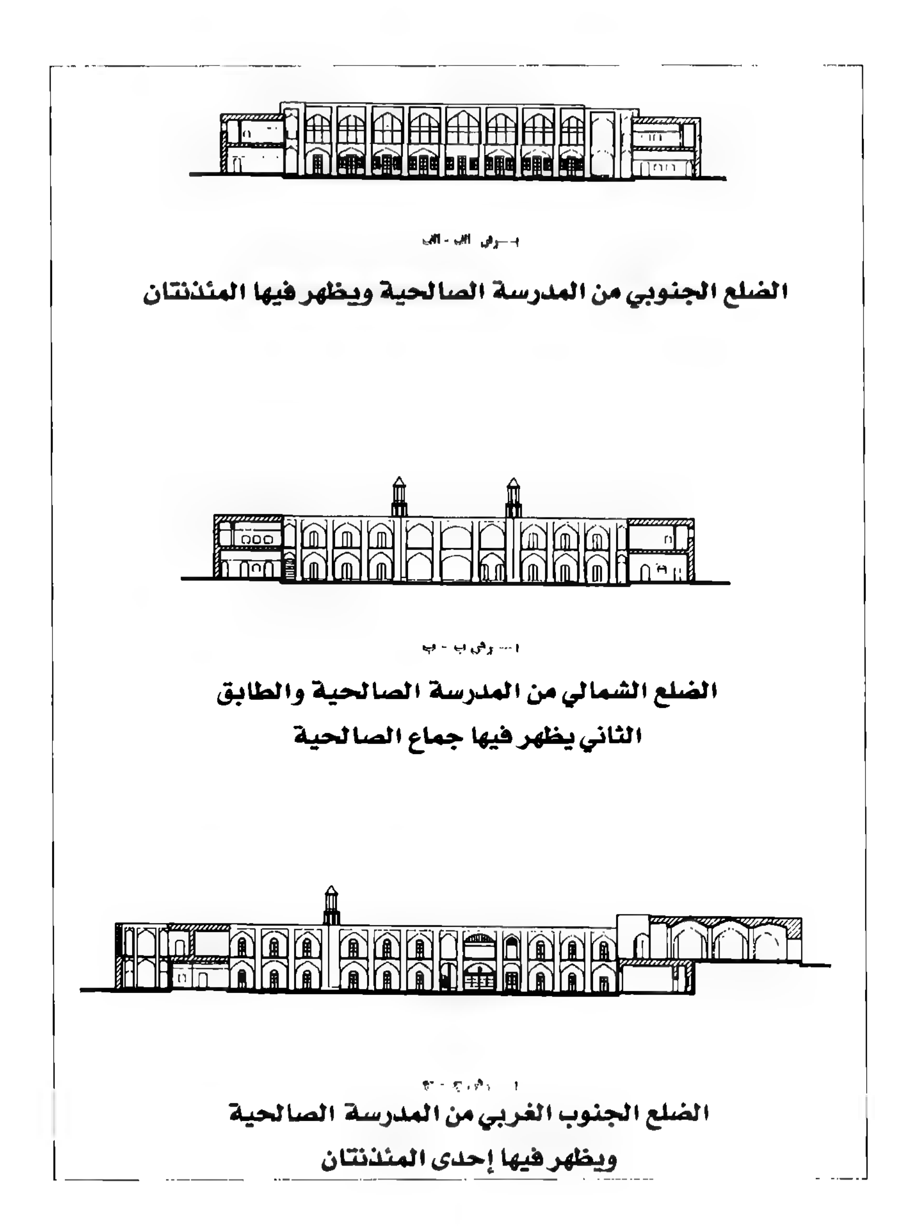


مخطط الطابق الأول من المدرسة الصالحية



إيوان الضلع الشرقي من المدرسة الصالحية مع الحجرات

(١) الميرزا لطف ذ: سيّد جمال الدين أسد آبادي، ص١٨. ١٩، برلين، سنة ١٣٠٤هـ ـ ١٩٢٦م، مطبعة إيرانشهر.



الضلع الجنوبي من المدرسة الصالحية ويظهر فيها المئذنتان

الضلع الشمالي من المدرسة الصالحية والطابق
الثاني يظهر فيها جماع الصالحية

الضلع الجنوب الغربي من المدرسة الصالحية
ويظهر فيها إحدى المئذنتان

وقد أشار أيضاً الوزير الميرزا محمّد حسن خان اعتماد السلطنة في كتابه (المآثر والآثار) أيّام دراسته في قزوين[1] كما مرّ ذكرها وقال شيخنا

(١) الميرزا محمد حسن خان اعتماد السلطنة: المآثر والآثار، ص٢٢٤، طهران، الطبعة الحجريّة، ١٣٠٦هـ.

الأستاذ شيخ الذريعة الشيخ آغا بزرگ الطهراني في موسوعته الخالدة (طبقات أعلام الشيعة):

(... سافر به والده إلى قزوين في (١٢٦٤هجريّة) وهو ابن عشر سنين فمكثا بها سنتين كان والده يدرّسه خلالهما ويغذّيه العلم والمعارف وهو يجدّ بشوقٍ غريبٍ حتّى أيام الأعياد والعطل...)[١].

(١) الشيخ آغا بزرگ الطهراني: نقباء البشر ج١ ص٣١٢، نجف الأشرف، الطبعة الأولى.

مدرسة قزوين الفلسفيّة وتأثيرها في حياة السيّد جمال الدين

وممّا يؤسف له حقّاً أنّ تاريخ الحركة العلميّة والحواضر الفلسفيّة لم يُؤرّخ من قبل الباحثين والمعنيين إلى اليوم بصورةٍ منهجيّةٍ كاملةٍ، لذا نرى أنّ الأستاذ صدر الواثقي في أطروحة تخرّجه في الفلسفة من كليّة الإلهيات والمعارف الإسلاميّة في طهران عام ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م بإشراف الشهيد المطهّري يشكّك في مدرسة قزوين الفلسفيّة ويقول:

(... عندما لاحظ والد السيّد لياقته العقليّة ونبوغه الذاتيّ... أخذه معه إلى مدينة قزوين.. لماذا اختار مدينة قزوين مع وجود مدنٍ علميّةٍ أخرى...)[1]، إنّ مثل هذا الكلام الغير دقيق الذي يصدر من أحد المعاهد العلميّة الهامّة في إيران دفعني أن أتناول شيئاً موجزاً عن تاريخ الحركة العلميّة والفلسفيّة في قزوين.

---

(١) صدر الواثقي: سيّد جمال الدين حسيني بايه كذار نهضتهاي إسلامى ص٢٢، الطبعة الثانية، طهران، منشورات بيام.

لا يخفى على أرباب الفضيلة والمحقّقين منذ أشرق بدر الإسلام في هذه المنطقة أن قزوين كانت أحد ثغور الإسلام ومركزاً للعلم والعلماء والمدارس الفلسفيّة حيث يقول المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) الذي ألّفه في سنة ٣٧٥ هجريّة:

(... قزوين كبيرةٌ كثيرة الكروم... ومن معادن الفقه والحكمة...)[١].

ويقول السمعاني المتوفّى سنة ٥٦٢ هجريّة في كتابه (الأنساب):

(... قزوين وهي إحدى المدائن المعروفة... خرج منها جماعةٌ من العلماء والأئمّة والفضلاء في كلّ فنٍّ ونوع...)[٢].

وأمّا في القرن العاشر الهجري فكانت أكثر ازدهاراً من القرون السابقة حيث أصبحت قزوين عاصمة الدولة الصفويّة (٩٠٧ _ ١١٣٥ هجريّة) ومنها انتقلت العاصمة في أوائل القرن الحادي عشر الهجري إلى أصفهان، وكفى فخراً وشرفاً لمدينة قزوين أنها أنجبت المير محمد باقر الداماد (المولود في قزوين ٩٥٦ والمتوفّى بين طريق كربلاء والنجف ١٠٤١هجريّة)، صدر المتألّهين الشيرازي (شيراز ٩٧٩ بصرة ١٠٤٥هجريّة) الذي درس في قزوين على يد أستاذه المير داماد والشيخ البهائي (المولود في قزوين ٩٥٣ والمتوفّى في أصفهان ١٠٣١ هجريّة)[٣].

وقد ظلّت قزوين إحدى محطّات الفلسفة حتّى القرن الثالث عشر

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٣٠٠، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ _ ١٩٨٨م.

(٢) عبد الكريم السمعاني: الأنساب ج٤ ص٤٩٣، بيروت، دار الجنان، ١٤٠٨هـ _ ١٩٨٨م.

(٣) انظر التفاصيل في نسيم قزوين: دانشكاه بزرگ شيعة در قزوين عصر صفوي، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ _ ١٩٩٦م.

الهجري حيث تخرّج منها الأخوند المُلا علي النوري (المتوفّى ١٢٤٦ هجريّة) مُجدّد الفلسفة الصدرائية ثم يليه تلميذه الأخوند المُلا آغا الحكمي القزويني المتوفّى سنة ١٢٨٥ هجريّة أستاذ السيد جمال الدين في قزوين.

السيّد جمال الدين في مدرسة الصالحيّة بقزوين

مدرسة الصالحيّة أسّسها الزعيم الديني الشهير الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفّى سنة ١٢٧١ هجريّة في حارة قملاق وهي تتكوّن من ثلاث مدارس علميّة مدرسة كبرى ووسطى وصغرى ضخمة بشكلٍ هندسيٍّ رائع في ثلاثة طوابق متصل كلّ منها بالآخر... يقول السيّد محمد علي كلريز في وصفه هذه المدرسة في كتابه (مينودر) ما هو ترجمته

(.. وهذه المدرسة إحدى العمارات المهمّة من حيث المساحة والاتّساع وتعتبر من أكبر المدارس الدينيّة في جميع أنحاء إيران..)[1].

يقول المؤرّخ الشيعيّ المعروف السيّد حسن أمين:

(.. كما زرنا المدرسة الصالحيّة المنسوبة إلى الشيخ صالح البرغاني... وهذه المدرسة هي المدرسة الكبرى وهناك

---

(١) السيّد محمد علي كلريز: مينودر ص٥٧٤، طهران، منشورات جامعة طهران، سنة ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م.

الوسطى والصغرى المتّصلتان بها، وفي هذه المدرسة سكن السيّد جمال الدين الأفغاني حوالي ثلاث سنين ودرس فيها الفلسفة الإسلاميّة على مُلا آغا الحكمي القزويني...)[١].

أجمع المحققون الذين كتبوا عن سيرة جمال الدين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم من السنّي والشيعيّ والمستشرقين أنّه كان له معرفةٌ وثيقةٌ واطّلاع كبير بالفلسفة المشّائيّة والفلسفة الإشراقيّة ولكن لم يتطرقوا لا من بعيدٍ ولا من قريبٍ إلى من هم مشايخه في الحكمة والفلسفة ومن أين أخذ هذا التراث الإسلامي العريق الذي اختصّ به الإيرانيّون في عصره دون غيرهم من الشعوب الإسلاميّة، ولا تزال الفلسفة والعرفان حيّةً في الحواضر العلميّة والحوزات الشيعيّة حتّى اليوم خاصّةً في إيران.

أرى من الضروري أن أذكر بعض الحواضر العلميّة التي عاش فيها السيّد جمال الدين أيّام دراسته في كلّ من قزوين وكربلاء والنجف، وأذكر بعض مشايخه وسائر خصوصيّاته مع ذكر المصادر التي اعتمد عليها.

يقول ألبرت حوراني في وصف السيّد جمال الدين:

(... إنّ كتاباته ومحاضراته أظهرت أنّه كان على معرفةٍ وثيقةٍ بالتراث الفلسفيّ الإسلاميّ، ولاسيّما فلسفة ابن سينا وهذه المعرفة كان من السهل الحصول عليها

---

(١) مجلّة الحوزة القمّية، ص٢٠٨، عدد ٦١، سنة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، عددٌ خاصٌّ بالذكرى المئوية للسيّد جمال الدين الأسد آبادي.

في المدارس الشيعيّة حيث لا يزال تراث ابن سينا حيّاً فيها أكثر ممّا في المدارس السنّية...)[١].

يقول الأمير شكيب أرسلان في كتابه (حاضر العالم الإسلاميّ):

(... فيلسوف الإسلام وعلم الأعلام.. في أفق الشرق.. الذي قال عنه أرنست رنان الفيلسوف الفرنسيّ المشهور بعد أن عرفه: (كنت أتمثّل أمامي عندما كنتُ أخاطبه ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من أساطين الحكمة الشرقيين...)[٢].

---

(١) *Albert Hourani (Arabic Thought...) - oxford 1962 - P 108.*

(٢) الأمير شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج٢ ص٢٨٩، بيروت، دار الفكر، الطبعة الرابعة، سنة ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٣م.

السيّد جمال الدين وفلاسفة مدرسة الصالحيّة في قزوين:

وصل السيّد جمال الدين إلى قزوين أواخر سنة ١٢٦٣هجريّة. وحسب القول المعروف في قزوين إنّه أدرك آخر أيّام الشيخ محمد تقيّ البرغاني الشهير بالشهيد الثالث[1] المستشهد في ١٧ ذي القعدة سنة ١٢٦٣ هجريّة، وتشرّف بخدمته واستفاد منه أكثر من أربعة أشهر وكان لوالده صديق من علماء مدرسة الصالحيّة اسمه الأخوند المُلا حسين القزويني من مدرسي العلوم العقليّة في المدرسة المذكورة وحلّوا عنده ضيوفاً وهو الذي عرّفهم على الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري المتوفّى سنة ١٢٧١ هجريّة مؤسّس المدرسة، وأُعجب الإمام البرغاني حين شاهد سرعة البداهة والذكاء المفرط والفراسة الخارقة والنبوغ العجيب في السيّد جمال الدين، فاستقبله استقبالاً باهراً وأعطاه حجرةً في مدرسته الوسطى التي كانت خاصّةً لأفراد عائلته، ولا تزال حجرته معروفةً في الطابق الثاني من جهة الشمال في المدرسة الوسطى القريبة من مكتبة المدرسة حتّى اليوم، وكما عيّن له والده الذي وظّفه مدرّساً في المدرسة نفسها راتباً

---

(١) الشهيد الأوّل والشهيد المطلق في كلمات علماء الإماميّة هو الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جمال الدين العاملي النبطي المستشهد في ٧٨٦ هجريّة والشهيد الثاني هو الشيخ زين الدين بن علي العاملي الشامي المستشهد في ٩٦٦ هجريّة.

شهرياً وقد حظيت قزوين في مستهلّ القرن الثالث عشر الهجري بعدد كبير من الفلاسفة والحكماء، وازدهرت بهم مدرسة الصّالحية. ومن جهةٍ أخرى فإنّ ما زاد في اشتهارها أنّ الأخوند المُلا علي النوري المتوفّى سنة ١٢٤٦هجريّة قد انهارت قواهُ وكُفّ بصرهُ في السنوات الأخيرة من عمره الشريف وكان يرسل تلامذته وروّاد الفلسفة إلى مدرسة الصالحيّة وحوزة الشيخ المُلا آغا الحكمي. وبعد وفاته انحصر تدريس الفلسفة في مدرسة الصالحيّة.

وقد ذكر لنا الجوُّ الفلسفي في قزوين المستشرق (كنت دوكو بينو) الذي كان سفيراً لفرنسا بين السنوات (١٢٧١ ـ ١٢٧٤ هجريّة) في طهران. وذكر كذلك جماعةً من الفلاسفة المعاصرين للسيّد جمال الدين سواءً أكانوا من المدرّسين أو زملائه الذين تخرّجوا معه من مدرسة الصالحيّة، ومن بين هؤلاء الذين جاء ذكرهم:

(... الأخوند المُلا آغا الحكمي والأخوند المُلا يوسف الحكمي القزويني والمُلا صقر علي القزويني وآغا رضا قلي القزويني والسيّد قوام القزويني والمُلا عبد الله الكيلاني القزويني والمُلا محمد حمزة البار فروشي القزويني، والمُلا حسين علي الطالقاني القزويني، والمُلا مرتضى قلي الطالقاني، والشيخ علينقي الطالقاني القزويني...)[1].

---

(١) كنت دوكو بينو، مذاهب وفلسفة در آسياى وسطى، الترجمة الفارسية، ص٨٢ ـ ٩٤، المترجم م. ف بدون تاريخ الطبع.

وجماعةٌ أخرى ومن أشهر هؤلاء الأخوند الشيخ الملا آغا الحكمي المتوفّى سنة ١٢٨٥ هجريّة الذي انحصر به كرسيّ تدريس الفلسفة العالية وطبقت شهرته الآفاق، وقال في وصفه معاصره الوزير محمد حسن خان اعتماد السلطنة (١٢٥٩ ـ ١٣١٣ هجريّة)

(... الحكيم المولى آغا الحكمي القزويني كان من فحول الفلاسفة الإسلاميين، وصدر المتألّهين في زمانه حيث كان يتّجه طلّاب العلوم العقليّة من أقصى بلاد إيران إلى محضره الشريف، ويتبرّكون ويقبّلون عتبته، والمرحوم آغا رضا قلي القزويني قد تتلمذ على يد هذا الحكيم العظيم حتّى ذاع صيته)[1].

ووصفه السيّد جلال الدين الأشتياني قائلاً:

(..الحكيم المولى آغا القزويني المتوفّى سنة ١٢٨٥ هجريّة بعد أن أكمل دراسته العليا في الفلسفة عاد إلى مسقط رأسه قزوين وتصدّر للتدريس وتهافت عليه طلّاب العلوم العقليّة من كلّ حدبٍ وصوبٍ للاستفادة من علمه الجمّ... وإنّي أعتقد أنّ الحكيم المولى آغا كان من حيث إحاطته بأسس وقواعد مدرسة صدر المتألّهين

---

(١) محمد حسن خان، اعتماد السلطنة، المآثر والآثار، ص١٨٣، طهران، الطبعة الحجرية، سنة ١٣٠٦ هجريّة.

الشيرازي في الحكمة المتعالية في مرتبة الحكيم المولى علي النوري والمولى إسماعيل الأصفهاني...)[١].

وقد حضر السيّد جمال الدين في الحكمة والفلسفة على جماعةٍ أشهرهم الأخوند الملا آغا الحكمي[٢]، الذي مرّ ذكرهُ حتى تشبع بالثقافة العالية في الفلسفة ونبغ في المعقول والمنقول وحاز مكانةً ساميةً وسما على أكثر أقرانه وبرز بين زملائه. لذا نرى أنّه لقّب بفيلسوف الشرق وحكيم الإسلام إلى غير ذلك من العناوين والألقاب. وأيضاً يقول الأستاذ السيّد محمد المحيط الطباطبائي (١٩٠٢ ـ ١٩٩٢م) من كبار المحقّقين المعاصرين قائلاً:

(.. لم يصل السيّد جمال الدين في الفلسفة المشائية إلى مرتبة الميرزا أبي الحسن الجلوة، وفي حكمة الإشراق إلى مرتبة الحكيم القمشة أي. وفي معرفة أسس الحقوق وقوانين أوروبا الميرزا ملكم خان أعلم منه. وفي الرياضيات القديمة الميرزا محمد علي القاضي أو الميرزا عبد الغفّار الأصفهاني أفضل منه. وفي اللغة الفرنسيّة محمد حسن خان اعتماد السلطنة

---

(١) السيّد جلال الدين الأشتياني، مقدّمة الشواهد الربوبيّة، ص١١٠ و١١٥، منشورات جامعة مشهد، الطبعة الأولى، ١٩٦٧م.

(٢) انظر: أثر آفرينان ج١ ص٨، الطبعة الثانية، طهران، انجمن آثار ومفاخر سنة ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م (ضبط السيّد جمال الدين مع تلامذته).

أكثر تضلّعاً، وفي الخطّ والكتابة الفارسيّة الميرزا حسن علي خان أحسن منه. وفي النثر والشعر الفارسيّ الميرزا محمد حسين الفروغي أقدر منه. وفي الأدب العربيّ الشيخ محمد عبده المصري والأديب إسحاق اللبناني أقوى منه وأكثر تسلّطاً. ولكنْ، هناك سرٌّ مكتومٌ في وجود السيّد جمال الدين بحيث لم يكن مثله في وجود هؤلاء المذكورين...)[1].

(صورة) أجل إنّ ثقافته العالية وتضلّعه في الفلسفة المشاء والحكمة والإشراق وغوصه في علوم المختلف التي اكتسبها في مدرسة الصالحيّة بقزوين وأتمّها في كلّ من الحوزتين العملاقتين كربلاء والنجف كلُّ ذلك جعل السيّد محمد المحيط الطباطبائي يعدّه في مصاف ومرتبة هؤلاء الأفذاذ من نوابغ علماء الإسلام ورجال الفكر وفطاحل علمائنا الأعلام في مختلف العلوم وشتّى الفنون الإسلاميّة الذين خدموا العلم والدين والأدب العربيّ خدمةً كبيرةً.

إنّ علوم ومقدرة هذه الكوكبة كانت مجموعةً في حياة السيّد جمال الدين وحده وهو بمفرده يضاهي هؤلاء جميعاً.

---

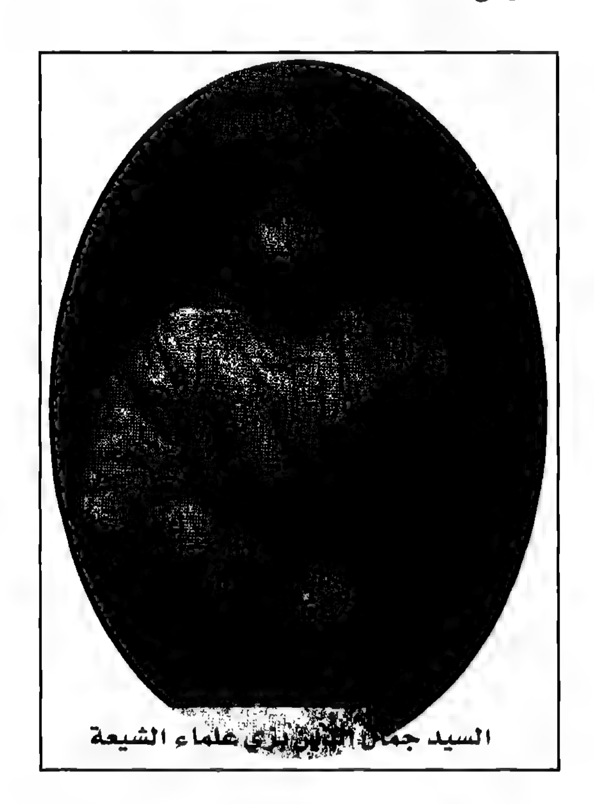
(١) السيّد محمد محيط الطباطبائي: نقش سيّد جمال الدين أسد آبادي در بيدارى مشرق زمين ص٤٩ ـ ٥٠، الطبعة الأولى، طهران.

السيد جمال الدين في كربلاء

وفي أواخر عام ١٢٦٣هجريّة اجتاح كربلاء الوباء وتوفّي فيها خلقٌ كثيرٌ وتشتّتت الحوزة العلميّة وتفرّق طلّابها وجمع من أهالي كربلاء، فتوجّهت الأنظار من طبقات النّاس وخاصّةً الطلّاب والمدرّسين الذين نجوا من هذا المرض الفتّاك، نحو الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري وطلبوا منه التصدّي للتدريس والمرجعيّة وبناء ما هدمه هذا المرض الجارف، فأجاب إلى طلبهم وهاجر إلى كربلاء المقدّسة ثمّ التحق به السيّد جمال الدين في الحائر الشريف وسكن في مدرسة حسن خان القزويني الذي كان يدرّس فيها الإمام البرغاني، وقد ضبط أقدم مصدرٍ هجرة السيّد جمال الدين إلى كربلا جريدة (حبل المتين)[1] لصاحبها الميرزا السيّد حسن الحسيني كلهري الكاشاني (١٢٨٥ ـ ١٣٢٩هجريّة)، والذي التقى مع السيّد جمال الدين، وقد فصّلتُ عنه في كتابي (كربلاء في حاضرها وماضيها) المخطوط. والجدير بالذكر هنا أنّ والدي (قدّس سرّه) كان من المدرّسين في هذه المدرسة وكنت أنا (كاتب هذه السطور) دون الرابعة عشرة من عمري أتردّد على حجرة والدي، وكانت حجرة

(١) انظر: جريدة حبل المتين: العدد الرابع، الصفحة الأولى، الصادرة في ١٠ رجب سنة ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م.

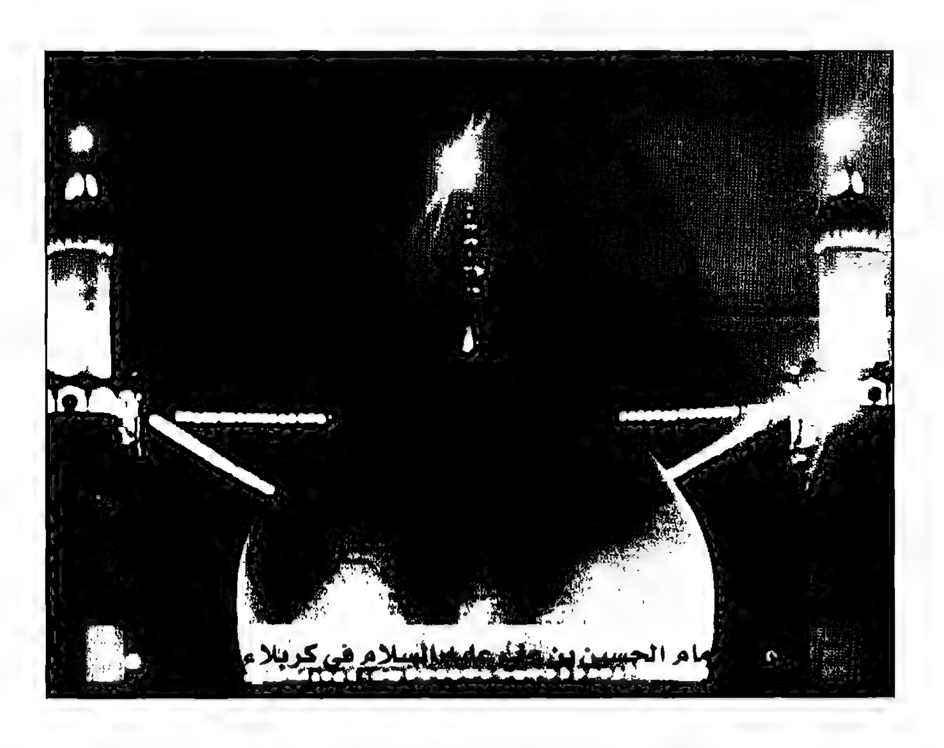
السيّد جمال الدين تشير بالبنان في الطابق الثاني من جهة الجنوب الشرقي من المدرسة المذكورة، وكانت هذه المدرسة من أكبر المعاهد العلميّة في العراق على الإطلاق وآيةً من آيات الفنّ المعماري حيث كانت جدران هذه الجامعة التاريخيّة مكسوّة بالزخارف الهندسيّة ومزيّنة بالقاشاني البديعة بأشكالٍ تجلب نظر كلّ إنسانٍ وتعلوها أركانها الأربعة كتابات من الآيات القرآنية ونقوشٌ وزخارف رائعة.



السيد جمال الدين بزي علماء الشيعة

وعلى أثر الطائفيّة العمياء التي سادت العراق هُدم هذا المَعْلَم العمراني العظيم في محرم الحرام سنة ١٣٦٨هجريّة. وفي وقته طالب والدي (قدّس سرّه) محافظ كربلاء عبد الرسول الخالصي بضمّ الصحن الصغير الذي كان من تراث القرن الرابع الهجريّ، والمدرسةِ التي كان (حسن خان القزويني) متوالياً عليها والتي تخرَّج منها رعيل عظيمٌ من

شيوخ الاجتهاد وأركان الطائفة وجهابذة العلم، وهما ملتصقان من جهة الشرق والشمال الشرقي بالروضة الحسينيّة وأحداث المشروع بعد هذين العمارتين اللتين كانتا من التراث الإسلاميّ العظيم، فلم يقبل أسياده في بغداد هذا الاقتراح، فهدم هذه المجموعة من قبور العلماء وسلاطين آل بويه في العام المذكور. وذِكْرُ التفصيل في كتابي (كربلاء في حاضرها وماضيها).



ماضي الحوزة العلمية في كربلاء

ترجع جذور الحوزة العلميّة في كربلاء إلى القرن الأوّل الهجريّ وبعد واقعة الطفّ الخالدة سنة ٦١ هجريّة وفي عصر الاختناق كان الأمويّون يمنعون وصول الشيعة إلى كربلاء واختار الشيعة الغاضرية القريبة من كربلاء مركزاً لهم، وتأسّست أولى الحوزات العلميّة[1] هناك. ومن أشهر علماء الغاضريّة الشيخ أبو بكر عاصم المتوفّى ١٢٧هجريّة من إيرانيين العصر الساساني حليف بني أسد وأحد القراء السبعة[2] وفي أواخر الحكم الأمويّ سنة ١٢٥ هجريّة وظهور الدولة العباسية في سنة ١٣٢ هجريّة تأسّست في كربلاء حوزةٌ علميّةٌ وبلغ هذا الازدهار الفكريّ ذروته في عهد الشيخ حميد النينوي الحائري المتوفّى سنة ٣١٠ هجريّة، وتخرّج من مدرسته العملاقة جمهورٌ من أساطين العلم وجهابذة المجتهدين منهم أبو جعفر محمد الكليني المتوفّى سنة ٣٢٩ هجريّة شيخ الشيعة صاحب كتاب الكافي أحد الكتب الأربعة التي يروي فيها بدون واسطة

---

(١) عبد الحسين الصالحي، دايرة المعارف تشيع الفارسيّة، ج١٢ ص١٨، طهران، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م.

(٢) عبد الحسين الصالحي، تفسير وتفاسير شيعة الفارسي ص٢٧، قزوين، منشورات الحديث، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

عن أستاذه النينوي، ومنهم الشيخ أبو عبد الله الحسين بن علي البزوفري من شيوخ رواة الشيعة، وكان حيّاً في سنة ٣٥٢ هجريّة ومن طبقة الشيخ الصدوق وابن قولويه ومن مشايخ الشيخ المفيد المتوفّى ٤١٣ هجريّة أستاذ شيخ الطائفة الشيخ أبي جعفر الطوسي المتوّفى ٤٦٠ هجريّة وغيرهم[١]، وممّن تصدّر الرياسة في جامعة كربلاء في القرن الخامس الهجري الشيخ الأكبر محمد بن محمد الحائري أحد أساطين التدريس والزعامة في جامعة كربلاء الذي كتب له شيخ الطائفة الشيخ الطوسي المتوفّى ٤٦٠ هجريّة (أجوبة المسائل الحائرية)، وطبع على عهدٍ قريبٍ في قم بواسطة (مؤسسة النشر الإسلاميّ)[٢].

ثمّ انتهت الرياسة في الحائر الشريف إلى أبي محمد إلياس الحائري الذي كان حيّاً في شعبان ٥٣٨ هجريّة وهو من أركان الإسلام من مشايخ الشيخ عربي بن مسافر الحائري الحلي أستاذ ابن إديس[٣]، وممّن ساهم في النهضة الفكريّة في كربلاء الشيخ هاشم بن محمد الحائري الذي كان حيّاً في ٥٥٢ هجريّة من أعاظم علماء الشيعة له كتاب (مصباح الأنوار في فضائل إمام الأبرار) من أَجَلِّ تراث القرن السادس الهجريّ، وينقل عنه العلّامة المجلسيّ في موسوعته الخالدة (بحار الأنوار)[٤]، حتّى انحصرت رياسة الإماميّة إلى الشيخ عماد الدين أبو جعفر محمد بن علي بن حمزة الطوسي الحائري الذي اشتهر في سنة ٥٦٠ هجريّة بشيخ الشيعة وأحد

---

(١) عبد الحسين الصالحي، النجف الأشرف، إسهامات في الحضارة الإنسانية، ج١ ص٥١٩، لندن، منشورات بوك اكسترا، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) المصدر نفسه، ج١ ص٥١٨.

(٣) الشيخ آغا بزرگ الطهراني، الثقات العيون، ص٢٤، بيروت، دار الكتاب العربيّ، الطبعة الأولى، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

(٤) انظر مجلّة الحوزة القميّة عدد ٧٨ ص١٥١ـ ١٥٣، سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

أساطين العلم المعروف بابن حمزة وأبي جعفر الثاني وكان عميد جامعة كربلاء وخلّف تراثاً هامّاً. من مؤلّفاته (الوسيلة).

قال شيخنا الأستاذ في موسوعته الخالدة الذريعة

(... من المتون الفقهيّة المعوّل عليها والمنقول عنها في الكتب الفقهية...)[١].

وممّن انتهت إليه الزعامة الدينيّة في كربلاء الشيخ جعفر بن علي بن جعفر الحائري المشهدي الذي اشتهر في سنة ٥٧٣ هجريّة وهو من رواة الصحيفة السجاديّة الكاملة وأحد أعلام الحائر الشريف.

هذا وكانت جامعة كربلاء المقدّسة أهمّ مركزٍ علميٍّ في العراق حتى انتهت رئاسة جامعة الحائر الشريف والكرسيّ التدريسيّ إلى أسرة آل معد وهي من أقدم الأسر العلويّة العلميّة في كربلاء وهم من ذريّة السيّد إبراهيم المجاب الذي استوطن الحائر في ٢٤٧ هجريّة.

بزغ بدر هذا البيت العظيم في أفق كربلاء في أواخر القرن السادس ومطلع القرن السابع الهجريّ وأوّل من اشتهر من أهل هذا البيت الجليل هو السيّد معد بن فخار المتوفّى في حدود ٦٠٥ هجريّة، وهو من زعماء الدين، قال السيّد تاج الدين بن زهرة الجبتي في (غاية الاختصار) وأمّا آل معد فهم أجدادي لأمّي ولمّا مات الشريف معد... ودفن بالحائر..)[٢]، ومن أشهر أعلام هذه الأسرة الإمام شمس الدين فخار المتوفّى ٦٣٠هجريّة تخرّج عليه جماعة منهم العالمان الجليلان الشيخ سديد الدين يوسف

---

(١) الشيخ آغا بزرگ الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج٢٥ ص٧٦، بيروت، دار الأضواء، الطبعة الثانية.

(٢) السيّد تاج الدين ابن زهرة، غاية الاختصار في البيوت العلويّة المحفوظة من الغبار، نجف، منشورات الحيدريّة، ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م.

والد العلّامة الحلّي والشيخ نجم الدين أبو القاسم جعفر المتوفّى ٦٧٦هجريّة صاحب الشرائع وهما مؤسِّسا مدرسة الحلّة الشهيرة[١].

قال شيخنا في إجازة السيّد محمد صادق بحر العلوم في مقدّمته على كتاب (الحجّة على الذاهب..)، وكان من عظماء وقته، بحيث لم يخلُ منه سندٌ من أسانيد علمائنا ومحدّثينا...)[٢].

واستمرّت رئاسة التدريس والزعامة الروحيّة في هذه الأسرة عدّة قرونٍ ومنهم السيّد علم الدين المرتضى النسابة ابن السيّد جلال الدين عبد الحميد والحفيد السيّد حسن البصري بن عبد الله بن السيّد علم الدين المرتضى النسابة[٣]، ولكي يلمس القارئ حدود هذه المدرسة وضخامتها نذكر فهرست بعض الأعلام المؤسسين منهم آل العلقمي نبغ منها رجال حازوا فضيلتي العلم والرئاسة فكانت لهم مكانةٌ مرموقةٌ لدى الخلفاء العباسيين ومنهم ابن العلقمي (٥٩١ ـ ٦٥٦هجريّة) وزير آخر خلفاء العباسيين وجدّهم حفر نهر العلقمي[٤].

وأمّا بنو الفوارس الذين تزعّموا قياد الحركة العلميّة وزعامة الروحيّة قروناً عديدةً في الحائر الشريف ومنهم عميد الدين عبد المطلب من مشايخ الشهيد الأوّل[٥]، وفي القرن التاسع انتهت قيادة الإماميّة إلى

---

(١) عبد الحسين الصالحي، النجف الأشرف، إسهامات في الحضارة الإنسانية، ج١ ص٥٢٦، لندن، منشورات بوك اكسترا، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

(٢) السيّد محمد صادق بحر العلوم، مقدّمة الحجّة على الذاهب إلى تكفير أبي طالب، ص٧، قم، منشورات سيّد الشهداء، الطبعة الثانية.

(٣) الشيخ محمد حرز الدين، مراقد المعارف، ج١ ص٢٤٣، نجف، مطبعة الآداب، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ ـ ١٩٦٩م.

(٤) ابن الطقنطقي، الفخري، ص٣٣٧، قم، منشورات الشريف الرضيّ.

(٥) الشيخ آغا بزرگ الطهراني، الحقايق الراهنة، ص٢٠٦، بيروت، دار الكتاب العربيّ، الطبعة

ابن فهد الحلّي الحائري (٧٥٧ ـ ٨٤١ هجريّة) وهو من أعاظم علمائنا الأعلام، وقبره مزارٌ معروفٌ في كربلاء[١]، وكانت كربلاء إحدى الحواضر الشيعيّة المهمّة حتى عصيان إحدى القبائل الأفغانيّة المتخلّفة حضارياً وسقوط أصفهان في ١١٣٥ هجريّة وانهيار أعظم إمبراطوريّة شيعيّة، فبدأت الهجرة الكثيفة نحو كلّ من الهند والعراق فهاجر الشعراء والفنانّون والمتكلّمون والفلاسفة والرياضيون والفلكيون والأطباء والمعماريون وغيرهم نحو الهند والفقهاء والأصوليون والإخباريون نحو العراق فأخذت كربلاء المقدّسة تستقطب الفقهاء والمحدّثين، ثمّ بدأت تتّسع شيئاً فشيئاً حتّى أصبحت عاصمة الشيعة والمرجعيّة العامّة للإماميّة بلا منازعٍ، ومن أبرز المدرّسين آنذاك في كربلاء وهو السيّد نصر الله الحائري المعروف بمدرّس الطفّ الشهيد في اسطنبول سنة ١١٦٨ هجريّة الذي تخرّج من مدرسته العملاقة جمعٌ غفيرٌ من أعلام الطائفة[٢].

ولو تحرّينا الإجازات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر لوجدنا أنّهم جميعاً يرجعون بصورةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ إلى مدرّس الطفّ السيّد نصر الله الحائري وجامعة كربلاء حتّى ذهب السيّد محسن الأمين في (أعيان الشيعة) إلى القول:

(... وأمّا مَن يروي عن السيّد نصر الله فأكثر من أن يحصوا كما يظهر من

الأولى، ١٩٧٥م.

(١) عبد الحسين الصالحي، دايرة المعارف، تشيع الفارسيّة، ج١ ص٥٦، طهران، الطبعة الأولى، سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

(٢) عبد الحسين الصالحي، النجف الأشرف، إسهامات في الحضارة الإنسانيّة، ج١ ص٥٢٩، لندن، منشورات بوك اكسرا، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

الإجازات...)[1]..

وبعد شهادة مدرّس الطفّ انتهت الرئاسة الإماميّة إلى المجدّد المؤسس الشيخ آغا باقر البهبهاني الحائري المتوفّى ١٢٠٥هجريّة، ولمّا كانت النزعة الإخباريّة سائدةً بين المدارس في العصر الصفوي في إيران لذا نرى أكثر هؤلاء النازحين من الإخباريين، وكان اتّجاه الحوزة العلميّة في كربلاء منذ بدء الأمر هو الاتجاه التعقّلي الأصولي، فقد انشقّت جامعة الحائر الشريف إلى شطرين متصارعين وأصبحت جامعة كربلاء مركزاً للصراع الفقهي بين المدرستين الشيعيتين الإخبارية والأصوليّة ومنطلقاً للحركة الفكريّة.

وبعد محاولات طويلةٍ لا مجال لذكرها استطاع المجدّد المؤسّس البهبهاني تأسيس مدرسته الخالدة في الفقه الاجتهادي(صورة) وتعميق علم الأصول ووضع أساس حقوقيّ يلائم عصر النهضة الحديثة كإيديولوجيّة تقدّمية في التشريع الشيعي.

ولم يكتف شيخنا المؤّسس بهذا الحدّ، بل رسم مخطّطاً دقيقاً لتعميم مدرسته الخالدة فأرسل تلامذته إلى سائر المدن العراقيّة والإيرانيّة حيث تزّعم الحركة الأصوليّة في قزوين الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري وأسّس مدرسته وبعد الوباء الجارف الذي عمّ كربلاء، ودمّر فيها كلّ شيءٍ وتشتّت طلّابها عاد الإمام البرغاني إلى الحائر الشريف ليجمع شمل الطلّاب والمدرّسين ويبني على ما دمّره هذا المرض الفتّاك.

---

(١) السيّد محسن الأمين، أعيان الشيعة، ج١٠ ص٢١٤، بيروت، دار التعارف، سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

السيّد جمال الدين في حوزة الإمام البرغاني في كربلاء

لكي يدرك القارئ العزيز جذور مدرسة كربلاء وعظمتها أشرنا إلى شيءٍ من ماضيها المشرق وبعض المشاهير الذين نهضوا بأعباء التدريس أو تخرّجوا منها.

وحين استقرّ الإمام البرغاني في كربلاء تصدّر للخلافة والفتيا قائماً بوظائفه الشرعيّة، وانتهت إليه المرجعيّة العظمى، وشغل كرسيّ التدريس وكثر الإقبال عليه واشتهر أمرهُ وطار ذكره فتوجّه إليه طلّاب العلوم من كلّ حدبٍ وصوبٍ وكان له حلقة درسٍ صباحيّةٍ يدرّس فيها الفقه، ومسائيّة يدرّسُ فيها الأصول في مدرسة حسن خان القزويني في ضلع الشمال الشرقيّ من الصحن الحسينيّ، وازداد عدد الطلّاب شيئاً فشيئاً حتّى بلغ أكثر من ألف طالبٍ وبينهم عشرات المجتهدين حيث كان حلقة درسيّة من أكبر الحلقات في الحائر الشريف.

وقد عرف بدقّة النظر وعذوبة المنطق وعمق الفكر وأصالة الرأي وغزارة المادّة وإحاطته بالعلوم القديمة والحديثة معقولاً ومنقولاً وذلك بفضل عبقريّته ونظرياته العميقة فالتحق السيّد جمال الدين بهذه الحوزة العملاقة وأخذ الفقه والأصول من معينه العذب، وكما حضر في الفلسفة

العالية والعرفان على الشيخ الميرزا عبد الوهاب البرغاني المتوفّى سنة ١٢٩٤هجريّة كما ضبطه صاحب كتاب (أثر آفرينان)[1]، والشيخ حسن البرغاني الحائري ولازم أساتذته المذكورين حتّى وفاة الشيخ محمد صالح البرغاني الحائري في سنة ١٢٧١ هجريّة، ومنها انتقل السيّد جمال الدين إلى النجف الأشرف، وقيل إنّه سافر إلى البصرة ومنها من طريق البحر إلى مدينة كلكته، فحلّ صيفاً في دار الحاجّ الميرزا عبد الكريم الشيرازي، وفي موسم الحجّ عرج على الحجاز لأداء فريضة الحجّ ثمّ عاد ثانيةً إلى العراق واستقرّ هذه المرّة في النجف الأشرف والتحق بحوزة الشيخ مرتضى الأنصاري المتوفّى سنة ١٢٨١ هجريّة.



(١) انظر: أثر آفرينان، ج٢ ص٣٩، الطبعة الثانية، طهران، انجمن آثار ومفاخر، سنة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م.

السيّد جمال الدين والفلسفة الإسلاميّة

أجمع أرباب الفضيلة والمؤرّخون على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم من السنّي والشيعيّ والمستشرقين على أنّ السيّد جمال الدين كان متضلّعاً من الفلسفة الإسلاميّة، وقد ذكرنا سابقاً بعضاً من أقوال المحقّقين في هذا الصدد ومراحل وأدوار دراسته وبعض المدارس الفلسفيّة ومشايخه الذين درس عليهم وأخذ هذا التراث الإسلاميّ العريق منهم. يقول الدكتور علي الوردي في فصل نشأة الأفغاني من هذا الكتاب: (... إنّ النجف كانت يومذاك في أوج نهضتها العلميّة حيث ازدهرت فيها الدراسات الفلسفيّة والكلاميّة والأصوليّة وقد عاش الأفغاني في هذا الجوّ الفكريّ...)، إذا أنعمنا النظر في فترة أيام دراسة جمال الدين في منتصف القرن الثالث عشر الهجريّ وجدنا أنّ المدارس الفلسفيّة الشيعيّة منحصرةٌ في أربعة مراكز فقط لا خامس لها:

١. أصفهان

٢. قزوين

٣. طهران

٤. سبزوار

ونذكر هنا على وجه الاختصار علاقات السيّد جمال الدين بهذه المدارس الأربع:

١. مدرسة أصفهان الفلسفيّة

بدون شكّ لها جذورٌ قديمةٌ، ومن كبريات المدارس الفلسفيّة الشيعيّة ومن أشهر المدرّسين فيها كان الأخوند الشيخ المُلا علي النوري المتوفّى ١٢٤٦هجريّة، والذي كُفَّ بصره وانهارت قواه في أواخر عمره الشريف، وكان يهدي عشاق الفلسفة إلى مدرسة قزوين وحوزة تلميذه الأخوند الملا آغا الحكمي في مدرسة الصالحيّة ولم يذكر أيّ من المصادر أنّ جمال الدين قد درس في أصفهان على الإطلاق.

٢. مدرسة سبزوار الفلسفيّة

أسّسها الأخوند المُلا هادي السبزواري (١٢١٢ ـ ١٢٨٩هجريّة) صاحب كتاب المنظومة السبزوارية من أجل كتب الفلسفيّة التي تدرّس حتّى اليوم في الحواضر الفلسفيّة الشيعيّة كان من أعاظم الفلاسفة في عصره تشدّ إليه الرحال للاستفادة منه ولم يذكر أيّ من المصادر أنّ السيّد جمال الدين سافر إلى سبزوار أو التقى مع السبزواري.

٣. مدرسة قزوين الفلسفيّة

من أشهر المدارس الفلسفيّة الشيعيّة القديمة وحلّ فيها السيّد جمال الدين أكثر من ثلاث سنواتٍ وكان من أشهر تلامذة المدرسة الصالحيّة كما مرّ ذكرها.

وكان الفيلسوف المعروف الأخوند المُلا آغا الحكمي من أبرز المدرّسين في الحكمة والفلسفة أيام إقامة جمال الدين فيها.

٤. مدرسة طهران الفلسفيّة

أجمعت المصادر على أنّ إقامة جمال الدين في فترة دراسته من عمره في طهران كانت ثلاثة أشهرٍ فقط، ثمّ توجّه مع والده نحو العتبات المقدّسة في العراق، ثمّ سكن كربلاء ولم نعلم إذا حضر في هذه الفترة القصيرة في طهران على أحدٍ من أعلام الفلسفة حيث كانت آنذاك طهران إحد مراكز الفلسفة وفيها جمعٌ غفيرٌ من الحكماء.

أمّا حوزة النجف الأشرف فلم يجرؤ أحدٌ آن يدرّس الفلسفة والعرفان فيها، ولم تتشكّل أيّة مدرسة فلسفيّة هناك حيث كان الفقهاء من الأصوليين هم الذين يسيطرون على هذه الحوزة القديمة العملاقة، وكان الشباب المتحمّسين لعلوم الفلسفة والعرفان يسافرون باسم زيارة الإمام الرضا (ع) ثمّ يمكثون سرّاً في إحدى الحواضر الفلسفيّة للاستفادة والتتلمذ على أساتذة الفلسفة، ولابدّ أن نذكر هنا أنّ الدكتور علي الوردي قد أخطأ في تصوّره أنّ جمال الدين درس الفلسفة في النجف الأشرف.

ثانياً هنا إجماعٌ بين المؤرّخين والمحقّقين وأيضاً يظهر من مؤلّفاته وخطاباته أنّه كان على معرفةٍ وثيقةٍ (صورة) بالتراث الفلسفي إلّا أنّ بعض الشكوك تدور حول هذا الأمر فكيف استطاع في الثالثة عشرة من عمره الشريف أن يكتسب هذا العلم الصعب والعويص في قزوين؟

أقول ربّما هناك خطأٌ وقع في تاريخ ولادته وأنّه ولد قبل عام ١٢٥٤هجريّة، ووقع تصحيف أرقام ولادته وكانت ولادته في ١٢٤٥هجريّة

أو على أقلّ تقدير كانت ولادته في ١٢٥٠هجريّة، وهناك أمرٌ آخرٌ كان له نبوغٌ خارقٌ وذكاءٌ مفرطٌ وهذه من الأمور الشاذّة وليست من المستحيلة.

السيّد جمال الدين في حوزة النجف الأشرف

اتّفق المؤرّخون الشيعة وبعض من غير الشيعة وكما ذكر ابن أخته الميرزا لطف الله خان في كتابه (شرح حال وآثار سيّد جمال الدين)[١]، على أنّ جمال الدين التحق بحوزة الشيخ مرتضى الأنصاري (١٢١٤ ـ ١٢٨١ هجريّة)، وتتلمذ عليه في الفقه والأصول حتى بلغ مرتبةً ساميةً، وكان يُشار إليه بالبنان. وأيضاً هناك رسالةٌ بعثها الشيخ محمد حسن من مدينة قم (غير مؤرّخةٍ) بين سنوات (١٣٠٧ ١٣٠٨هجريّة) كما استنتجها الأستاذان أصغر المهدوي وأيرج الإفشار معنونةً إلى الحاجّ محمد حسن أمين الضرب[٢] الذي حلّ جمال الدين ضيفاً في داره بطهران والمحفوظة ضمن (مجموعة أسناد ومدارك)[٣] في مجلس الشورى بطهران ينصّ فيها على

(١) الميرزا لطف الله خان، شرح حال وآثار سيّد جمال الدين أسد آبادي، ص٢١. ٢٢، برلين، مطبعة إيرا نشهر، سنة ١٣٠٤هـ ـ ١٩٢٦م.

(٢) مر اسمه مكرّراً وهو الحاج محمد حسن الأصفهاني الطهراني (١٢٥٣ ـ ١٣١٦هجريّة) المعروف بـ كمياني والملقّب بأمين الضرب، من كبار التّجار في طهران ومشاهير الأثرياء في عصر ناصر الدين الشاه القاجاري، ولد في أصفهان وهاجر في شبابه إلى كرمان ثمّ استقر في حدود سنة ١٢٧٣هجريّة في طهران وله مشاريعُ خيريّةٌ منها أنه طبع لأوّل مرّة البحار للمجلسي ووزّعه مجاناً على العلماء والمكتبات العامّة.

(٣) أصغر المهدوي وإيرج الافشار، مجموعة أسناد ومدارك، ص١٠٠. ١٠١، طهران، منشورات

أنّ جمال الدين حضر دروس العارف الشيخ الشهير حسين قلي الهمداني الدرجزيني (١٢٣٩ ـ ١٣١١هجريّة)، وكان من كبار المدرّسين في العرفان والتصوّف والأخلاق في النجف الأشرف، وفي هذه الحلقة تعرّف جمال الدين على السيّد محمد سعيد الحبوبي (١٢٦٦ ـ ١٣٣٣هجريّة) الذي ضبط الحبوبي شيخنا الأستاذ الشيخ آغا بزرگ الطهراني مع جملةٍ من تلامذة حسين قلي[1].



جامعة طهران، سنة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

(١) الشيخ آغا بزرک الطهراني، نقباء البشر في القرن الرابع عشر، ج٢ ص٦٧٧، الطبعة النجفيّة الأولى.



وكما أشار الدكتور علي الوردي في اجتماع جمال الدين والحبوبي في النجف الأشرف وكذلك في رسالة ينصّ على تعرّف جمال الدين مع الحكيم والفيلسوف السيّد أحمد الكربلائي الذين كانا يحضران معاً في حوزة الشيخ حسين قلي. وأيضاً ذكر شيخنا الأستاذ الشيخ آغا بزرگ الطهراني السيّد أحمد الكربلائي مع زمرة تلاميذ الشيخ حسين قلي[1]، لا بأس أن نذكر هنا قسماً من الرسالة المذكورة للفائدة وهي رسالةٌ معنونةٌ إلى الحاجّ محمد حسن أمين الضرب في طهران وفي ما يلي ترجمتُها وتلخيصها:

(... رجائي من حضرتكم أن تبلّغوا تحياتي إلى عمدة النجباء السيّد جمال الدين السعد آبادي سلّمه الله تعالى حيث أنّه يعرفني وكنّا معاً في النجف الأشرف وساعدني التوفيق والحظ أن أتمكّن من

(١) المصدر نفسه ج٢ ص٦٧٧.

الوصول إلى خدمته فقولوا له ذلك الشيخ الذي كان ساكناً في دار المُلا حسين قلي وكنتم مع السيّد أحمد تحضرون حلقة درس المُلا حسين قلي...)[١].

والجدير بالذكر أنّ جمال الدين لم يأخذ الفلسفة في النجف الأشرف مطلقاً حيث أنّ النجف أكثر تحفّظاً من باقي الحواضر العلميّة الشيعيّة وأكثر تعصّباً ولم يجرؤ أحدٌ من علماء الفلسفة على تدريس العلوم العقليّة فيها حيث نرى معارضةً وصدّاً عندما أظهر الشيخ هادي الطهراني (١٢٥٣ ـ ١٣٢١هجريّة) أحد كبار علماء النجف المعاصرين للسيّد جمال الدين بعض آرائه الفلسفيّة، وألّف في العلوم العقليّة منها كتابه (اتحاد الوجود والماهية)[٢] وغيرها فأصدر الشيخ الميرزا حبيب الله الرشتي المتوفّى سنة ١٣١٣هجريّة أحد مراجع عصره في العراق فتوى بتكفيره[٣] واشتهر (بالشيخ هادي المكفّر). وكما نرى أنّ الشيخية لم يكن لهم أيّ رصيدٍ أو مؤيدٍ مطلقاً في النجف على عكس ما كان لهم من صولات وجولات في كربلاء على الرغم من أنّ الحائر الشريف كان مركز نفوذ آل البرغاني خصوم الشيخية. وقد أخطأ الدكتور الوردي في قوله أنّ جمال الدين أخذ الفلسفة في النجف.

وكما يستفاد من بعض الأقوال والقرائن أنّ جمال الدين كانت إقامته في كربلاء أكثر ممّا هو في النجف كما مرّ ذكره.

(١) أصغر المهدوي وإيرج أفشار، مجموعة أسناد ومدارك، ص١٠٠ـ١٠١، طهران، منشورات جامعة طهران، سنة ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م.

(٢) الشيخ آغا بزرگ الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج١ ص٨١ ـ ٨٢، بيروت، دار الأضواء، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

(٣) انظر دايرة المعارف، تشيّع الفارسية، ج٥ ص١٨٨، الطبعة الأولى، سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

وقد ذكر الحاجّ سياح المحلاتي في كتابه (دوره خوف ووحشت يا سيا حتنامه سياح صحيفة ١٤٩) نقلاً عن الشيخ المُلا حيدر السدهي الأصفهاني الذي كان زميلاً لجمال الدين في النجف أيّام دراسته قائلاً:

(... حينما كنت أنا والسيّد جمال الدين في النجف كان جمال الدين في أوائل شبابه وبلغ من عمره العشرين عاماً...).

ويظهر من هذا الكلام أنّ السيّد جمال الدين سكن كربلاء أوّلاً ودرس فيها ثمّ ارتحل إلى النجف حين بلغ العشرين أو أكثر من عمره الشريف. لقد شطح بنا القلم وطال البحث في هذا الموضوع، ولابدّ أن أذكر هنا أنّي قد ألّفت كتاباً خاصّاً عن حياة السيّد جمال الدين حينما كنت في مسقط رأسي كربلاء العزيزة باسم (فيلسوف الشرق). أرجو الله أن تتاح لي الفرصة لأقدّمه إلى الطبع إن شاء الله.

وأذكر هنا موجزاً عن حياة الدكتور علي الوردي وأترك البحث له وأحاول أن أستدرك على وجه الاختصار ما يحتاج إلى التعليق. والله المستعان.

حياة المؤلّف

هو العلّامة الكبير والبحاثة الشهير الدكتور علي الوردي أحد أعلام المعاصرين في علم الاجتماع وأشهر مشاهير كتاب العرب على الإطلاق انتهت إليه رئاسة قسم الاجتماع في جامعة بغداد، وحصل على مرتبة الأستاذ المتمرّس من جامعة بغداد وهي أرقى درجةٍ تمنحها الجامعات الرصينة في العالم.

ولادته ووفاته

ولد في الكاظمية سنة ١٩١٢م وتوفّى فيها سنة ١٩٩٥م ودفن في جامع (البرا) ثامن المساجد المقدّسة عن الشيعة الواقع بين بغداد والكاظميّة غرب نهر الدجلة.

نسبه الشريف

هو الدكتور علي الوردي بن السيّد حسين بن السيّد محسن الصائغ (المتوفّى ١٣٣٩هجريّة) ابن السيّد هاشم بن الورد (المتوفّى في حدود ١٢٦٤ هجريّة) ابن السيّد جواد الحسيني البغدادي الكاظمي (تاجر اللؤلؤ

المعروف في الكرخ) ابن السيّد رضا بن مهدي بن صادق الملقّب بالباصي بن باقر بن علي بن حسين بن محمد بن خميس بن يحيى بن هزال بن علي بن محمد بن عبد الله الملقّب بالبهائي (بن أبي القاسم بن أبي البركات بن القاسم بن علي بن شكر بن أبي محمد الحسن الأسمر)[1] بن النقيب شمس الدين أبي عبد الله أحمد بن النقيب أبي الحسن علي بن أبي طالب محمد بن الشريف الجليل أبي علي عمر أمير الحجّ بن نقيب النقباء أبي الحسين يحيى بن الحسين النسابة النقيب بن أحمد المحدّث بن عمر بن أبي الحسين يحيى بن أبي عبد الله الحسيني ذي العبرة بن زيد الشهيد بن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

أسرته

آل الوردي ويقال آل أبي الورد: من أقدم الأسر العلويّة العريقة طار صيتها في الكوفة وبغداد والكاظميّة منذ عهد بعيدٍ ولها مكانةٌ ساميةٌ ومرموقةٌ ومواقف مشهورة منذ عهد جدّهم الشريف أمير الحجّ نقيب الكوفة أبي علي عمر المتوفّى سنة ٣٤٢هجريّة ابن أبي الحسين يحيى بن أبي عبد الله الحسيني الذي تولّى إمارة الحجّ في خلافة بني العبّاس ثلاث عشرة سنة من جملتها سنة ٣٣٩ هجريّة وفيها ردّ الحجر الأسود إلى مكّة المكرّمة، وكانت القرامطة أخذته إلى الإحساء وبقي عندهم عدّة سنين وهو الذي أصلح الطريق وهادن القرامطة... وكان وجيهاً متموّلاً وبنى قبة

(١) لا يوجد ما أثبتناه بين القوسين في شجرة بيت أبي الورد القديمة التي وقّع فيها علماء النسب وإنّما أثبتناها تبعاً لآراء جمعٍ من النسابين.

جدّه أمير المؤمنين علي عليه السلام من خالص ماله...[١]

ومنهم رئيس الطالبيين نقيب النقباء شمس الدين أحمد لمتوفّى سنة ٤٧٢هجريّة، وعلى أغلب الظنّ هو أوّل من قطن بغداد من هذه الأسرة[٢] ويعرف أحفاده اليوم في بغداد والكاظميّة بـ آل الوردي أو آل أبي الورد، وأوّل من اشتهر من هذا البيت الجليل بـ (آل أبي الورد) هو السيد هاشم المتوفّى في حدود سنة ١٢٦٤ هجريّة ابن السيّد جواد وهو أبو الأسرة في الكاظميين الذي سكنها قبل سنة ١٢١٥هجريّة، ثمّ لقّب بأبي الورد نسبةً إلى تقطير ماء الورد صنعة أهل زوجته الأولى من بيت بليبل.

يقول الدكتور ناجي معروف في مقدّمته على كتاب (أعلام العراق الحديث) (... اشتهر أحد أجداده السيّد جواد البغدادي المتوفّى قبل سنة ١٢١٥هجريّة بتجارة اللؤلؤ في بغداد، وكانت بيوته في الكرخ وينتهي نسبه إلى رئيس الطالبيين نقيب النقباء شمس الدين أبي عبد الله المتوفّى سنة ٤٧٢هجريّة، ومن أجداده السيّد الشريف أمير الحجّ نقيب الكوفة أبو علي عمر المتوفّى سنة ٣٤٢هجريّة، الذي تولّى إمارة الحجّ في خلافة بني العبّاس ثلاث عشرة سنة وهو الذي أصلح طريق الحجّ وهادن القرامطة وردّ الحجر الأسود إلى مكّة سنة ٣٣٩هجريّة بعد أن أخذه القرامطة إلى البحرين سنة ٣١٧هجريّة...)[٣].

ويقول الأستاذ الدكتور الشيخ حسين علي المحفوظ في فضل (البيوت العلميّة من موسوعة العتبات المقدّسة) (بيت أبي الورد ذريّة

(١) السيّد عبد الرزّاق كمونة، موارد الإتحاف في نقباء الأشراف، ج٢ ص٩٠، نجف الأشرف، سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

(٢) عبد الحسين الصالحي، دايرة المعارف، تشيّع الفارسية، ج١ ص١٤١، طهران، سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م.

(٣) الدكتور ناجي معروف، مقدّمة أعلام العراق الحديث، ج١ ص١١ـ ١٢، بغداد، مطبعة الميناء.

السيّد هاشم أبي الورد المتوفّى سنة ١٢٦٤هجريّة ابن السيّد جواد الحسيني البغدادي بياع اللؤلؤ التاجر المعروف في الكرخ ببغداد، ترك جدّهم السيّد جواد بغداد في أواخر القرن الثاني عشر فسكن الغواضر ببلدٍ ولقّب فيها بالبغدادي، ثمّ هاجر ابنه السيّد هاشم إلى الكاظميّة قبل سنة ١٢١٥هجريّة فسُمّي فيها بالغاضري، ثمّ لقّب بأبي الورد نسبةً إلى تقطير ماء الورد صنعة أهل زوجته الأولى من بيت بليبل ومن أعلامهم السيّد محسن الصائغ المتوفّى سنة ١٣٣٩هجريّة الذي صاغ ضريح الحضرة الكاظميّة الفضيّ سنة ١٣٢٤هجريّة، ويسمّون بيت الورد وبيت الوردي وبيت أبو الورد، وكانوا يدعون بيت الغاضري)[1].

ثمّ استدرك وعلّق على ما مرّ الأستاذ جعفر الخليلي في ذيل (موسوعة العتبات) قائلاً: (... ومن أعلام هذا البيت اليوم الدكتور علي الوردي وهو من الأساتذة المحقّقين ومن كبار علماء الاجتماع، وقد أصبحت كتبه مرجعاً مهمّاً لدراسة المجتمع العراقي وطبيعته وترجمت إلى عدّة لغاتٍ ويشغل اليوم رئاسة قسم الاجتماع بجامعة بغداد، وربّما كان أوّل من حوّل نسبة (أبي الورد) إلى (الوردي) على ما نظنّ وتقوم اليوم جامعة المكسيك بتدريس كتابه (المجتمع العراقي) في كليّاتها لتشابه المجتمع المكسيكي من حيث عوامل النشأة والتكوين مع المجتمع العراقي، وبعد هذا فالدكتور الوردي من أنجح المؤلّفين العراقيين إن لم يكن أنجحهم في الوقت الحاضر من حيث رواج كتبه والإقبال على قراءتها...)[2].

وقد فصّل وفي تاريخ هذه الأسرة الجليلة في مقالي الذي نشرتُه سنة ١٩٨٧م في (دائرة المعارف تشيع الفارسيّة) التي تصدر في طهران وذكرت

(١) الدكتور حسين محفوظ، موسوعة العتبات المقدّسة، قسم الكاظمين، ج٣ ص٧٧ـ ٧٨، بغداد، سنة ١٣٩٠ـ ١٩٧٠م.

(٢) المصدر نفسه ج٣ ص٧٧ـ ٧٨ في الهامش.

فيها بقيّتهم الدكتور علي الوردي[1].

تطوّر حياته

قبل إكمال المرحلة الابتدائيّة وعندما وصل الصفّ الخامس اضطرّ إلى ترك المدرسة ليعمل صانع عطار حتى يعين والده وأهله على كسب الرزق.

وفي السنة ١٩٢٨م طرده العطّار من العمل لأنّه يقرأ كثيراً ويناقش كثيراً.

وفي السنة ١٩٣٣م عمل في سلك التعليم الابتدائيّ وأصبح معلّماً في مدارس الكاظميّة

وفي السنة ١٩٣٦م حصل على شهادة البكالوريا في الثانويّة المركزيّة ببغداد، وكان الأوّل على العراق.

وفي السنة ١٩٤٠م حصل على شهادة البكالوريوس من الجامعة الأميركية في بيروت بدرجة شرف.

ما بين ١٩٤٨ ـ ١٩٥٠م حصل على شهادة الماجستير والدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة تكساس في أميركا.

وفي السنة ١٩٥٠م عاد إلى العراق وعُيّن مدرّساً في كليّة الآداب بجامعة بغداد.

وفي السنة ١٩٦٠م أصبح أستاذاً ثمّ رئيساً لقسم الاجتماع بجامعة بغداد.

---

(١) عبد الحسين الصالحي، دايرة المعارف تشيع الفارسيّة، ج١ ص١٤١، طهران، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

وفي السنة ١٩٧٠م أحيل على التقاعد بناءً على طلبه ومنحتهُ جامعة بغداد لقب (أستاذ متمرّس).

رحلاته ونشاطه العلميّ

نشأ الدكتور علي الوردي في مدينة الكاظميّة في بيت علم ورئاسةٍ، وكان منذ نعومة أظفاره محبّاً للعلم، وكان يمتاز بذكاءٍ مفرطٍ وفراسةٍ عجيبةٍ ونظرٍ عميقٍ، وقام برحلات وطاف حول العالم من الصين حتّى أمريكا والاتّحاد السوفيتي سابقاً عبر أفريقيا والدول الأوروبية والعربية.

وقد شكّلت محاضراته العلميّة وخطبهُ وكلماته في المؤتمرات والندوات العلميّة في كلّ من (الصين، إيطاليا، فرنسا، بولندا، مصر، لبنان، تونس، الخرطوم وغيرها)، أضف إلى ذلك مساجلاته في الإذاعة والتلفزيون والصحف والمجلّات إضافةً فكرية وثقافية وحضارية هامة في عالم المجتمع الإنساني.

يقول الدكتور عبد الأمير الورد في مقدّمته على كتاب (من وحي الثمانين) (... كان طالباً في جامعة تكساس يدرس علم الاجتماع، وقيل إنّ رئيس الجامعة كان رئيس قسمه وأستاذه، وكان عمدة مدينة نيويورك صديقاً للأستاذ فدعاه إلى إلقاء محاضرةٍ علميّةٍ، أعلن عنها ودعا إليها.

وفي اللحظات الأخيرة تهبط على الرجل مشاغل تمنعه من السفر فاتّصل بعمدة نيويورك صديقه طالباً منه عدم تأجيل المحاضرة أو تغيير موعدها قائلاً له: سأرسل لك أميز الطلبة الدارسين عندي لإلقاء المحاضرة، وكان هذا الطالب هو علي الوردي.

وألقى محاضرةً واستولى على إعجاب الحاضرين الشديد ممّا دعا عمدة نيويورك إلى تكريمه بمنحه شهادة مواطن شرف أمريكي ومفتاح

مدينة نيويورك)[1].

شرع الأستاذ الورد دراسته من مسقط رأسه في الكاظميّة ثمّ بغداد وبيروت وجامعة تكساس في أميركا وتخصّص في علم الاجتماع وكتب أطروحته حول نظرية ابن خلدون المتوفّى سنة ٨٠٨هجريّة وعند عودته إلى العراق في سنة ١٩٥٠م أسّس مع الأساتذة الآخرين قسم الاجتماع بجامعة بغداد حتى انتهت إليه رئاسته، وكان عميق الفكر ومحقّقاً خبيراً باحثاً فذّاً اجتماعيّاً من طراز النمط الأوّل المتميّز بجرأته العلميّة وفكره الاجتماعي الثاقب وحاز مكانةً ساميةً بين أقرانه لا يضاهى، وكان وحيد عصره فقد اعترف بفضله وعلمه ومكانته كثيرٌ من الفحول فأسّس قواعد هذا البنيان الرفيع.

يطول بنا الحديث لو أردنا أن نكتب عن إنجازاته العلميّة وخدماته الجليلة فلا يخفى على الباحث الجادّ ما أنتجه الدكتور الوردي وأغنى المكتبة العربية والعراقيّة بإنتاجه الغزير، وصارت كتاباته مراجع في المجتمع العراقيّ بالدرجة الأولى فالعربيّ بالدرجة الثانية، ومستودعاً من تراثٍ ضخمٍ كان مثيراً للجدل خلال نصف قرنٍ من الزمان. وبلغت مؤلّفاته أكثر من عشرين عنواناً وبعضها في عدّة مجلّداتٍ له الأهميّة الخاصّة يتبوؤها بين كتب المراجع والمصادر في موضوع علم الاجتماع، وقلّما تخلو خزانةُ كتبٍ من مؤلّفاته، وقد ترجم بعضها إلى عدّة لغاتٍ حيّةٍ. ويدرّس في كثير من الجامعات المهمّة العالميّة والحواضر العلميّة في أوروبا وأميركا وغيرها من بلدان العالم المتحضّر ويعوّل عليه العلماء وأرباب الفضيلة في بحوثهم ومؤلّفاتهم ولم تتمكّن المعارضة من

---

(١) الدكتور عبد الأمير الورد، مقدّمة من وحي الثمانين، ص١٢، بيروت، مؤسسة البلاغ، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

الصمود أمام مدرسته الخالدة حتّى تاريخ إصدارنا هذا الكتاب عام ٢٠٠٨م.

المؤتمرات العلميّة في حواضر العالم:

١. في سنة ١٩٥٠م شخصية الفرد العراقي بغداد كليّة الملكة عالية أثارت سجالاً علميّاً واسعاً في الأوساط الثقافيّة آنذاك، وكانت أوّل محاولة لتفسير طبيعة المجتمع العراقي في ضوء ظاهرة ازدواج الشخصيّة.

٢. في سنة ١٩٥٨م محاضرةٌ حول الضائع من الموارد الخلقيّة في البلاد العربيّة ـ جامعة بيروت الأميركيّة.

٣. في سنة ١٩٥٨م محاضرةٌ في موضوع التراث العربيّ ألقيت في بكين عاصمة الصين وترجمت إلى الصينيّة.

٤. في سنة ١٩٦٢م منطق ابن خلدون كلمةٌ ألقيت في مؤتمر ابن خلدون معهد الدراسات العربيّة القاهرة.

٥. في سنة ١٩٦٦م مقال موضوعه الصراع بين الحضارة الأوروبيّة والثقافة المحلّية في العراق ترجمت إلى اللغة الإسبانيّة ونشرت في المكسيك سنة ١٩٦٧م.

٦. في سنة ١٩٧٤م محاضرة أزمة التطوّر الحضاريّ في الوطن العربيّ ألقيت في جامعة الكويت.

٧. في سنة ١٩٧٧م محاضرةٌ في سبيل علم اجتماع عربي بحث ألقي في الجامعة التونسيّة.

٨. في سنة ١٩٨٤م محاضرة الإسلام والبداوة محاضرةٌ أُلقيت في جامعة وارسو.

٩. في سنة ١٩٨٥م محاضرةٌ قدّمت إلى معهد الدراسات العربيّة بالخرطوم السودان ألقيت بالنيابة عنه.

١٠. في سنة ١٩٨٥م بحث قدم إلى الملتقى الدولي بتونس ألقي بالنيابة عنه.

مؤلّفاته العلميّة:

خلّف لنا الدكتور علي الوردي تراثاً علميّاً نافعاً وهامّاً بموهبته النادرة وبنبوغه المتميّز وجرأته العلميّة ونقده لكثيرٍ من الظواهر الاجتماعيّة حيث حظيت آراؤه النقديّة باهتماماتٍ مثيرةٍ للجدل في المحافل العلميّة خلال أكثر من نصف قرن عند أرباب الفضيلة في مختلف الحواضر وطبقات المثقّفين من الحوزويين والجامعيين ونذكر بإيجاز أسماء مؤلّفاته ومكان الطبع ثمّ يليه مؤلّفاته المخطوطة.

١. شخصيّة الفرد العراقيّ، بغداد، ١٩٥١م

٢. خوارق اللاشعور، بغداد، ١٩٥٢م

٣. وعاظ السلاطين، بغداد، ١٩٥٤م، وأعيد طبعه في طهران، وطبع الطبعة الثالثة في لندن دار كوفان

٤. مهزلة العقل البشريّ، بغداد، ١٩٥٥م

٥. أسطورة الأدب الرفيع، بغداد، ١٩٥٧م

٦. الأحلام بين العلم والعقيدة، بغداد، ١٩٥٩م

٧. منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيّته، القاهرة، ١٩٦٢م، ثمّ أعيد طبعه في تونس سنة ١٩٧٧م، وطبع في لندن، ١٩٩٤م

٨. دراسةٌ في طبيعة المجتمع العراقيّ، بغداد، ١٩٦٥م، ترجم إلى اللغة

الألمانيّة من قبل فايروخ وإبراهيم الحيدري، برلين، ١٩٧٢م كما ترجم أيضاً إلى اللغة الفارسيّة، وأعيد طبعه في لندن سنة ١٩٩٢م، وطهران ١٩٩٣م

٩. نشأة الوعي السياسيّ في العراق منذ سنة ١٩٠٦ إلى ١٩٢٤م بغداد ١٩٦٨م

١٠. لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث في ثمانية مجلّدات وملحقين، بغداد، ١٩٦٩م وقُمْ.

١١. أطروحته حول ابن خلدون نشرتها دار نشر هول الأميركيّة سنة ١٩٨١م

١٢. هكذا قتلوا قرّة العين، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩١م، والطبعة الثانية سنة ١٩٩٧ من منشورات الجمل في ألمانيا، وكانت هذه الطبعة غير محقّقة وناقصة لذا حقّقه وقدّم له، وطبع في بيروت سنة ٢٠٠٨م

١٣. السيّد جمال الدين الأفغاني، وبما أنّي كنتُ أمتلك مجموعةً هامّةً من الوثائق والصور النادرة عن حياة السيّد جمال الدين لذا فضلتُ تحقيق هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ العزيز، وإضافة وثائقي وتعليقاتي عليه وبالمناسبة سمّيته بالفيلسوف الثائر السيّد جمال الدين الأفغاني.

١٤. من وحي الثمانين، جمع وتحقيق سلام الشماع ومقدّمة الدكتور عبد الأمير الورد طبع في بغداد، وأعادت طبعه مؤسسة البلاغ، بيروت، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م

١٥. الصراع بين الشعب والحكومة

١٦. أزمة المجتمع العراقي

١٧. مشكلة الصراع الطائفيّ في العراق

١٨. طبيعة الإنسان والمجتمع

١٩. مذكّرات الوردي

٢٠. المجلّد التاسع من لمحات اجتماعيّة في تاريخ العراق الحديث حول الملك غازي، ترجمت بعض مؤلّفاته وأبحاثه إلى الإنجليزيّة والفارسيّة والبولونيّة والألمانيّة والإسبانيّة.

وممّا يجدر ذكره هنا وفي سنة ١٩٧٩م حين اشتدّ الطغيان البعثي العفلقي في العراق وبدأ الضغط الشديد على الشيعة فلم يغيب عنهم الدكتور علي الوردي وضيّقت الدولة عليه ومنعت كتبه من التداول وتوقّف عن إصدار مؤلّفاته المخطوطة وكما منع من السفر والمشاركة في النشاطات العلميّة والثقافيّة والاجتماعيّة، واضطرّ إلى الاعتزال عن الحياة الاجتماعيّة وكان تحت مراقبةٍ شديدةٍ حتّى توفي سنة ١٩٩٥ في الكاظميّة.

معرفتي مع الدكتور علي الوردي:

لقد تعرّفت على اسم الدكتور علي الوردي من عام ١٩٥٤م حين انتشر كتابه وعاظ السلاطين الذي أحدث في وقته ضجّةً كبيرةً في المحافل الدينيّة، حيث انهال عليه السبّ والشتم ولعن في جميع المجالس الدينيّة حتّى على المنابر الحسينيّة، وعند قراءتي الكتاب المذكور لم أجد أنّ مؤلّفه يستحقّ هذه الشتائم، وكنت في أغلب السنين في سوريا ولبنان، ثمّ أعرج على القاهرة أو الاسطنبول وفي إحدى زيارتي إلى القاهرة تعرّفت على الدكتور علي الوردي في أواخر الستّينات فعرفني وعرف أسرتي وأخبرني أنّه بادر بتأليف موسوعته (لمحاتٌ اجتماعيةٌ في تاريخ العراق الحديث)، وطلب منّي أن أسعفه بالمصادر فأجبت طلبه بكلّ سرورٍ وحين عودتي إلى العراق تكرّرت زيارتي في داره بالكاظميّة، ثمّ

زارنا في دارنا بكربلاء واطّلع على مخطوطات مكتبتي وأخذ ما يحتاجه من وثائق المخطوطة والمطبوعة لموسوعته الخالدة، فتوطّدت بيننا عرى صداقةٍ متينةٍ وأشار إلى هذه الزيارة وبعض الوثائق في مؤلّفاته منها (لمحاتٌ اجتماعيةٌ في تاريخ العراق الحديث)[١].

ولابدّ أن أقول لقد عاشرته سنين طويلةً فرأيته أحد نوابغ علماء الشيعة النابهين، وكان يمتاز بفراسة غريبةٍ وذكاءٍ مفرطٍ ونظرٍ عميقٍ وفكرٍ دقيقٍ ويثبت كلامي هذا ابتكاراته وتحقيقاته وحسن تفهيمه في مختلف مؤلّفاته وبحوثه التي حظيت بإقبالٍ منقطع النظير ورواجٍ عند جميع طبقات النّاس بين العالي والداني حتّى أفراد الشارع العراقيّ والعربيّ والإسلاميّ التي كانت تقيّم هذا الكلام من صميم آلام ضمائرهم الحرّة.

وتجمع كتاباته بين الجودة والروعة والشجاعة والجُرأة العلميّة ونقده لكثيرٍ من الظواهر الاجتماعيّة إلى غير ذلك مما يطول بنا الحديث عنه لو أردنا أن نذكر جميع جوانب حياة هذا العبقريّ الفذّ النادر في تاريخنا المشرق وأمّتنا الخالدة.

لقد كتبَ عنه مئات الصحف العربيّة والأجنبيّة والموسوعات والكتب ورسائل الماجستير والدكتوراه، وممّن كتب عنه عبد الرزّاق محي الدين وسلامة موسى والدكتور إبراهيم الحيدري وهذا الأخير هو الذي ترجم كتابه (دراسةٌ في طبيعة المجتمع العراقيّ) مع المستشرق فايروخ إلى الألمانيّة والأستاذ السيّد حسن الأمين في كتابه (مستدركات أعيان الشيعة)[٢] والدكتور عبد الأمير الورد في مقدّمته على كتاب (من وحي

---

(١) انظر لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق الحديث، ج٢ ص١٥٤، بغداد، مطبعة الإرشاد، سنة ١٩٧١م.

(٢) انظر مستدركات أعيان الشيعة ج٨ ص٢١١ـ ٢٢٣، بيروت، دار التعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

الثمانين) وغيرهم.

منهجي في التحقيق:

كتب الدكتور علي الوردي رسالةً مستقلّةً عن حياة السيّد جمال الدين الأفغاني وصرّح فيها قائلاً: (.. إنّ الأفغاني كانت له صلةٌ لا يستهان بها ببعض أحداث العراق لاسيّما قضيّة سامراء، ولهذا وجدت من الضروري دراسة هذا الرجل وكشف بعض النواحي الغامضة من حياته...).

وقد طبع هذه الرسالة الطبعة الأولى كملحق في المجلّد الثالث من موسوعته الخالدة (لمحاتٌ اجتماعيّةٌ من تاريخ العراق الحديث) عام ١٩٧٢م في بغداد، وقد تعمدتُ أن أقدّم له وأحقّقه وأدعمه بوثائق وصور فوتوغرافيّة هامّة تركها السيّد جمال الدين في دار الحاجّ محمد حسن كومباني أمين الضرب حين حلّ عنده ضيفاً في زيارته الأخيرة لطهران، وقد أهدى ورثة أمين الضرب هذه المجموعة من الوثائق في عصر البهلوي الثاني إلى مكتبة مجلس الشورى في طهران وهي محفوظة هناك حتّى اليوم، ولأهميّة هذه الصور الفوتوغرافيّة والوثائق التي أشار إلى بعضٍ منها المؤلّف في كتابه هذا رأيت أن أدعم كلامهُ بتلك الوثائق والصور التي جمعتها خلال سنين طوال ليكون خير دليلٍ وشاهدٍ على ما قاله، وكما لم يكن خالياً من الفائدة للمحقّقين وأرباب الفضيلة المعنيين والمهتمّين بسيرة وشؤون السيّد جمال الدين، وقد حاولت جهد الإمكان ضبط الأصل والهامش ضبطاً جيّداً إن شاء الله وترجمة بعض الشخصيات التي وردت أسماؤهم حين سرد الحوادث، كما حاولت أن أقدّم للقارئ العزيز ما تيسّر لي من التحقيق والتعليق في الهامش على بعض المواضيع التي تستحقّ التعليق، وقمت أيضاً ببيان وشرح وتفسير بعض الحوادث

الغامضة ولم أكثر من التعليقات كي لا تثقل الحواشي على القارئ الكريم وقد رمزت بتعليقها باسم (الصالحي) حتى يميّز القرّاء الأعزّاء بين تعليقاتي وإضافاتي ومصادر المؤلّف وقد سمّاه الدكتور علي الوردي في حينه باسم (السيّد جمال الدين الأفغاني) ولكن سمّيته بـ (الفيلسوف الثائر السيّد جمال الدين الأفغاني).

والجدير بالذكر أن المؤلّف شاهد في إحدى زيارته إلى مكتبتي في كربلاء هذه الوثائق التي أشار إلى بعضٍ منها في كتابه هذا الذي بين يدي القارئ العزيز ومرّ ذكرها وطلبت منه في حينه أن أدعم كلامه بهذه الصور والوثائق مع تعليقاتي ثمّ أقدّمه إلى الطبع في كتابٍ مستقلٍّ فرحّب بالمشروع وأجازني لفعل هذا الأمر، إلا أن هذه الأمنية بقيت إلى هذا اليوم حتى أنجزته بحمد الله ونستغفره ممّا وقع فيه من السهو والخلل.

فكان عملي في هذا الكتاب هو عمّا يشغل بالي ويمنعني من تراكم الهموم والمصائب التي نزلت بنا في هذه السنة المشؤومة إلّا أنّ تخرّج ولدي وقرّة عيني ومن عليه اعتمادي من جامعة دمشق في هندسة الإلكترونيات والاتّصالات قد خفّف من آلامي حيث نال مرتبة الشرف في العام الدراسي المنصرم ٢٠٠٧م.

ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا

حرّره بيمناه الداثرة العبد الفاني الراجي عفو ربّه الغنيّ

عبد الحسين الصالحي آل الشهيد الثالث عفا عنه

وغفر الله لوالديه حامداً مصلّياً مستغفراً إلى الله

قزوين، عصر يوم عاشوراء، سنة ١٤٢٩هـ

المصادف لـ ١٩/ ١/ ٢٠٠٨م

السيّد جمال الدين الأفغاني

إنّ سيرة الأفغاني تلقي ضوءاً على طبيعة المرحلة الاجتماعيّة التي كانت أقطار الشرق الأوسط تمرُّ بها في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، أضف إلى ذلك أنّ الأفغاني كانت له صلةٌ لا يستهان بها ببعض أحداث العراق لاسيّما قضيّة سامراء[1]، ولهذا وجدت من الضروريّ دراسة هذا الرجل وكشف بعض النواحي الغامضة من حياته تلك النواحي التي تتّصل بالعراق على وجهٍ من الوجوه.

والملاحظ بوجهٍ عامٍ أنّ الأفغاني يعدُّ من رجال التاريخ الذين يكتنفهم الغموض، فتفاصيل نشأته وكثيرٌ من أعمال وجولاته لا تزال تحتوي على سيرته اتّخذوا الأسلوب الخطابي، فهم في كتاباتهم يصوّرونه كأنّه مخلوقٌ من طينةٍ تختلف عن طينة البشر إذ هو في رأيهم رجلٌ مثاليٌّ لا تهمّه مصلحته ولا حاجة بنا إلى القول أنّ هذا أسلوبٌ ذهب زمانه ولم

(١) قضية سامراء: وهي حركةٌ تزعمها المجدّد الشيرازي الميرزا محمد حسن (١٢٣٠ ١٣١٢هجريّة) ضدّ امتياز التنباك الذي عقده ناصر الدين الشاه القاجاري (جلوس ١٢٦٤ ١٣١٣هجريّة) مع الإنجليز وقد أفتى بتحريم التنباك والتي قلب الامتياز رأساً على عقب حتى امتلأ الشاه رهبةً وخوفاً على نفسه وأمر بإلغائها، وكان للسيّد جمال الدين دوراً خطيراً وهامّاً بإقناع السيّد الشيرازي وتحريضه ضدّ الإنجليز.

يعد يلائم المنهج العلمي الحديث.

ينبغي أن نعترف قبل كلّ شيءٍ أنّ الأفغاني بشرٌ كسائر النّاس، يخطئ ويصيب، وقد يميل إلى الشهوات، وتغريه الدّنيا بمغرياتها، ومن الواجب علينا إذن أن نسير بدراسة الأفغاني في هذا الضوء، وبذلك نأمل أن تنكشف لنا بعض الأسرار التي تحيط به.



مرقد الإمامين العسكريين عليهما السلام في سامراء

هل هو إيرانيّ

من أهمّ الأسرار التي تحيط بحياة الأفغاني ما يتّصل بأصله ومسقط رأسه، فقد انقسم المؤرّخون في ذلك إلى فريقين: أحدهما يذهب إلى القول بأنّ الأفغاني ليس أفغانياً بل هو إيراني وأنّه ولد في قرية أسد آباد[1]. التي هي من قرى همدان.

أمّا الفريق الثاني فيقول عنه إنّه أفغانيّ حقّاً وقد ولد في قرية أسعد آباد التي هي من قرى بلدة كنر القريبة من كابل.

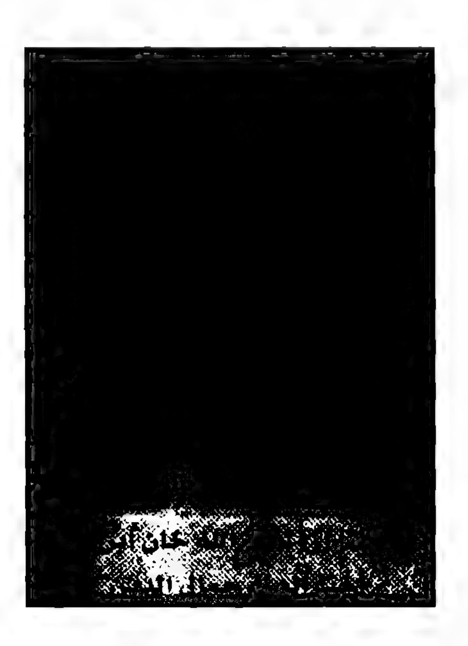
إنّي بعد الدراسة التي قمت بها في هذا الموضوع أميل إلى الرأي الأوّل أي أنّ الأفغاني كان إيرانياً ولم يكن أفغانيّاً، وقد دفعني إلى هذا الرأي قرائنٌ شتّى أذكر أهمّها فيما يلي:

أوّلاً: هناك في قرية أسد آباد الإيرانيّة أشخاصٌ كثيرون يدّعون أنّهم

---

(١) الأسد آباد: مدينة تابعة لمحافظة همدان على الطريق التجاري بين العاصمتين طهران وبغداد حيث تبعد عن مدينة همدان ٥٤ كيلومتراً غربها و٤٥٠ كيلومتراً عن العاصمة طهران، وترتفع عن سطح البحر ١٥٩٣متراً، هواؤها باردٌ في الشتاء ومعتدلٌ في الصيف، وحسب إحصائية عام ١٩٨٦م بلغ عدد نفوسها ٧٤١١٦ نسمة، واللغة الدارجة هي التركية والفارسيّة والكرديّة، ويعيش معظم السكّان على الزراعة وتربية المواشي، وكان السيّد جمال الدين يتكلّم الفارسيّة بطلاقة والتركية باللهجة الهمدانية (الصالحي).

أقرباء السيّد جمال الدين، وتعرف هذه القرية عند أهل القرى المجاورة بـ (قرية السيّد جمال الدين)، ولا تزال الغرفة التي ولد فيها الأفغاني باقيةً على حالها حتّى الآن (محسن الأمين، جمال الدين الأفغاني، ص٧).





وأعرف صديقاً كان قد زار قرية أسد آباد قبيل الحرب العالميّة الثانية واجتمع بأخت الأفغاني فيها، ويعيش في النجف اليوم رجل دين مسنّ اسمه السيّد حسين الحسيني الهمداني وهو يدّعي أنّه حفيد عمّ الأفغاني، وقد زرته في أيلول ١٩٦٩م في الدار التي قيل أنّ الأفغاني كان يسكنها عندما كان طالباً في النجف، وليس هناك ما يدلّ على أنّ هؤلاء جميعاً يكذبون.

ثانياً: صدر في برلين عام ١٩٢٦م كتابٌ بالفارسيّة في سيرة الأفغاني بقلم الميرزا لطف الله خان[١]، ويدّعي المؤلّف أنّه ابن أخت الأفغاني وأنّه اجتمع به في طهران عند ذهاب الأفغاني إليها في عام ١٨٨٦م، ويحتوي الكتاب على صورةٍ فوتوغرافيّةٍ واضحةٍ تجمع الأفغاني والميرزا لطف الله خان مع زمرةٍ من رجال الدين الإيرانيين، وقد تُرجم الكتاب إلى العربية في مصر عام ١٩٥٧م[٢]، ومن يقرأ الكتاب يشعر أنّه لابدّ أن يحتوي على شيءٍ من الحقيقة قليلاً أو كثيراً إذ من المستبعد أن يختلق المؤلف صلته القريبة بالأفغاني على هذه الصورة المكشوفة.

وإذا كان الأفغاني أفغانيّاً حقّاً فلماذا لم يظهر أحدٌ من أقربائه

---

(١) وهو الميرزا لطف الله خان بن السيّد حسين الحسيني الجمالي الأسد آبادي (١٢٧٣ ـ ١٣٤٠هجريّة) ابن أخت السيّد جمال الدين الأفغاني وملازم خاله المذكور في طهران. عالمٌ فاضلٌ أديبٌ شاعرٌ محقّقٌ بارعٌ وهو الذي ألّف كتاباً عن حياة خاله السيّد جمال الدين، وطبع في برلين عام ١٩٢٦م وترجم إلى العربية كما ورد في مقدّمة هذا الكتاب، وله ديوان شعرٍ يحتوي على أربعة آلاف بيت طبع في طهران سنة ١٣٣٥هجريّة وله أيضاً رسالةٌ في العروض ومثنوي صفائية وغيره. توفّي في أسد آباد في ١٢ رمضان سنة ١٣٤٠ هجريّة وحُمل جثمانه إلى النجف الأشرف، ذكره شيخنا الأستاذ الشيخ آغا بزرگ الطهراني في الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج٩ ص٩٧٥ (الصالحي).

(٢) ترجمهُ إلى العربيّة الأستاذان صادق نشأت وعبد النعيم حسنين، القاهرة، منشورات مكتبة الإنجلو المصرية، سنة ١٣٧٦هـ ـ١٩٥٧م (الصالحي).

الأفغانيين حتّى الآن فيكذّب المؤلّف أو يتحدّاه على وجه من الوجوه؟!

ثالثاً: كان الأفغاني قد زار إيران مرّتين بدعوةٍ من الشاه كما سنذكر بتفصيل أكثر فيما بعد، وقد ألحّ الشاه عليه ذات مرّةٍ أن يتولّى رئاسة الوزارة فأبى.

وهنا يذكر الشيخ عبد القادر المغربي[١] أنّه عند حضوره مجلس الأفغاني في اسطنبول سأله حول هذا الموضوع قائلاً: كيف يدعوك الشاه لأن تكون رئيس وزرائه مع أنّك من أهل السنّة؟ فكان جواب الأفغاني: إنّ ذلك كان من الشاه هوساً وجنوناً.

ويعلّق المغربي على هذا الجواب قائلاً: إنّ ذلك دليلٌ على أنّ الأفغاني لم يكن إيرانيّاً ولا شيعيّاً (عبد القادر المغربي، جمال الدين الأفغاني، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٨٠ـ ٨١).

ولست أدري كيف استنتج المغربي هذا المعنى من جواب الأفغاني مع أنّ الأفغاني كان يقصد به التهرّب من ذكر الحقيقة كما هو ظاهرٌ من القرينة.

رابعاً: عندما اشتدّ العداء أخيراً بين الشاه والأفغاني أخذ أعوان الشاه يشوّهون سمعة الأفغاني فأشاعوا عنه أنّه (بابي)[٢] وأنّه (غير مختون)،

---

(١) الشيخ عبد القادر بن مصطفى المغربي الطرابلسي (١٢٨٤ ـ ١٣٧٥هجريّة) نائب رئيس المجمع العلميّ العربيّ بدمشق من أعلام علماء اللغة والأدب. ولد في اللاذقيّة ونشأ في طرابلس الشام، وقرأ على أبيه وبعض علماء دمشق واسطنبول، واتّصل بجمال الدين الأفغاني ثمّ رغبه الشيخ محمد عبده بالسفر إلى مصر فقصدها سنة ١٩٠٥م وانصرف إلى الصحافة، فكتب كثيراً في كبريات الجرائد ودرس في الكليّة الصلاحيّة في بيت المقدس، وله مؤلّفاتٌ مطبوعةٌ ومخطوطةٌ.

(٢) بابي: وهم أتباع السيّد علي محمد الباب (شيراز ١٢٣٥ تبريز ـ ١٢٦٦هجريّة)، تخرّج في كربلاء على يد السيّد كاظم الرشتي المتوفّى سنة ١٢٥٩هجريّة وبعد مرور عامين على وفاة

ولكنّهم لم يشيعوا عنه أنّه (سنّي) أو (أفغاني) وكان من السهل عليهم أن يفعلوا ذلك لو كان الأفغاني أفغانيّاً حقّاً.

وممّا يلفت النظر في هذا الشأن أنّ خصوم الأفغاني في اسطنبول كانوا كثيراً ما يتّهمونه بالإيرانيّة والتشيّع، وكان من هؤلاء أبو الهدى الصيادي إذ كان يصف الأفغانيّ بـ (المتأفغن) ويقول عنه إنّه مازندراني من أجلاف الشيعة (محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، القاهرة، ١٩٣١م، ج١ ص٩٠).

خامساً: المعروف عن الأفغاني أنّه كان في أثناء تجواله في الأقطار المختلفة يتّصل بالإيرانيين وقد ينزل في ضيافتهم أحياناً، فهو عند مروره بقفقاسيا نزل في ضيافة محمد علي خان الكاشاني، وفي موسكو نزل في ضيافة القنصل الإيرانيّ نعمة الله الأصفهاني، وحينما جاء إلى بغداد منفياً نزل في خان عبد الصمد الأصفهاني وهو خانٌ خاصٌّ بالإيرانيّين، وعند ذهابه إلى البصرة كان كثير التردّد على السيّد توفيق الهمداني يزوره في داره الواقعة على نهر العشار ويأكل عنده (الكليجة)[1] الإيرانيّة.

سادساً: عندما نُفي الأفغاني من مصر في عام ١٨٧٩م لم يأت لتوديعه في السويس سوى القنصل الإيرانيّ أحمد النقاوي ونفرٌ من التجّار الإيرانيين الساكنين في مصر، وقدّموا له مائة جنيه ليستعين بها في سفره غير أنّه رفض قبولها.

أستاذه المذكور دعا لنفسه سرّاً في شيراز أنّه باب الإمام المهدي المنتظر ثمّ أعدم في تبريز وله مؤلّفات (الصافي).

(١) الكليجة: نوعٌ من الحلوى العراقيّة وهي عبارةٌ عن الطحين القمح والسمن ثم يعجن الطحين بواسطة الحليب أو الماء ثمّ يحشونه بالتمر الخستاوي ويوضع في الفرن أو التنّور (الصافي).

وهذا أمرٌ يلفت النظر ويثير التساؤل: فما هو السبب الذي جعل أولئك الإيرانيين يفعلون ذلك إن لم تكن لهم مع الأفغاني رابطةٌ خاصّةٌ.

سابعاً: إنّ والد الأفغاني اسمه (صفدر) وهذا الاسم فارسي مركّبٌ من كلمتين هما (صف) و(در) ومعناه ممزق الصفوف، وهو لقبٌ للإمام علي لأنّه موصوفٌ بالشجاعة في الحرب حيث كان يمزّق الصفوف فيها، أضف إلى ذلك أنّ الأفغاني كان له في مصر خادمٌ يتقن الفارسيّة اسمه (عارف أبو تراب)، وإنّ اسم (أبو تراب) لا يوجد في غير إيران، وهو من الأسماء التي يتسمّى بها الإيرانيّون دون غيرهم (لطف الله خان، جمال الدين الأسد آبادي، ترجمة صادق نشأت وعبد النعيم حسنين، القاهرة، ١٩٥٧م، ص١١، ٢٦).

ثامناً: كان الأفغاني واسع الإلمام بالفلسفة الإسلاميّة كما يظهر من كتاباته أو أحاديثه التي كان يلقيها على تلاميذه ومريديه، وقد عدّ ألبرت حوراني[1] ذلك من القرائن التي يمكن أن يُستدلّ بها على إيرانيّة الأفغاني، فهو يقول عن الأفغاني: «إنّ كتاباته ومحاضراته أظهرت أنّه كان على معرفةٍ وثيقةٍ بالتراث الفلسفيّ الإسلاميّ، ولاسيّما فلسفة ابن سينا، وهذه المعرفة كان من السهل الحصول عليها في المدارس الشيعيّة حيث لا يزال تراث ابن سينا حيّاً فيها أكثر ممّا في المدارس السنّية...) *(Albert Hourani (Arabic Thought...) - Oxford 1962 - P 108).*

---

(١) ألبرت الحوراني: واسمه إبراهيم بن عيسى بن يحيى الحوراني (١٢٦٠ ـ ١٣٣٤هجريّة) باحثٌ محقّقٌ أديبٌ شاعرٌ أصله من مدينة حمص. ولد في حلب وانتقل مع والديه إلى دمشق، وتعلّم في مدرسةٍ (عبيّة) بلبنان وطلبته الكليّة الأميركيّة في بيروت سنة ١٢٨٧هجريّة، وكان يدرس فيها تسع سنين وعهدت إليه المطبعة الأميركيّة تصحيح مطبوعاتها، وله مؤلّفاتٌ منها الحقّ اليقين في الردّ على مذهب دَرْوِين، وترجم بعض مؤلّفاته إلى الإنكليزيّة.



العدد الثالث عشر — السنة الاولى

مدير السياسة
جمال الدين الحسيني الافغاني
Directeur Politique
GEMAL-ED-DIN EL-AFGHAN

ترسل الجريدة الى جميع الجهات الشرقية مجانا

المحرر الاول
الشيخ محمد عبده
Rédacteur en Chef
CHEICK MOHAMED ABDO

من شاء ان يبعث اليها بتحارير او رسائل في اي موضوع كان رغبة نشرها في الجريدة او الفتنة تعلى امر مهم فليرسلها الى ادارة الجريدة بهذا العنوان
6, rue Martel, à Paris

العروة الوثقى لا انفصام لها

جريدة سياسية ادبية
تصدر يوم الخميس

يوم الخميس في ١٧ رمضان سنة ١٣٠١ — ١٠ يوليه سنة ١٨٨٤

باريس في ١٠ يوليه

ليس في الحالات اعجب مما يطالب به الانكليز ولا في المحاورات اغرب مما يستعد له من الاقتراحات بينة ولا حجة لينة واقوى ما يكون من ادلتهم اولى به ان يكون في معرض الهزل من ان يكون في جانب الجد ولكن الغرب من جرائهم على الجمهور بدعاية الامم ماصرحوا به بالترهات امثاله كالذين لا يعقلون واصرارهم الالحاح من بيان الهجر فيما يوردون واظهار الوهن فيما يعطلون ليتهتك الستار عن اغراضهم وتظهر خفيات مقاصدهم وترتفع الريبة عمن يعدون بملا عيانهم .

ان الانكليز ساقوا جيشا الى مصر وبراوه ارضها مدة تزيد على سنتين فكان حلول جيشهم سببا في اختلال النظام واختلال الاحكام وعموم الفساد في ارجاء البلاد حتى صار العاصون وقطاع الطرق على نحو الجيوش المنظمة سرايا وكتائب لرجعف الغارة على القرى والبلدان صاحية بلا استتار وسرى الاختلال الى عموم الاعمال الادارية والقضائية ففقدت الامنة على الحقوق كافة وسقطت البلاد بسبب ذلك الى درك من الضيق والعسر لم يكن يخطر على بال ٠ وما كان شئ من تلك الطبائع ولا واحد من هذه المفاسد ولا قليل من هاتة الشدائد موجودا ابان الحركة التي سموها فتنة عسكرية واتخذوها دليلا على الفوضى وزعموا فيها وسيلة لتدا خلهم بما كرهم ٠ حالة مصر شاهدة على انه لم يكن للاختلال فيها اسم ولا اثر حويته امر الابعدما وطئ الانكليز ارضها ومع ذلك يزعمون انهم ما اتوا الا لتقرير الراحة واصلاح النظام وازالة الفوضى ويريدون ان تمتد اقامتهم فيها الى اجل بعيد ليتموا القصد الذي اتوا اليه وشرطوا جلاءهم عنها بر سوخ الامن وانقطاع شأفة الاعتداء واجتماع خواطر الاهالي على الرضى بما يرسم عليهم من السائدين في ديارهم والتسليم لما يقضي به فيهم ٠ لا يعجب من هذه النقطة ٠ هل يوجد عاقل من اي امة ينظر في المصريين الركون الى السكينة ما دام الجيش الاجنبي متوطنا ديارهم البس وجود عسكر اجنبي بين اظهرهم كافيا في نفرة قلوبهم وازدياد سخطهم ٠ الطبيعة تحكم باستحالة ما يطلب الانكليز منهم والتجربة في معظم

الجيوش وعلى هذه الطريقة التي يسلكونها في مصر وهل كان لهم سلطان في جهة من جهات الشرق الا يدعون انهم يريدون فيها الاصلاح لم ينجلون عنها الا بعد ان راحلت اهله الذيول .

ماذا يريد الانكليز من تقرير الراحة بعساكرهم في مصر هل يريدون مكافحة اللصوص حتى يلجئوهم على طرح السلاح ويقرا الاهالي شرهم ان كان هذا قصدهم فاجنبية الاصل فان جيشا من هذه الطبائع لم يكن الا وجيوشهم نازلة بالبلاد فكانما كانت تلك الجيوش مثارا لهذا الفساد مضى عليها سنتان وهي في معاقل مصر وهبت اعصار السوء بقدومها وكلما طال الزمن زاد الخطر وفوتت ساعات العمر فاذا يكفي منها في ثلاث سنين وضعف الامثل ما كان من الزمان سنتين او اشد فتنة . فكيف يعقل ان يكون بقاؤها في مصر مهدا لرد الامن اليها . وهل تكون علل المفاسد محلة للصالح . نعم يكون هذا اذا قيل ان حضر الرمضاء يطفئها او ان وقود النار يخمدها .

هل يقصدون من تقرير الراحة اخماد فتنة السودان . ان صح هذا القصد منهم فمتى سعوا اليه واي جيش ساقوه واي موقع جهوا اليه الشكوى بسورة الثورة . او لم ير المصريون جيشهم العظيم على مقربة رجل من رجال محمد احمد (عثمان دقنة) في سواحل البحر الاحمر فما كانت الامهارة مرت فيها العساكر ودخل صوت وحوقلة القواد الى انا عين المسكونة وارتد بهم الذعر الى البحر ولفلوا الى ديارهم يتلفتون الى ما وراءهم خوفا ورهبة . كان الواجب عليهم ان يحضروا عثمان دقنة الى ربوع الخرطوم حتى يبدد جنده ويلحقوا بصاحب الدعوة فان عجزوا عن الكل فلا اقل ان ياتوا على البعض فالذي صدهم عن سبيل القصد لو كانوا فيه من الصادقين . رجعوا وتركوا غوردون باشا في فم التنين ثم السحا والى ملك الحبشة ليبرم به حربا صليبية تسود بها وجوه الكاذبين الذين يزعمون انهم حماة الانسانية ورواد المدنية . فماذا يكون من عساكرهم لو اقامت في مصر اضعاف ما اقامت الى لا يختلف المستقبل عن الماضي الا بعظم خطوبه واشتداد نوبه .

هل يقصدون المحافظة على حدود مصر لاوليها وحمايتها من هجمات السودانيين ويقفون عند حد المدافعة ولابد عن الى ما وراء ذلك ان كانت هذه نيتهم فهي بعيدة الشقة في

اصابتهم وكل كرة لهم اوفرة الخزم بها الانكليز جهة في ملاك الحدود المصرية للدفاع عنها فلا يكون لحلول الجيش الانكليزي بارض مصر امد ينتهي ولا اجل ينقضي . فما لهم يلبسون على الدول والدولة العثمانية والمصريين بتحديد مدة الحلول الى ثلاث سنوات ونصف مع سرد الالفاظ المبهمة نحو الراحة وحفظ النظام واعادة الامن الى ما يسمع ولا يفهم .

وليس من المبالغة ان نقول ان حلول الجيش الانكليزي كان وسيكون من اعظم الاسباب لقوة محمد احمد ولولا وجود العساكر الانكليزية في مصر ما تمكن الرجل من الجهر بهذه الدعوة العظيمة ولقد كان يتبرأ من نسبتها اليه ايام كانت الحكومة المصرية خالصة للمصريين بل ما كان يجسد احد يلبي دعوته او يحمل تحت رايته . فهذه نواريس الامم ومن سير طبيعة الاختلاف ترغد المنتصرين الى ان مثل هذه الدعوة لا يقوم قائمها في امة لا بعد اشتداد الخطوب عليها وزحف الاعداء اليها . اي حجة لمحمد احمد في دعوة الناس اليه واي نغمة لجمع القلوب عليه اقوى من ان يقول ان الانكليز من يتهم الاستيلاء على ارض مصر وهي في عداد الاراضي المقدسة وباب الحرمين الشريفين ومهد العلوم الدينية ودعامة القوة الاسلامية فمن كان يؤمن بالله ورسوله فليجب داعي الله في صد هجمتهم وابعادهم عن البلاد ما رحمهم . وهذا الكلام مما يزعج قلب كل مسلم ويبعثه على الاتفاق مع صاحب الدعاء . هل يتوهم بعد سقوط الخرطوم وحبس الانكليز حال بارض مصر ان تقف دعوة محمد احمد في تخوم محدودة وهو الزاعم انه منقذ المسلمين . هل يبعد عن العقل ان يمتد لواء سلطته الى اقطار اسلامية بحيث الانكليز منها ثائلة الفتنة كما يتصورونها في الهند . فدعوى الانكليز الحرب الى الصحافة منها الى الامن وسيعلم الانكليز انهم كانوا احوج الناس الى السلم واقربهم الى الفتنة .

اي قوة تقف هذه الدعوة وتمنعها عن الانتشار بل ترد على قائلها وتنقض ما كان لم ينطق بها لسان او يدعو لها داع . ليس لقوة ان تاتي بهذا الاثر على احسن وجه الا قوة العثمانيين واولى العزم من المصريين ٠ هل نظن دولة ما ان عقد مؤتمر لتحديد الدين المصري يسطو على محمد احمد او يخلف عن وطائه او يرده على عقبه ...

تاسعاً: نجد في مقالات (العروة الوثقى)[١] ذكراً لبعض القصص والأمثال الشعبيّة التي يتناقلها النّاس في إيران والعراق، وهي تكاد تكون خاصّةً بهم، كقصّة هيكل اصطخر، وقصّة الزنجي والطفل (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، العروة الوثقى، بيروت، ١٩٧٠م، ص٢٦٢، ٢٧٦).

وكذلك نجد في كتابات الشيخ محمد عبده أقوالاً لبعض علماء الشيعة من العهد الصفوي[٢] كالمير باقر الداماد (مصطفى عبد الرزاق، محمد عبده، القاهرة، ص٧٠)[٣]، فهذه الأقوال لابدّ أنّ الشيخ استمدّها

---

(١) العروة الوثقى: جريدةٌ أسبوعيّةٌ أصدرها السيّد جمال الدين في باريس، صدر العدد الأوّل منها في الخامس من جمادى الأولى ١٣٠١هجريّة الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤م، وبلغ ما نشر منها ثمانية عشر عدداً، وصدر العدد الأخير منها في ذي الحجّة سنة ١٣٠١هجريّة، وانتهت بسبب محاربة الإنجليز لها وقد أحدثت في وقتها ضجّةً كبيرةً بين الشعوب الإسلاميّة، وكانت تحمل أفكار جمال الدين الثائر على الاستعمار وكفاحه الصامد ضدّ قوى الشرّ، طبعت جميع أعدادها في مجلدٍ واحدٍ عام ١٩٥٧م بواسطة الأستاذ صلاح البستاني وقدم عليها الأستاذ طه عبد الباقي سرور. ذكرها شيخنا الأستاذ آغا بزرگ الطهراني في موسوعته الخالدة (الذريعة إلى تصانيف الشيعة ج١٥ ص٢٥٠) (الصالحي).

(٢) العهد الصفوي: بدأ العصر الصفوي من ٩٠٧ لغاية ١١٣٥هجريّة)، وأوّل ملوكهم شاه إسماعيل الأوّل (جلوس ٩٠٧ المتوفى ٩٣٠هجريّة)، وآخر ملوكهم شاه حسين الصفوي (جلوس ١١٠٥ المتوفّى ١١٣٥هجريّة)، وكانت عاصمتهم مدينة قزوين ثمّ انتقلت حدود سنة ١٠٢٠ هجرية إلى أصفهان على عهد الشاه عباس الأول (جلوس ٩٨٥ المتوفّى ١٠٣٨هجريّة)، وهي أوّل إمبراطوريّة شيعيّة بعد سلاطين الأبوية في إيران، وازدهرت العلوم العقليّة والنقليّة في هذا العصر (الصالحي).

(٣) المير باقر الداماد: وهو السيّد محمد باقر الداماد بن شمس الدين محمد الحسيني الاسترابادي القزويني، ولد حدود سنة ٩٦٠هجريّة، في قزوين وترعرع فيها وتوفّي بين النجف وكربلاء في (بئر مجنون) في ٣ شعبان سنة ١٠٤١هجريّة، وحمل إلى النجف ودفن في حجرة جدّه الامي الشيخ علي الكركي من أعاظم الحكماء وفلاسفة الشيعة المؤسّسين، له مؤلّفاتٌ مهمّةٌ في الفلسفة منها القبسات المطبوع مكرّراً أو المعوّل عليه في الفلسفة (الصالحي).

من أستاذه الأفغاني، ولابدّ أنّ الأفغاني استمدّها من دراسته الشيعيّة القديمة.



عاشراً: ممّا اشتهر به الأفغاني في مصر أنّه كان يحسن الخطابة باللغة العربيّة الفصحى، وقد وصفه جرجي زيدان أنّه (كان خطيباً مصقعاً لم يقم (صورة) في الشرق أخطب منه) (جرجي زيدان، تراجم مشاهير الشرق، بيروت، ج٢ ص٦٠)، وذكر الدكتور شبلي شميل[1]: (أنّه شهد

---

(١) شبلي شميل: وهو الدكتور شبلي بن إبراهيم شميل (١٢٩٦ ـ ١٣٣٥هجريّة)، طبيبٌ متفلسفٌ باحثٌ مؤلّفٌ، ولد في قرية كفر شيما بلبنان وتخرّج من الجامعة الأميركيّة في بيروت، وسكن في الإسكندريّة ثمّ ارتحل إلى القاهرة وتوفّي فيها فجأةً، وله شروحٌ وتعليقاتٌ على كتبٍ طبيّةٍ قديمةٍ وشرح؟؟ على مذهب داروين كان ينحو منحى الفلاسفة في عيشته وآرائه ومن أكبر

خطبةً له في الإسكندريّة وكان قريب العهد فوقف ساعتين يتكلّم بلسانٍ عربيٍّ فصيحٍ وإلقاء حسنٍ لكلامٍ مفيدٍ حتى أدهش النّاس) (محمد رشيد رضا، المصدر السابق، ج١ ص١٠١).

وهنا نودّ أنّ نسأل: هل يمكن لرجلٍ نشأ في بلاد الأفغان وتلقّى دروسه فيها أن تكون له مثل هذه المقدرة الخطابيّة باللغة العربيّة؟!

إنّ هذه المقدرة الخطابيّة هي في أرجح الظنّ من جرّاء دراسة الأفغاني في النجف، وقد رأينا في النجف وما زلنا نرى إيرانيين يجيدون التكلّم بالفصحى خيراً ممّا يجيده الكثير من العرب.

ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد أنّ الأفغاني كان بالرغم من فصاحته العربيّة تظهر عليه أثناء الحديث لكنةٌ أعجميّةٌ واضحةٌ (المصدر السابق، ص٢٦، ٥٥)، فهو مثلاً يدخل الألف واللام على بعض الأسماء التي لا يجوز في العربيّة إدخالها فيها كبغداد وأوربا، فهو يقول: (البغداد) و(الأوربا).

تلك هي بعض القرائن التي تؤيّد القول بأنّ الأفغانيّ كان إيرانيّاً، وهناك قرائنُ أخرى سنأتي إليها استطراداً في ثنايا هذا البحث.

مزاياه التنديد بالظالمين وله نظم (الصالحي).

نشأة الأفغاني

جاء في رواية الميرزا لطف الله خان وهي الرواية التي نعتمدها أنّ الأفغاني ولد في قرية أسد آباد[١] في عام ١٢٥٤هـ، أي عام ١٨٣٨م، وحين بلغ الثانية عشرة من عمره سافر بصحبة والده السيّد صفدر إلى العراق لزيارة العتبات المقدّسة، ثمّ استقرّ في النجف[٢] حيث تركه أبوه فيها لمواصلة الدراسة في مدارسها الدينيّة وعاد هو إلى بلاده (لطف الله خان، المصدر السابق، ص٤٩ ٥٤).

وتشير القرائن إلى أنّ الأفغاني مكث في النجف بضع عشرة سنة، باستثناء فترةٍ أمدها سنة وبضعة أشهر سافر فيها إلى الهند، ومن الجدير بالذكر أنّ النجف كانت يومذاك في أوج نهضتها العلميّة حيث ازدهرت فيها الدراسات الفلسفيّة[٣] والكلاميّة والأصوليّة، وقد عاش الأفغاني في

---

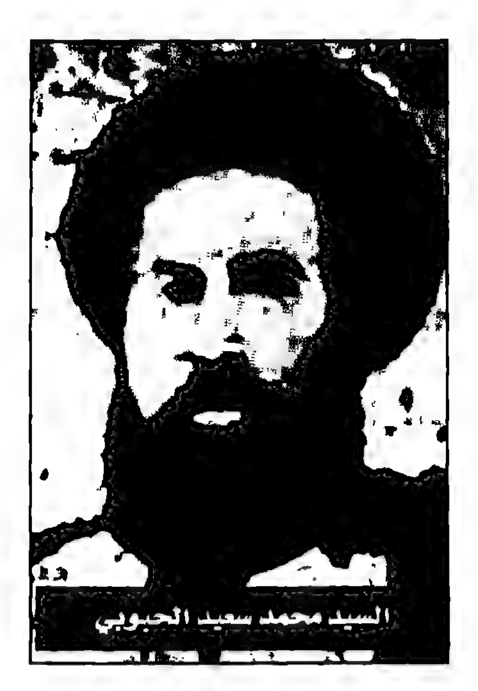
(١) ولا تزال داره موجودةً حتّى اليوم في أسد آباد وقد وضعنا في الصور السابقة صورةً فوتوغرافيّةً من غرفته.

(٢) وقد ذكرنا سابقاً أنّه سكن في كربلاء أوّلاً ثمّ سافر إلى الهند وعرج على الحجاز لأداء فريضة الحجّ واستقرّ في النجف الأشرف.

(٣) لقد أشرنا سابقاً أنه لم يوجد أيّة حوزة فلسفيّة في النجف، وكان منذ عهد بعيدٍ أكثر الحوزات الشيعيّة تحفّظاً في دراسة العلوم العقليّة.

هذا (صورة) الجوّ الفكريّ وتشبّع ذهنه به، والمعروف عن الأفغاني أنّه كان شديد الذكاء قويّ الحافظة ميّالاً للجدل والتفلسف.

يروى عن السيّد محمد سعيد الحبوبي[1] الذي كان زميلاً للأفغانيّ في الدراسة أنّه قال عنه: (لقد كنّا ندرس معاً علم التصوّف عند الحاجّ عباس قولي بالنجف، وكان الأفغاني من حسن البيان بحيث يستطيع إن أراد أن يصوّر الحقّ باطلاً والباطل حقّاً) (قدري قلعجي، جمال الدين الأفغاني، بيروت، ١٩٥٢، ص٢٤).


السيد محمد سعيد الحبوبي

(١) وهو السيّد محمد سعيد بن السيّد الحسني النجفي (١٢٦٦ ـ ١٣٣٣هجريّة) من أكابر علماء الشيعة المشاهير وأساطين الشعر وأبطال الجهاد والنضال، تخرّج على جماعة من فحول علماء النجف منهم الشيخ محمد طه نجف وتزعّم إمارة الشعر في النجف وشهد له فطاحل شعراء العرب، قاد جيشاً باسلاً من أبناء الفرات الأوسط إلى ساحة المعركة لمقارعة الإنكليز ذكرته كتب التراجم ومعاجم الرجال.

كانت رحلة الأفغاني إلى الهند في عام ١٨٥٤، وقد درس هناك بعض مبادئ العلوم الحديثة، ويقول سليم العنحوري إنّ الأفغاني درس في الهند علم الأديان وتعمّق فيه حتّى أفضى به ذلك إلى الإلحاد والقول بقدم العالم (محمد رشيد رضا، المصدر السابق، ص٤٣).

ولا ندري مبلغ ما في هذا القول من صحّةٍ لاسيّما إذا علمنا أنّ العنحوري اعتذر عنه فيما بعد وأعلن تكذيبه، ولكنّنا مع ذلك نستطيع أن نستشفّ من هذا القول أنّ الأفغاني ربّما مرّ أثناء رحلته في الهند بمرحلةٍ من التشكيك على منوال ما حدث للغزالي[1] وغيره من المفكّرين العظام.

يبدو أنّ الأفغاني بعد عودته من الهند أحدث شيئاً من الضجّة والجدال في النجف وانقسم النّاس حوله فكان فريقٌ منهم يؤيّده ويأخذ بآرائه، وآخر يخالفه ويتّهمه بالزندقة.

وقد أشار إلى ذلك المرزا لطف الله خان في كتابه ولكنّه ذكر أنّه حصل قبل سفر الأفغاني إلى الهند (لطف الله خان، المصدر السابق، ص٥٤)، وهذا أمرٌ يصعب علينا قبوله لأن الأفغاني كان حينذاك دون الثامنة عشرة من عمره. ويرجح في ظنّي أنّ الضجّة حدثت حول الأفغاني بعد عودته من الهند وبعد أن درس مبادئ العلوم الحديثة و(علم الأديان).

---

(١) وهو محمد بن محمد الغزالي الطوسي (٤٥٠ ـ ٥٠٥هجريّة) المعروف بـ (أبو حامد) وحجّة الإسلام. من كبار العلماء، حكيمٌ فيلسوفٌ متصوّفٌ أصله من قرية طابران من قرى الطوس، ثمّ ارتحل إلى نيسابور ومنها إلى بغداد، وشغل كرسي التدريس والفتوى وطاف في الحجاز وبلاد الشام، له مؤلّفاتٌ كثيرةٌ أشهرها إحياء العلوم في أربع مجلّداتٍ طبع مكرّراً.

مغامراته في الأفغان

يخيّل لي أنّ الأفغاني سئم الحياة في النجف أخيراً، ولعلّه لم يجد فيها ما يشبع طموحه فآثر الخروج إلى العالم الواسع ليجرّب حظه فيها، ففي أواخر ١٨٦٥ غادر الأفغاني النجف متوجّهاً إلى طهران، وبعد أن مكث في طهران (صورة) ستّة أشهر غادرها إلى خراسان حيث مكث فيها ثلاثة أشهر، ومن ثمّ عبر الحدود نحو بلاد الأفغان.

كانت أفغانستان في تلك الأيّام تمرّ بفترةٍ عصيبةٍ من الفوضى والتنازع على الحكم، وكان التنافس على النفوذ فيها شديداً بين بريطانيا وروسيا، وكانت إيران تساهم في هذا التنافس إذ كانت تقف إلى جانب روسيا ضدّ بريطانيا. وعند وصول الأفغاني إلى أفغانستان كان هناك نزاعٌ عنيفٌ بين أميرين من أمرائها هما شير علي خان الموالي لبريطانيا وأخيه محمد أعظم خان الموالي لإيران وروسيا.

تزيا الأفغاني بزيّ سيّدٍ من رجال الدين وادّعى أنّه من أشراف بلدة (كنر)، يروي الشيخ آغا بزرگ الطهراني[1] في كتابه (طبقات أعلام

(١) الشيخ آغا بزرگ الطهراني: واسمه الشيخ محسن أو الشيخ محمد محسن بن علي الطهراني المنزوي (طهران ١٢٩٣ نجف ١٣٨٩هجريّة) شيخ العلماء وأركان الطائفة الجعفريّة وأحد طرق الإجازات في القرن الأخير عند علماء الإماميّة، أخذ الأوليّات في طهران، ثمّ هاجر إلى العراق

الشيعة) نقلاً عن أحدوزراء الأفغان في تلك الفترة وهو السردار حمد خان القزلباشي أنّه رأى ذات يومٍ في مجلس الأمير عبد الرحمن خان سيداً من رجال الدين يسمّى (السيّد جمال الدين) ويزعم أنّه من عائلةٍ أفغانيّةٍ معروفةٍ، فاستنكر السردار ذلك وقال له متحدّياً إنّه يعرف أكثر الأسر والبيوت المعروفة في الأفغان فمن أيّة أسرةٍ هو؟!



في سنة ١٣١٣هجريّة فتفقّه في النجف، وانتقل إلى سامراء (١٣٢٩ ـ ١٣٥٥هجريّة)، وعاد إلى النجف لمتابعة العمل في تأليف (الذريعة)، وصدر منه أكثر من ألفي إجازة في رواية الحديث والاجتهاد من قلمه الشريف، وشارك في الانقلاب الدستوري في إيران (مشروطه)، وهو شيخي وأستاذي ومن عليه في العلوم اتّكائي، له مؤلّفاتٌ كثيرةٌ أشهرها الذريعة إلى تصانيف الشيعة في تسع وعشرين مجلّدا، طبع في إيران وأعيد طبعه في بيروت مكرّرا، وطبقات أعلام الشيعة صدر منها حتّى اليوم ستة عشر (١٦)مجلّداً، وطبع في إيران وبيروت مكرّراً، وهو من أهمّ المصادر المعوّل عليه عند أرباب التحقيق.

فتمتم السيّد وأجاب بجوابٍ ملفقٍ مفتعلٍ تظهر عليه الحيلة واللباقة، ثمّ انصرف من عند الأمير خجلاً ولم يعد إليه بعد ذلك (آغا بزرگ الطهراني، طبقات أعلام الشيعة، النجف، ١٩٥٦، ق٢ ج١ ص٦٩٦).

مهما يكن الحال فقد استطاع الأفغاني حسبما ذكر هو عن نفسه أن يدخل في حاشية الأمير محمد أعظم خان، وهو عمّ عبد الرحمن خان، ثمّ ارتفعت منزلته عند هذا الأمير حتى أحلّه محلّ الوزير الأوّل، وعظمت ثقة الأمير به فكان يلجأ لرأيه في عظائم الأمور وما دونها (محمد المخزومي، خاطرات جمال الدين الأفغاني الحسيني)، بيروت، ١٩٦٥، ص٨ ٩).

لم يمض على ذلك سوى مدّةٍ قصيرةٍ حتى انجلت المعركة عن هزيمة محمد أعظم خان وانتصار خصمه شير علي خان، فوجد الأفغاني نفسه في (صورة) موقفٍ حرجٍ جدّاً لا يدري ما يفعل.

يقول الأفغاني عن نفسه: إنّه بقي في كابل بعد هزيمة صاحبه محمد أعظم خان ثلاثة أشهر، ولم يمسسه شير علي خان بسوءٍ احتراماً لنسبه الشريف، ولكنّه خشي أن يكيد به شير علي خان.

فاستأذن منه للحجّ فأذن له بذلك على شرط أن لا يمرّ ببلاد إيران كي لا يلتقي فيها بمحمد أعظم خان الذي كان قد فرّ إليها، فارتحل الأفغاني إلى الهند، وقد استقبلته حكومة الهند بحفاوةٍ وإجلالٍ غير أنّها لم تسمح له بطول الإقامة، فسافر على نفقتها إلى السويس، ومن هناك ذهب إلى القاهرة فأقام فيها نحو أربعين يوماً ثمّ غادرها إلى اسطنبول.

الأفغاني في اسطنبول

حين وصل الأفغاني إلى اسطنبول كان في زيّ سيّد أفغاني عليه جبّةٌ وكساءٌ وعمامةٌ عجراء، فاجتذب إليه الأنظار، واستطاع أن يقابل الصدر الأعظم عالي باشا فنال عنده حظوةً، وبعد ستّة أشهرٍ عيّنه عالي باشا عضواً في مجلس المعارف الأعلى.

أخذ الأفغاني يتعلّم اللغة التركيّة[1] حتّى تمكّن بعد مدّةٍ وجيزةٍ من أن يتكلّم بها ويكتب، وفي كانون الأول من ١٨٧٠، وكان الشهر رمضان، أقيمت حفلةٌ في دار الفنون حضرها جمعٌ غفيرٌ من الحكّام والعلماء والصحافيين، فألقى الأفغاني فيها خطاباً تطرّق فيه إلى ذكر الأنبياء والفلاسفة والفرق بينهما، والظاهر أنّه استمدّ رأيه في ذلك من بعض الفلاسفة القدماء كابن رشد وابن سينا[2]، فأثار عليه بعض رجال الدين

---

(١) لقد أشرنا سابقاً إلى أنّ اللغة الفارسيّة والتركيّة هما لغتان دارجتان في مدينة أسد آباد حتّى في العصر الحاضر، وأنّ السيد جمال الدين كان يتكلّم التركيّة باللهجة الهمدانيّة، وأنّه أخذ يتعلّم الاصطلاحات التركيّة الاسطنبوليّة حتى يتمكّن من أن يتكلّم بها ويخاطب رجال المجتمع التركي بلسانهم ولهجتهم وقد أجاد في هذا الميدان بعد مدّةٍ وجيزةٍ.

(٢) ابن سينا: وهو الحسين بن عبد الله بن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨هجريّة) الملقّب بالشيخ الرئيس. وأبو علي بن سينا من أعاظم فلاسفة الشيعة ومشاهير الأطبّاء على الإطلاق، أصله من بلخ

الحاضرين لاسيّما شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي وكان هذا يضمر الحقد له.



ولم تكد الحفلة تنتهي حتّى أخذ شيخ الإسلام يشنّع على الأفغاني وينسب إليه أنّه أهان الأنبياء وقال: إنّ النبوّة صنعةٌ من الصنائع.

وسرعان ما تلاقف خطباء المساجد هذه التهمة وكأنّهم وجدوا فيها موضوعاً يهيّجون النّاس به فأخذوا يصولون ويجولون من على منابرهم في ثلب الأفغانيّ والتنديد به، وتناولت الجرائد هذه القضية وأكثرت من القول فيها حيث انقسمت إلى فريقين: مع الأفغاني وعليه.

ذكر الشيخ عبد القادر المغربي أنّ أباه الشيخ مصطفى كان في

ومولده في إحدى قرى بخارى، وتوفّي في همدان وعلى قبره نصبٌ تذكاريٌّ ضخمٌ، تقلّد الوزارة في همدان، وثار عليه عسكرها ونهبوا داره فتوارى واستقرّ في أصفهان، وصنّف بها أكثر مؤلّفاته وقد نبغ في أكثر العلوم كالطب والفلسفة والموسيقى والشعر والنجوم وغيرها، وعاد في أواخر أيّامه إلى همدان فمرض في الطريق ومات بها .

اسطنبول حينئذٍ فكتب رسالةً في الردّ على الأفغانيّ عنوانها: (عين الصواب في الردّ على من قال إنّ الرسالة والنبوّة صنعتان تنالان بالاكتساب) ملأها بالتشيّع على الأفغاني ونبزه بالتّهمة التي نسبت إليه، ويعتذر الشيخ عبد القادر عن أبيه فيقول: (وأرجو ألّا يكون مؤاخذاً لما وقر في نفسه من حسن القصد وسلامة النيّة) (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص٣٠ـ ٣١).

كان في مقدور الأفغاني أن ينحني للعاصفة حتى تمرّ بسلام، ولكنّه كان كما وصفه الذين خالطوه حادّ المزاج يسيطر عليه الغضب أحياناً فيخرجه عن طريق التعقّل.

ولهذا رأيناه يطالب بمحاكمة شيخ الإسلام ويلجّ في ذلك ممّا أدّى بالحكومة إلى الطلب إليه بمغادرة اسطنبول مؤقّتاً إلى أن تهدأ الخواطر ثم يعود إليها متى شاء.

حلوله في مصر

وصل الأفغاني إلى القاهرة في ٢٢ آذار ١٨٧١، فقابل رئيس الوزارة رياض باشا ونال عنده حظوةً كالتي نالها في اسطنبول عند عالي باشا، وأجرى رياض باشا له مرتباً قدره ألف قرش وهو مرتّبٌ كان له شأنه في تلك الأيّام.

ونال الأفغاني كذلك حظوةً لدى الخديوي إسماعيل باشا[١]، يقول المؤرّخ المصري عبد الرحمن الرافعي[٢].

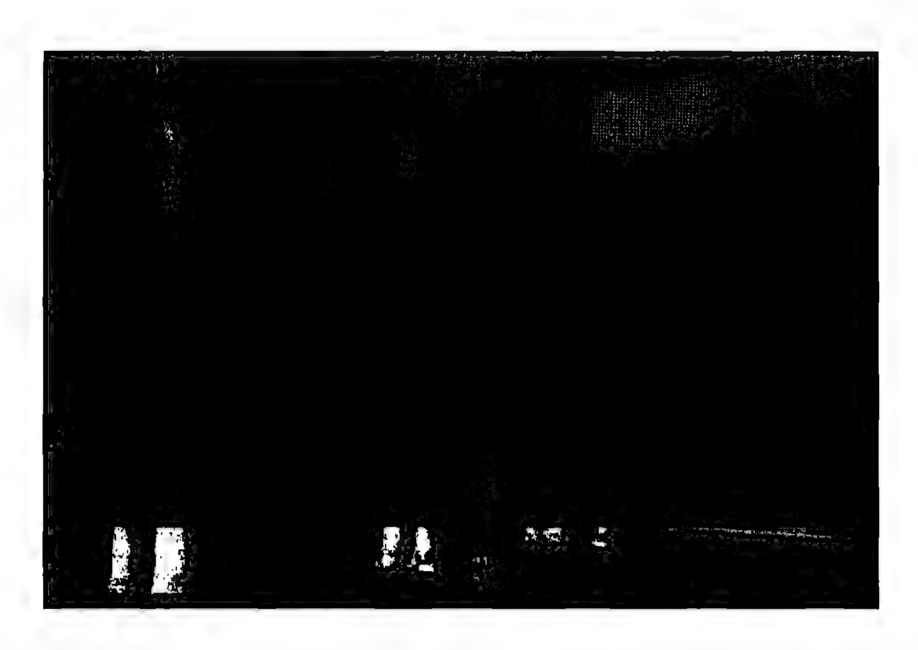
إنّ رعاية إسماعيل باشا للأفغاني أمرٌ لا يعسر فهمه إذا عرفنا أنّ في

---

(١) الخديوي إسماعيل باشا بن إبراهيم بن محمد علي الكبير (١٢٤٥ ـ ١٣١٢هجريّة) ولد في القاهرة، وتعلّم بها ثمّ في فرنسة، وولي الحكم في مصر سنة ١٢٧٩ هجريّة وهو أول من أطلق عليه لقب الخديوية من هذه الأسرة. كان مولعاً بالهندسة والتخطيط منذ طفولته، وبادر في أيّام حكومته بالإعمار وبنيت مدينة الإسماعيلية، وأنشئ المتحف المصريّ والمكتبة الخديوية المصرية، وأقيمت المنارات في البحر الأحمر وامتدّت سكك الحديد إلى بلاد السودان وتمّ حفر ترعة السويس، وكان مسرفاً في الإنفاق حتّى وصلت ديون مصر إلى مائة مليون جنيه.

(٢) عبد الرحمن بن عبد اللطيف الرافعي (١٣٠٦ ـ ١٣٨٦هجريّة) كاتبٌ بارعٌ ومؤرّخُ مصر في العصر الحديث ومن أعيان الحزب الوطنيّ، مولده ووفاته بالقاهرة، تخرّج بمدرسة الحقوق الخديوية عام ١٩٠٨، وعمل سنةً في جريدة اللواء، وانقطع للمحاماة وأعمال الحزب السياسيّة، وانتخب للنيابة أكثر من مرّة، ثمّ عضواً في مجلس الشيوخ، وله مؤلّفاتٌ كثيرةٌ ونافعة.

إسماعيل جانباً ممدوحاً هو حبّه للعلم ورغبته في نشره ورعايته، وثمّة اعتبارٌ آخر لا يفوتنا الإلماع إليه ذلك أنّ إسماعيل باشا كان يحبّ أن ينافس حكومة اسطنبول في المكانة والنفوذ السياسيّ فلمّا جاء الأفغاني إلى مصر مبعداً من اسطنبول انتهز إسماعيل باشا الفرصة وأراد أن يظهر للنّاس كيف أنّ مصر تؤوي العلماء في الوقت الذي كانت فيه اسطنبول تضيق بهم (عبد الرحمن الرافعي، جمال الدين الأفغاني، القاهرة، ص١٥-١٧).





من الداخل ومنظر البوائك الغربية

إنّنا على أيّ حالٍ نقف هنا تجاه لغزٍ غامضٍ ولابدّ لنا من أن نتساءل: كيف استطاع الأفغاني أن ينال تلك الحظوة الكبيرة في اسطنبول وفي القاهرة بمجرّد وصوله إليهما؟

نحن نعرف أنّ العشرات من رجال الأدب والعلم يفدون إلى تينك المدينتين في كلّ عام فما هو السبب الذي جعل الأفغاني وحده يتميّز عنهم جميعاً بمقابلة كبار رجال الدولة ونيل المكانة الرفيعة عندهم؟

أكان الأفغاني يحمل طلسماً أم ماذا؟!(١)

اتّخذ الأفغاني محلّ سكناه في عمارة العناني بحارة أم الغلام قريباً من المسجد الحسيني وخان الخليلي، وكانت عادته اليوميّة أن يقضي سحابة نهاره في مسكنه فإذا حلّ المساء خرج يتوكّأ على عصاه ومعه خادمه (عارف أبو تراب) يلازمه كظلّه، فيذهب إلى مقهى رجلٍ يونانيٍّ اسمه (متاتيا) يقع في ميدان العتبة الخضراء تجاه دائرة البريد المركزية (لا يزال هذا المقهى في موضعه القديم، وهو يسمّى الآن (يونيفر سال)، وقد زاره كاتب هذه السطور منذ عهدٍ قريب)، وهناك يحفّ به أصحابه فيلقي عليهم أحاديثه الشائقة التي هي خليطٌ من الفلسفة القديمة وبعض مبادئ

---

(١) (أكان الأفغاني يحمل طلسماً أم ماذا؟!: أجل لابدّ أن أذكر هنا حادثتين في التاريخ المعاصر في القاهرة من جانب عالمين شيعيين وهو خير دليلٍ على جواب سؤال المؤلّف. ذهب الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء (١٢٩٤ ـ ١٣٧٣هجريّة) وهو أحد أعلام الطائفة،وأكابر علماء النجف إلى مصر وحضر صلاة الجمعة فيها، وطلب منه إمام الجمعة أن يلقي خطبة الجمعة فأجاب، وكان خطيبها في تلك الجمعة وقد ركّز خطبته جعل كلماته مشحونةً بألفاظٍ أدبيّةٍ غرّاء، وأعجب الحاضرون بأسلوبه الأدبيّ الرائع والمتداول عند علمائهم في مصر، ولم يكن شيئاً جديداً لهم، ثمّ ذهب بعد عام الشيخ عبد الكريم الزنجاني (١٣٠٤ ـ ١٣٨٨هجريّة) من العلماء المتضلّعين في الفلسفة بالنجف وهو أقلّ شهرةً وصيتاً من الإمام كاشف الغطاء إلى مصر وحضر صلاة الجمعة فيها، وطلب منه إمام الجمعة أن يكون خطيب صلاة الجمعة فأجاب وصعد المنبر وقد ركّز كلامه وخطبته في مسائل عجيبة بالفلسفة السينائيّة والإشراقيّة ممّا أدهش الحاضرين وأثار إعجاب المستمعين، وكان في كلامه نوعٌ جديدٌ من الطعم اللذيذ الذي لم يسمعه المصريون من مشايخهم وأعلامهم قبل ذلك اليوم وحين نزل الإمام الزنجاني من على المنبر قام الدكتور طه حسين فقبّل يده وقال: (هذه أوّل وآخر يدٍ أقبّلها في الإسلام)، لذا نرى أنّ السيّد جمال الدين استفاد من الطريقة نفسها والأسلوب حيث كان متضلّعاً في الفلسفة المشائيّة والإشراقيّة كما مرّ ذكره، لذا كان يسحر المستمعين ويثير إعجابهم في كلامه وخطبه المشحونة بالفلسفة، وتمكّن من النفاذ إلى قلوبهم وتمركز في محيطه. وقد سمّى المؤلّف هذه الطريقة بحمل الطلسم السحري.

العلوم الحديثة، ويناقشهم في شتّى المواضيع.

كان الأفغاني ذا مقدرةٍ على اجتذاب الأصحاب والمريدين، ولاسيّما من بين صفوف الشباب، وكان الشيخ محمد عبده من أوائل الذين التحقوا بحلقته، ثمّ صارت الحلقة تتوسّع تدريجياً بمرور الأيّام.

ولم يطل الأمر بالأفغاني حتّى ظهر تجاهه خصومٌ من بين شيوخ الأزهر ورجال الدين كان على رأسهم الشيخ عليش، فأخذ هؤلاء يشنّون عليه الحملات الشعواء ويزعمون أنّ الأفكار الجديدة التي يدعو إليها تفضي إلى زعزعة العقائد الصحيحة وتؤدّي إلى حرمان النفس من خير الدنيا والآخرة (محمود أبو ريه، جمال الدين الأفغاني، القاهرة، ١٩٥٨، ص٣٨).

سجّل إبراهيم الهلباوي ذكرياته عن تلك الفترة فقال: (كنت طالباً في الأزهر الشريف لم أتجاوز العام السادس عشر حين نزل السيّد جمال الدين مصر وأقبل عليه الأدباء والمتنورون يستمعون إلى أحاديثه العلميّة ويحضرون في مجالسه ودروسه، وكان الشيخ محمد عبده من هؤلاء الذين أعجبوا بالسيّد وتشيّعوا له، فحقدتُ عليه وصرت أتربّص به وبإخوانه الدوائر لأنّي كنت أعتقد كما يعتقد أشياخي الذين تأثّرت بهم بأنّ السيّد جمال الدين رجل (صورة) ملحدٌ ونزل مصر ليضلّ النّاس ويجمع حوله شيعةً ينشرون إلحاده وضلاله، حتى أصبح قذىً في عيني لا أستطيع رؤيته، وصرت أتوخّى أن تقع هنة من السيّد جمال الدين أو أحد أتباعه لأشفي بها حقدي عليه).

ثم يذكر الهلباوي كيف أنّه عندما التقى بالأفغاني أعجب به وانمحت من ذهنه تلك الأوهام التي كان يتلقّاها من مشايخه عنه (مجلّة العربي الكويتيّة، في عددها الصادر في كانون الأوّل ١٩٧١م).

دخوله في الماسونيّة

في أواخر أيّار من عام ١٨٧٥م قدم الأفغاني طلباً إلى المحفل الماسوني في القاهرة يطلب فيه قبوله عضواً في المحفل، ولا تزال ورقة الطلب محفوظةً في مكتبة البرلمان الإيراني (عُثر في طهران على الكثير من أوراق الأفغاني ورسائله وقد حُفظت في جناحٍ خاصٍّ في مكتبة البرلمان الإيراني. وفي عام ١٩٦٣ نشرت جامعة طهران كتاباً يحتوي على تصنيفٍ لتلك الأوراق وصور زنكغرافيّة لبعضها، وهو كتابٌ مهمٌّ جدّاً يستطيع القارئ أن يستنتج منه الكثير من القرائن التي تؤيّد كون الأفغانيّ إيرانيّاً وليس أفغانيّاً)، وهي مكتوبةٌ بخطّ يد الأفغاني نفسه، وهذا هو نصّها:

(يقول مدرّس العلوم الفلسفيّة بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي الذي مضى من عمره سبعةٌ وثلاثون سنة بأنّي أرجو من إخوان الصفا، وأستدعي من خلان الوفا، أعني أرباب المجمع المقدس الماسون، الذي هو عن الخلل مصون، أن يمنّوا عليّ ويتفضّلوا إليّ بقبولي في ذلك المجمع المطهّر وبإدخالي في سلك المنخرطين في ذلك المنتدى المفتخر، ولكم الفضل).

وقد تمّ قبول الأفغاني في المحفل الماسوني، ثمّ أخذ يرتقي في مراتب الماسونيّة سريعاً، حيث نجده في أوائل عام ١٨٧٨ يصل إلى مرتبة الرئاسة.

يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلي
الذي مضى من عمره سبعة وثلثون سنة بأني أرجو من اخوان الصفا
واستدعي من خلان الوفا أعني ارباب المجمع المقدس الماسون
الذي هو عن الخلل والزلل مصون أن يمنوا علي ويتفضلوا الي
بقبولي في ذلك المجمع المطهر وبادخالي في سلك المنخرطين
في ذلك المنتدى المفتخر ولكم الفضل

طلب انتمائه في مصر إلى المحفل الماسوني

وفيما يلي نصّ الكتاب الذي أرسله إليه (لوج كوكب الشرق) الماسوني يخبره باختياره رئيساً له:

(إلى الأخ جمال الدين المحترم. إنّه لمعلومٌ لديكم بأنّ في جلسة ٢٨ الماضي وبأغلبيّة الآراء صار انتخابكم رئيس محترم لهذا اللوج لهذا العام، ولذا قد نهنّئكم ونهنّئ ذواتنا على هذا الحظّ العظيم، وعن أمر

الرئيس محترم الحالي أدعو أخوتكم للحضور في يوم الجمعة القادم ١١ الجاري الساعة ٢ عربي بعد الغروب إلى محفل هذا اللوج لأجل استلامكم القادوم بعد إتمام ما يجب من التكريز الاعتيادي ثمّ سيصير يوم الخميس ١٠ الجاري الساعة ٦ أفرنكي مساء تكريز رئيس محترم لوج كونكورديه، فالرجاء حضوركم في اليوم المذكور للاشتراك في الأشغال وفي الحالتين ملابسكم تكون سوداء ورباط الرقبة والكفوف بيضاء، واقبلوا منّا العناق الأخويّ، كاتب السرّ: نقولا سكروج) (أصغر مهدوي وإيرج أفشار، (مجموعة أسناد ومدارك)، طهران، ١٣٤٢ف، لوحة ١٦ تصوير، ص٤٠، ٤١).

لوج كوكب الشرق
نمرة ١٣٥٥

في القاهرة مصر ٧ جنايو ١٨٧٨ / ٥٨٧٨

الى الاخ جمال الدين محترم
انه لمعلوم لديكم بان في جلسة ٢٨ الماضي وباغلبية الآرا صار انتخابكم رئيس محترم لهذا اللوج لهذا العام ولذا قد هنيئكم وهني ذواتنا على هذا الحظ العظيم وعن امر الرئيس محترم الحالي ادعو اخوتكم للحضور يوم الجمعة القادم ١١ الجاري الساعة ٢ عربي بعد الغروب الى محفل هذا اللوج لاجل استلامكم القادوم بعد اتمام ما يجب من التكريز الاعتيادي ثم سيصير يوم الخميس ١٠ الجاري الساعة ٦ افرنكي مسا تكريز رئيس محترم لوج كونكورديه فالرجا حضوركم في اليوم المذكور للاشتراك في الاشغال وفي الحالتين ملابسكم تكون سودا ورباط الرقبة والكفوف بيضا واقبلوا منا العناق الاخوي. كاتب السر
نقولا سكروج

قبوله السيد جمال الدين في لوز كوب الشرق في محفل الماسوني

كان دخول الأفغاني في الماسونيّة وارتقاؤه فيها من جملة الأسباب التي رفعت من شأن الأفغاني في مصر ووسعت مجال نفوذه في الدوائر الحكوميّة وأوساط الطبقة العالية، فقد صار الكثير من الماسونيين من مريديه كما دخل الكثير من مريديه في الماسونيّة.

يقول الدكتور سامي عزيز: إنّ المحفل الماسوني ضمّ بالإضافة إلى الأمير وليّ العهد نخبةً من الصحفيين والكتاب منهم يعقوب بن صنوع وسعد زغلول[1] وأديب إسحق[2] ومحمد عبده والمويلحي وسليم النقاش[3] وإبراهيم اللقاني وعلي مظهر والزرقاني والقوني، هذا إلى جانب محمد شريف باشا وبطرس غالي باشا[4] وبعض أعضاء مجلس الشورى وبعض ضباط الجيش (سامي عزيز، الصحافة المصريّة، القاهرة، ١٩٦٨، ص٢٦).

---

(١) سعد باشا بن إبراهيم زغلول (١٢٧٣ ـ ١٣٤٦هجريّة) من أشهر زعماء النهضة المصرية وأكبر خطبائها، تخرّج من الأزهر وانضمّ إلى حاشية السيّد جمال الدين فلازمه مدّةً وحين نشبت الثورة العرابية سنة ١٢٩٨هجريّة كان ممّن اشتركوا بها وقُبض عليه سنة ١٢٩٩ هجريّة، ثمّ أفرج عنه وانتخب سنة ١٣٣٧ هجريّة رئيساً للوفد المصري للمطالبة بالاستقلال فنفاه الإنجليز إلى مالطة وعاد من المنفى فأصبح اسمه رمزاً للنهضة القوميّة وتولّى رياسة مجلس الوزراء سنة ١٩٢٤م ثمّ رياسة مجلس النوّاب وتوفي في القاهرة.

(٢) أديب إسحاق (١٢٧٢ ـ ١٣٠٢هجريّة) أديبٌ بارعُ حسن الإنشاء من مسيحيّي دمشق،و لد فيها وتعلّم في إحدى مدارسها ثم سكن الإسكندريّة فساعد سليماً النقاش في تمثيل بعض الروايات العربيّة، وانتقل إلى القاهرة فأصدر جريدةً أسبوعيّةً سمّاها (مصر) سنة ١٨٧٧م، ثمّ استقرّ في لبنان وتوفّي في قرية الحدث بلبنان.

(٣) سليم بن خليل النقاش المتوفّى ١٣٠١هجريّة مؤرّخ قديرٌ وكاتبٌ فذٌ، ولد في لبنان وتعلّم فيها، ثمّ سكن الإسكندريّة وله مقالاتٌ كثيرةٌ في صحف المصرية، توفّي في الإسكندريّة وله كتاب مصر للمصريين.

(٤) بطرس باشا بن غالي نيروز (١٢٦٢ ـ ١٣٢٨هجريّة) من الأقباط الأرثوذكس. تعلّم بمصر وأوروبا، ووُلّي نظارة المالية فالخارجيّة ونقم عليه الوطنيّون المصريّون بإمضائه اتّفاقية السودان. قتله شابٌ من أقباط مصر.

الأفغاني سياسيّاً

كانت الحكومة المصرية في تلك الآونة على وشك أن تعلن إفلاسها لكثرة الديون الأجنبيّة المستحقّة عليها وعجزها عن الوفاء، فكان ذلك سبباً لتدخّل بريطانيا وفرنسا في إدارة الحكومة المصريّة من أجل حماية الدائنين الذين هم من رعاياها، فظهر من جرّاء ذلك ما يعرف بـ (الرقابة الثنائية).



وفي عام ١٨٧٨ تشكّلت وزارةٌ برئاسة نوبار باشا وفيها وزيران أجنبيان أحدهما بريطانيّ والآخر فرنسيّ، فاعتبر المصريّون ذلك إهانةً لبلادهم

(صورة) وأطلقوا على الوزارة اسم (الوزارة الأوربيّة) (عبد الرحمن الرافعي، المصدر السابق، ص٣٩).





والملاحظ أنّ الخديوي إسماعيل باشا اتّخذ موقفاً شديداً ضدّ التدّخل

الأجنبيّ في بلاده وأخذ يشجّع الصحف على مهاجمة ذلك التدخّل ويثير النّاس عليه، كما شجّع مجلس الشورى على معارضة الوزارة، وبعبارة أخرى: إنّ إسماعيل باشا أصبح كأنّه زعيمٌ شعبيٌّ يطالب بالاستقلال والديمقراطيّة.

وممّا يلفت النظر أنّ الأفغاني في ذلك الوقت بالذات صار سياسيّاً مع العلم أنّه كان قبل ذلك يتجنّب الخوض في السياسة في أحاديثه.

وقد أدّى هذا التحوّل في مسلك الأفغاني إلى حصول شيءٍ من الخلاف والنفرة بينه وبين أعضاء المحفل الماسوني الذي ينتمي إليه.

ذكر محمد المخزومي[1] في كتابه (خاطرات الأفغاني): أنّ أحد أعضاء المحفل قال له أثناء الاجتماع: (إنّ الماسونيّة لا دخل لها في السياسة وإنّنا نخشى على محفلنا هذا من بأس الحكومة وبطشها)، فنهض الأفغاني يردّ عليه حيث قال:

(كنت أنتظر أن أسمع وأرى في مصر كلّ غريبةٍ وعجيبةٍ، ولكنّي ما كنت أتخيّل أنّ الجبن يمكنه أن يدخل من بين أسطوانتي المحافل الماسونيّة...

لا تتمّ الصورة في الذهن إلّا بعد التعريف والوصف... أمّا نحن معاشر الماسون فيؤلمني أنّني للآن ما عرفت لنفسي بصفتي ماسونياً، ولا لمطلق الماسونيّة، تعريفاً يجعل لها صورةً في الذهن أو وصفاً على

---

(١) محمد باشا بن حسن سلطان المخزومي (١٢٨٥ ـ ١٣٤٨هجريّة) من أعيان بيروت، وكاتبٌ بارعٌ، نشأ وتعلّم في كلّ من بيروت والقاهرة، وأصدر مجلّة الرياض المصريّة نصف شهرية مشاركاً لخاله عبد الرحمن الحوت، ثمّ سافر إلى أوربا واستقرّ في اسطنبول فكان من أعضاء (مجلس المعارف) ومن مدرسي المكتب الشاهاني، ثمّ انتقل إلى حلب وعيّن مفتّشاً للأوقاف، وعاد إلى بيروت في بدء القيام بالحركة الإصلاحيّة وتوفّي بها، وله مؤلّفاتٌ منها (خاطرات جمال الدين الأفغاني).

من ينخرط في تلك العشيرة. أوّل ما شوّقني للعمل في بناية الأحرار ـ يقصد الماسون ـ عنوانٌ كبيرٌ خطيرٌ: حريّة، مساواة، إخاء، غرض منفعة الإنسان، سعيٌ وراء دكّ صروح الظلم، تشييد معالم العدل المطلق.

فحصل لي من كلّ هذا وصفه للماسونيّة... ولكن مع الأسف أرى أنّ جراثيم الأثرة، والأنانيّة، وحبّ الرئاسة، والعمل من جماعات بمقتضى أهوائهم، وخضوعاً لشرق عن بعد سحيق، يعتوره تهديدٌ ووعيد، وغير ذلك من الأمور التي ما تأسّست الماسونيّة الحرّة إلّا لملاشاتها...) (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص١٨ـ ١٩).

وانسحب الأفغاني بعد هذا الخطاب من المحفل الماسوني، وأسرع فأسّس محفلاً ماسونياً جديداً برئاسته، وانضمّ إليه أصحابه وتلاميذه.

والظاهر أنّ الظروف ساعدت المحفل الجديد على النموّ، وأصبح الأفغاني بذلك شخصيةً سياسيةً لها وزنها، فأخذ يكتب في الصحف ويخطب في الجماهير، ثمّ شكّل حزباً سياسيّاً باسم (الحزب الوطني الحرّ) وصار يقابل الوزراء والقناصل ومراسلي الصحف الأجنبيّة ليحدّثهم باسم الحزب، وقد ترجمت مقتبساتٌ من أقواله في الصحف البريطانيّة في لندن ممّا جعل بعض وزراء بريطانيا يهتمّون بها ويتناقشون حولها (جرجي زيدان، المصدر السابق، ج٢ ص٥٦)[1].

(١) اعتمد المؤلّف على كتاب (تراجم مشاهير الشرق) لجرجي زيدان مكرّراً في بحثه، ولابدّ أن أذكره هنا: هو جرجي بن حبيب زيدان (١٢٧٨ ـ ١٣٣٢هجريّة) صحفيٌّ متتبع. أصله من لبنان. ولد وتعلّم في بيروت ورحل إلى مصر فأصدر مجلّة الهلال اثنين وعشرين عاماً، توفي بالقاهرة وله مؤلّفات أشهرها (تاريخ التمدّن الإسلامي) المطبوع مكرّراً وترجم إلى الفارسيّة ولم ينصف فيها بحقّ الشيعة وتجاهل دور الشيعة في التمدّن والحضارة الإسلاميّة، وما خلّفه علماؤها في كلّ قرنٍ بعامّة العلوم وشتّى أنواع الفنون من أصناف التصانيف وآلاف التأليف ما لا يحصى وإذا دقّقنا النظر في علمائنا والفلاسفة والأطباء لوجدنا الأكثريّة الساحقة منهم

هنا يواجهنا سؤالٌ: هل كان الأفغاني في نشاطه السياسيّ هذا واقفاً إلى جانب إسماعيل باشا أم إلى جانب خصومه؟

الواقع أنّ أكثر الذين كتبوا في سيرة الأفغاني أشاروا إلى أنّه وقف ضدّ إسماعيل باشا وطالب بخلعه، فقد ذكروا أنّه ذهب على رأس وفدٍ لمقابلة وكيل دولة فرنسا، وطلب منه باسم (الحزب الوطنيّ الحرّ) أن يساعدهم على خلع إسماعيل باشا بحجّة أنّ فكرة الإصلاح لا يمكن أن تخرج إلى حيّز التنفيذ ما دام هذا الرجل حاكماً في مصر، وذكروا أيضاً أنّ الأفغاني قابل شريف باشا رئيس الوزارة التي تشكّلت حديثاً ونصحه بأن يحمل إلى إسماعيل باشا رغبة النّاس في تنازله عن العرش.

وذكر المستر بلنت أنّ الأفغاني كان يريد قتل إسماعيل باشا وقد اقترح على تلميذه الشيخ محمد عبده أن يقوم باغتياله أثناء مروره بعربته على جسر قصر النيل إذ كان إسماعيل معتاداً أن يمرّ على ذلك الجسر كلّ يوم (محمود قاسم، جمال الدين الأفغاني، القاهرة، ص٤٤ـ ٤٥).

يمكن القول على أيّ حالٍ أنّ هذه هي إحدى النقاط الغامضة من حياة الأفغاني فنحن لا نعرف على وجه اليقين أيّة جهةٍ ارتبط بها الأفغاني في تلك الفترة وما هو الهدف الذي كان يقصده فيها.

إنّها نقطةٌ تحتاج إلى مزيدٍ من الدراسة، ويؤسفنا أن نجد معظم المؤرّخين يمرّون بها مرّاً خفيفاً دون أن يولوها العناية الكافية.

من الشيعة. وكفى فخراً وشرفاً للشيعة في قبال مصر ورجالها أن يكون معلّمها الأوّل ورئيس نهضتها الحديث الشيخ محمد عبده تلميذ السيّد جمال الدين الشيعي الثائر، وكما أجلب انتباه القارئ العزيز إلى بعض مؤلّفات الشيعة التي هي أساس التمدّن الإسلاميّ ودليل النهضة العلميّة الحديثة أمثال تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام لسيّد الصدر، والذريعة إلى تصانيف الشيعة لشيخنا الأستاذ آغا بزرگ الطهراني، وأعيان الشيعة لسيّدنا الأمين، والغدير لشيخنا الأميني، والأسفار لصدر المتألّهين الشيرازي وغيرها.

في عهد توفيق باشا

بذلت بريطانيا وفرنسا جهدهما لدى السلطان عبد الحميد في اسطنبول لعزل إسماعيل باشا، وقد تمّ لهما ذلك أخيراً، ففي ٢٦ حزيران ١٨٧٩ وصلت من اسطنبول إلى القاهرة برقية تنبئ بعزل إسماعيل باشا ونصب ابنه توفيق باشا بدلاً منه.

ويروى أنّ إسماعيل باشا عندما غادر القاهرة احتشدت الجماهير لتوديعه في محطّة القطار، ولم يتمالك الكثير منهم أنفسهم فانخرطوا في البكاء (بيير كربيتيس، إسماعيل المفترى عليه، ترجمة فؤاد صروف، القاهرة، ص٢٥٧).

شعر الأفغاني في عهد توفيق باشا كان الدولة المصريّة كلّها أصبحت طوع يده، فقد كان توفيق باشا ماسونياً وكان علاوةً على ذلك محبّاً للأفغاني ومعجباً بأفكاره، وأخذ الأفغاني يوجّه أعضاء محفله الماسوني نحو العمل الجدّي لإصلاح الجهاز الحكوميّ، فجعلهم عدّة فئاتٍ وأناط بكلّ فئةٍ منهم مراقبة الدوائر في وزارةٍ من الوزارات، ففئة للحقانيّة، وأخرى للماليّة، وثالثةٌ للأشغال، ورابعةٌ للجهاديّة، فكانت كلّ فئةٍ تنظر في شؤون الدوائر الخاصّة بها وتتعرّف على ما يقع من الظلم ووجوه

الإصلاح فيها، ثمّ تتّصل بالوزير المختصّ وتبلغه رغباتها في أسلوب حازمٍ صريحٍ.

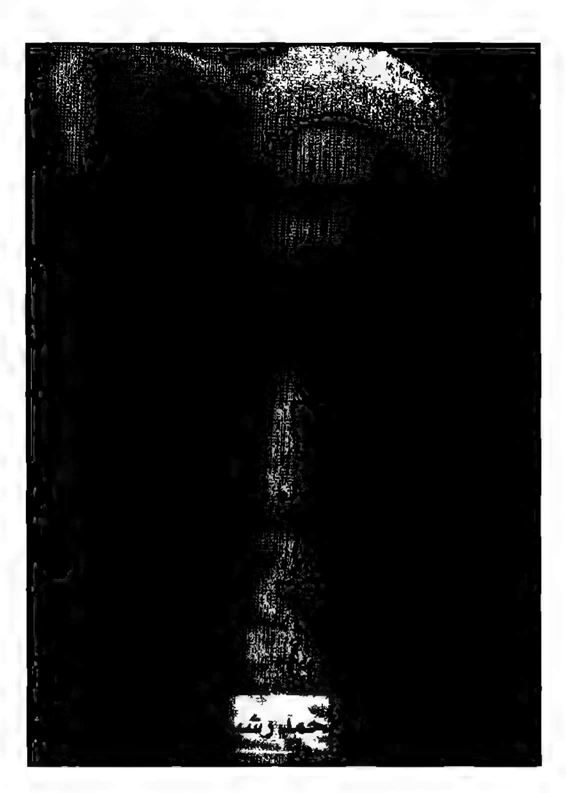
يقول الدكتور أحمد أمين[1] تعليقاً على ذلك: هكذا اتّسعت دائرة نفوذ الأفغاني في مصر، فقد كان في بداية أمره يدرّس في حجرةٍ، ثمّ انتقل إلى قهوة، وها هو ذا الآن يريد أن يسيطر على الوزارات ومصالح الحكومة بمحفله الماسوني (أحمد أمين، زعماء الإصلاح، القاهرة، ١٩٤٩، ص٧٤).

---

(١) أحمد أمين بن الشيخ إبراهيم الطبّاخ (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هجرية) من كبار الكتّاب المصريين وعلماء الأدب، مؤلّف مكثر اشتهر باسمه (أحمد أمين)، مولده ووفاته بالقاهرة تخرّج بمدرسة القضاء الشرعي، وتولّى القضاء ببعض المحاكم الشرعيّة، له مؤلّفاتٌ مطبوعةٌ منها فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام، ويوم الإسلام، وزعماء الإصلاح في العصر الحديث.

نفيه من مصر

لم يكتف الأفغاني بهذا النشاط الذي ذكرناه في إصلاح الجهاز الحكوميّ، بل صار يطالب بالدستور وبإقامة النظام النيابيّ في مصر، وأخذ يخطب في هذا الموضوع ويحرّض أعوانه على نشر المقالات فيه.



وممّا يجدر ذكره في هذا الصدد أنّ الأفغاني كان في أوّل عهده بمصر لا يرى في النظام النيابيّ خيراً، وكان يعتقد أنّ مجلس النوّاب لا قيمة له ما دام المصريّون على ما هم عليه من ضعف اليقظة وقلّة الشجاعة، أمّا الآن فقد بدّل رأيه هذا (المصدر السابق، ص٧٦)، وصار يدعو إلى النظام النيابيّ بكلّ حماسٍ.

نشأ الخلاف بين الأفغاني والخديوي الجديد توفيق باشا من جرّاء هذه المطالبة بالدستور والنظام النيابيّ، فاستدعاه الخديوي إليه وطلب منه الكفّ عن إلقاء الخطب والأحاديث المثيرة وقال له: (إنّني أحبّ كلّ خيرٍ للمصريين، ويسرّني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقيّ والفلاح، ولكن مع الأسف إنّ أكثر الشعب خامل، جاهلٌ، لا يصلح أن يُلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيّجة، فيلقون أنفسهم والبلاد في تهلكة).

وقد حاول الأفغاني إقناع توفيق باشا بفائدة الحياة النيابيّة ونظام الشورى، فلم يوفّق في محاولته، وأضمر له توفيق باشا الحقد (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص٢١).

وفي ساعةٍ متأخّرةٍ من ليلة ٢٦ آب ١٨٧٩، عندما كان الأفغاني راجعاً على عادته من مقهاه نحو بيته، أُلقي القبض عليه وحُجز في (الضبطيّة) حتّى الصباح.

ومن هناك حُمل في عربةٍ مقفلةٍ إلى محطّة القطار، وسار به القطار تحت المراقبة الشديدة إلى السويس، ثمّ نُقل إلى باخرةٍ كانت في طريقها إلى الهند.

لم يأت لتوديع الأفغاني عند مرسى الباخرة سوى القنصل الإيرانيّ ونفرٌ من التّجار الإيرانيين الذين كانوا يسكنون في بلدة السويس، وقدّم

له هؤلاء مبلغ مائة جنيه ليستعين بها في سفره (محمد رشيد رضا، المصدر السابق، ص٤٨)[1]، فرفض قبول المبلغ وقال لهم: (أنتم إلى هذا المال أحوج، والليث لا يعدم فريسةً حيثما ذهب) (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص٢٤).

وفي اليوم التالي ذهب بعض رجال (الضبطيّة) إلى منزل الأفغاني لتفتيشه، فأخذوا من كتبه وأوراقه ما شاؤوا، ثمّ حشوا الباقي في صناديق وأرسلوها بحراً إلى ميناء بوشهر الإيرانيّ إذ كانوا يظنّون أنّه ذاهبٌ إلى إيران، أمّا خادمه (عارف أبو تراب) فقد ظلّ محجوزاً في (الضبطيّة) بضعة أيّام ثم أطلق سراحه، فسافر إلى بيروت.

وفي ٢٨ آب ـ أي بعد نفي الأفغانيّ بيومين ـ نشرت جريدة الأهرام بياناً رسمّياً ورد إليها من إدارة المطبوعات ننقل فيما يلي نبذةً منه:

(قد استقرّت الحكومة بأنّ هناك جمعيّةٌ سرّيةٌ من الشبّان ذوي البطش مجتمعةٌ على فساد الدين والدّنيا رئيسهم يدعى جمال الدين الأفغاني

---

(١) محمد رشيد رضا وقد مرّ ذكره مكرّراً، ومؤلّفاته من مصادر هذا الكتاب وهو الشيخ محمد رشيد بن علي رضا الحسيني البغدادي الأصل (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هجريّة) من فحول رجال الإصلاح الإسلاميّ وصاحب مجلّة المنار وأحد علماء الفقه والحديث والأدب والتفسير. ولد ونشأ في القلمون في ضواحي طربلس الشام وتعلّم فيها ثمّ في طرابلس ونظم الشعر في صباه. وقد اتّصل في بيروت بالشيخ محمد عبده ثمّ رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ هجريّة، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ عليه. ولمّا أعلن الدستور العثماني سنة ١٣٢٦هجريّة زار بلاد الشام واعترضه في دمشق وهو يخطب على منبر الجامع الأمويّ أحد أعداء الإصلاح وعلى إثرها عاد إلى مصر وأنشأ مدرسة (الدعوة والإرشاد)، ثمّ قصد سوريّة في أيّام الملك فيصل وانتخب رئيساً للمؤتمر السوريّ فيها. وعند خول الفرنسيين في سنة ١٩٢٠م عاد إلى مصر ثمّ زار الهند وأوروبا والحجاز، وعاد إلى مصر. توفّي فجأةً في سيّارةٍ كان راجعاً بها من السويس إلى القاهرة ودُفن بالقاهرة، وله مؤلّفاتٌ منها تفسير القرآن الكريم وتاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. طبع في ثلاث مجلّدات.

مطرودٌ من بلاده... ثمّ من الأستانة العلية لما ارتكبه من أمثال هذه المفسدة في ديارنا المصريّة.. فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتّخذ الطرق اللازمة في قطع عرق الفساد فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصريّة بأمر ديوان الداخليّة، ووجّهته من الطريق السويسي إلى الأقطار الحجازيّة لإزالة هذا الفساد من هذه البلاد عبرةً للمعتدين ولمن يتجاسر على مثل هذا من المفسدين)(محمود أبو ريّة، المصدر السابق، ص١١٩).

ويعلّق المؤرّخ المصريّ عبد الرحمن الرافعي على نفي الأفغاني فيقول: (ومن المؤلم حقّاً أن يتقرّر نفي جمال الدين ويصدر مثل هذا البلاغ من حكومة يرأسها الخديوي توفيق باشا وهو على ما نعلم من سابق تقديره للسيّد، ومن وزرائها محمود باشا سامي البارودي وزير الأوقاف وقتئذٍ وقد كان من أصدق مريديه وأنصاره. فتأمّل كيف يتنكّر الأنصار والأصدقاء لأستاذهم، وإلى حدٍّ يضيع الوفاء بين النّاس!! ولا ندري كيف أساغ البارودي نفي السيّد جمال الدين واشترك في احتمال تبعته، وإذا لم يكن موافقاً على هذا العمل المنكر فلم لم يستقل من الوزارة احتجاجاً واستنكاراً، لاشكّ أنّ موقف البارودي في هذه الحادثة لا يمكن تسويغه أو الدفاع عنه بأيّ حالٍ..) (عبد الرحمن الرافعي، المصدر السابق، ص٤٦ـ ٤٧).

اختلفت الأقوال في تعليل نفي الأفغاني من مصر، فمنهم من ذهب إلى أنّ الخلاف في الرأي بينه وبين توفيق باشا كان هو السبب في نفيه، ومنهم من قال بأنّ نفيه إنّما جرى بضغطٍ من المستر فافياني قنصل بريطانيا العام في مصر، وللباحث المصريّ الدكتور سامي عزيز رأيٌ غريبٌ في هذا الموضوع إذ هو يقول: (ويلاحظ من دراسة تاريخ الأفغاني أن الإنجليز سكتوا عنه وهو في مصر طالما كان عضواً في الماسونيّة

الإنجليزيّة ولكنّه عندما خرج عليها وأنشأ المحفل التابع للشرق الفرنسيّ وأخذ يهاجم سياسة بريطانيا، عندئذٍ أشار الإنجليز على توفيق بضرورة التخلّص منه..) (سامي عزيز، المصدر السابق، ص٣١٦).

الردّ على الدهريين

ذهب الأفغاني على إثر نفيه من مصر إلى الهند واستقرّ في مدينة حيدر آباد دكن زهاء ثلاث سنوات، ولا نعرف عن حياة الأفغاني في تلك الفترة سوى أنّه ألّف فيها بالفارسيّة كتابه (الردّ على الدهريين) وهو الكتاب الذي ترجمه الشيخ محمد عبده فيما بعد إلى العربيّة بمساعدة عارف أبو تراب، ولتأليف هذا الكتاب قصّة جديرة بالذكر هنا، لأنّها تلقى ضوءاً على وضع المسلمين في الهند حينذاك وموقف الأفغاني منه.

كان المسلمون في الهند آنذاك يعانون صراعاً شديداً بين تراثهم الدينيّ القديم وما جاءت به الحضارة الأوروبيّة من مفاهيم ونظم حديثة.

والواقع أنّ المسلمين في جميع أقطارهم كانوا يعانون مثل هذا الصراع، ولكنّ المسلمين في الهند سبقوا غيرهم في ذلك، وكان الصراع بينهم أشدّه. وفي القرن التاسع عشر ظهر في الهند مفكّرٌ إسلاميٌّ حاول أن يوفّق بين ذينك التيّارين المتصارعين، واندفع في ذلك بحماسٍ منقطع النظير، هو السّيد أحمد خان[1]، فقد نظر هذا الرجل إلى حالة المسلمين

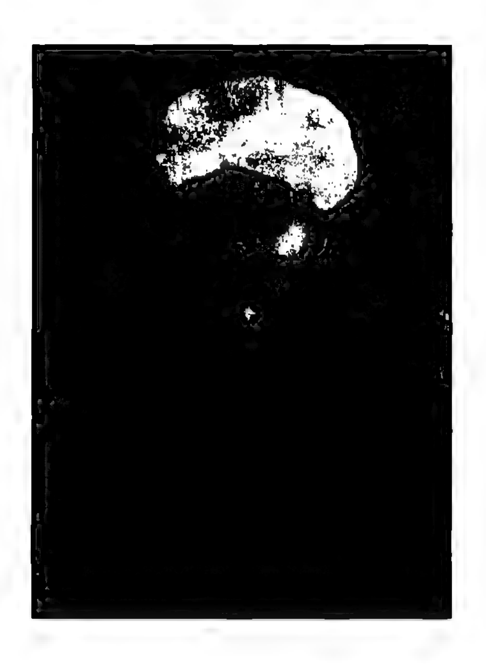
---

(١) السيّد أحمد خان بن محمد تقي خان البهادري (المولود ١٢٣٣هجريّة ـ ١٨١٧م والمتوفّى ١٣١٦هجريّة ـ ١٨٩٨م)، من رجال الإصلاح المحافظين في الهند، كان يتعاون مع الإنجليز في الهند وحين ثار الشعب الهنديّ للتخلّص من استعمار الإنجليز استطاع أحمد خان إخماد

في زمانه فوجدهم كما يقول الدكتور أحمد أمين يرزحون تحت وطأة الفقر والجهل والفقر والقلق، وكان رجال الدين فيهم لا يفهمون من الدين إلّا رسمه ويريدون أن يخضعوا العالم الواسع لعقليّتهم الضيّقة فحرَّموا المدارس الحديثة وكلّ ما جاءت به الحضارة الأوروبيّة من نظم، وقد أرسل الهندوس أبناءهم إلى تلك المدارس ونالوا الوظائف بينما بقي المسلمون في معزلٍ عن ذلك إذ هم لم يدخلوا المدارس الحكوميّة ولم يؤسّسوا مدارسَ خاصّةً بهم (أحمد أمين، المصدر السابق، ص١٢٥).

الثورة لصالح إنكلترا وتجاهل مصالح المسلمين، وعلى إثر خدماته عيّن له راتبٌ سنويٌّ من جانب الإنجليز ومنح لقب (السير)، وله آراءٌ وعقائد فيها شيءٌ من الإبداع، واتّسمت في الغالب بالبدعة، خاصّةً في تأويله للوحي والمعجزة والدّعاء وتساؤلاته التي طرحها عن مباني الإسلام في الكتاب والسّنة.

وكان أشدّ وأبرز معارضيه السيّد جمال الدين الذي اصطدم معه أثناء هجرته من مصر إلى الهند ووصفه بـ (الدهريّة)، وألّف كتابه في الردّ عليه باسم (النجيرية) الذي ترجمه إلى العربيّة تلميذه الشيخ محمد عبده بمساعدة عارف أبو تراب خادم السيّد جمال الدين تحت عنوان (الردّ على الدهريين) المطبوع. ومن مشاريع السيّد أحمد خان تأسيس جامع (عليكرة) على طراز الجامعات الأوروبيّة).



نهض السيّد أحمد خان يدعو المسلمين إلى تبنّي الحضارة الحديثة وعلومها، وكان من رأيه أنّ العلوم الحديثة لا تعارض في حقيقتها التعاليم الدينية (جرجي زيدان، المصدر السابق، ج٢ ص٦٥).

وفي عام ١٨٧٥م وضع في بلدة (عليكرة) بذرة مدرستها المشهورة ليجعل منها جامعةً إسلاميّةً تنشر الثقافة الحديثة بين المسلمين، وقد أحدثت حركة السيّد أحمد خان ضجّة كبرى في الهند، فكثر أتباعها كما هاج عليها رجال الدين والعامّة.

أطلق خصوم السيّد أحمد خان على حركته اسم (النيشرية) وهو نبز لها إذ هو مأخوذٌ من لفظة (الطبيعة) الإنكليزيّة، فقد اتّهمها الخصوم بأنّها تؤمن بالطبيعة وتنكر وجود الله، واتّهموها أيضاً بأنّها من صنع الإنكليز الكفّار الذين يريدون بها هدم الإسلام، وتعرّضت حياة السيّد أحمد خان للخطر من جرّاء هذه التهم التي ألصقت بحركته، فقد حاول

أحد العوام طعنه بخنجرٍ ذات مرّةٍ غير أنّه نجا بأعجوبةٍ، وظلّ ثابتاً جريئاً في دعوته لم يتزحزح عنها ولم يداج فيها (أحمد أمين، المصدر السابق، ص١٣١)..

وصل الأفغاني إلى الهند في الوقت الذي كان فيه الصراع على أشدّه بين أنصار السيّد أحمد خان وخصومه، وكان المتوقّع منه أن يقف إلى جانب السيّد أحمد خان لأنّه كان مثله يعتقد بأنّ العلوم الحديثة لا تعارض التعاليم الدينيّة، ولكنّه لم يفعل ذلك، بل فعل الضدّ منه، وقد ألّف كتابه (الردّ على الدهريين) لهذا الغرض فملأه بالتهجّم المقذع على السيّد أحمد خان وأنصاره وألصق بهم تهمة الإلحاد.

كان رأي الأفغاني في السيّد أحمد وأنصاره أنّهم يتظاهرون بمظهر الإسلام نفاقاً بينما هم يضمرون الحقد والغلّ، إذ هم باعوا أنفسهم للإنكليز فاتّخذهم هؤلاء أعواناً لكي يفسدوا بهم عقائد المسلمين ولكي يزيلوا منهم الاعتزاز بدينهم فتخمد حميّتهم ويتبدّد شملهم وبذلك تكون الغلبة للإنكليز عليهم.

ولم يقتصر الأفغاني بتهجّمه على أنصار السيّد أحمد خان فقط، بل تهجّم كذلك على جميع أصحاب المبادئ الحديثة كالداروينيين والاشتراكيين والشيوعيين، والملاحظ أنّه لم يكن موضوعيّاً في أسلوبه، بل جرى فيه على الطريقة التقليديّة التي لاحظناها في أسلوب آغا رضا الأصفهاني وأمثاله، حيث اعتمد فيه على الرنين اللفظي والمبالغة الخطابيّة، خذ مثلاً نقده لنظرية داروين فهو يقول فيه ما نصّه:

(... وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكرّ الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثاً، فإن سئل

داروين عن الأشجار القائمة في غابات الهند، والنباتات المتولّدة فيها من أزمانٍ بعيدةٍ لا يحدّدها التاريخ إلّا ظنّاً، وأصولها تضرب في بقعةٍ واحدةٍ، وفروعها تذهب في هواءٍ واحدٍ، وعروقها تسقى بماءٍ واحدٍ، فما السبب في اختلاف كلّ منها عن الآخر في بنيته وأشكال أوراقه، وطوله وقصره، وضخامته ورقته، وزهره وثمره، وطعمه ورائحته وعمره، فأيّ فاعلٍ خارجيٍّ أثّر فيها حتّى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء؟ أظنّ لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه..) (جمال الدين الأفغاني، الردّ على الدهريين، ترجمة محمد عبده، القاهرة، ١٩٤٧، ص٢٢).

وحين يتطرّق الأفغاني إلى الاشتراكيّة والشيوعيّة يحاول تفنيدهما بمثل هذا الأسلوب الذي حاول به تفنيد نظريّة داروين، فهو يقول عن الاشتراكيين والشيوعيين:

(... إنّهم زيّنوا ظواهرها بدعوى أنّهم سند الضعفاء والطالبون بحقوق المساكين والفقراء... إلّا أنّ غاية ما يطلبون إنّما هو رفع الامتيازات الإنسانيّة كافّةً، وإباحة الكلّ للكلّ، وإشراك الكلّ في الكلّ، وكم سفكوا من دماء، وكم هدموا من بناء، وكم خربوا

من عمران، وكم أثاروا من فتن، وكم أنهروا من فساد.

كلُّ ذلك سعياً في الوصول إلى هذه المطالب الخبيثة، وجميعهم على اتّفاق في أنّ جميع المشتهيات الموجودة على سطح الأرض منحةٌ من الطبيعة، وفيضٌ من فيوضها والأحياء في التمتّع بها سواءٌ، واختصاص فردٍ من الإنسان بشيءٍ منها دون سائر الأفراد بدعةٌ في شرع الطبيعة، سيئةٌ يجب محوها والإراحة منها...) (المصدر السابق، ص٦٧).

إنّ هذا الأسلوب الذي استعمله الأفغاني في النقد يشبه من بعض الوجوه أسلوب ذلك الأمّي الذي رسم شكل (الحيّة) وبارى به خصمه الذي كتب لفظ (الحيّة) بالحروف، فهو أقدر على الغلبة في نظر العامّة ولكنّه في الحقيقة كان زائفاً.

وهناك نقطةٌ أخرى جديرةٌ بالذكر هنا، وهي النقطة التي أثارها الباحث المصريّ أمين عزّ الدين، ففي رأي هذا الباحث أنّ الأفغاني كان غير موفّق في توقيت هجومه على الاشتراكيين والشيوعيين، وذلك للأسباب التالية:

أوّلاً: إنّ الأفغاني نشر كتابه وهجومه على الاشتراكيّة في أوج قيام الثورة العرابية التي كانت بحاجةٍ إلى دعم الاشتراكيين الأوروبيين لها وتأييدهم.

ثانياً: إنّ الأفغاني نشر هجومه في وقتٍ كان فيه الموقف المصريّ

شبيهاً بالموقف الفرنسيّ أثناء ثورة الكوميون، ففي كلا البلدين تجمّعت القوى الوطنيّة لمواجهة العدوّ الخارجيّ من جهةٍ والعدوّ الداخليّ المتمثّل في القوى الرجعيّة من الجهة الأخرى.

ثالثاً: إنّ الأفغاني نشر هجومه على الكوميونيين في الوقت الذي كانت فيه تتردّد دعايةٌ خبيثةٌ بأنّ عرابي وحركته لها صلاتٌ سرّيةٌ وعلنيّة بعناصر من كوميون باريس وبعض قادته الذين كانوا لاجئين في مصر (مجلّة الإذاعة والتلفزيون القاهرية، في عددها الصادر في ٨ أيّار ١٩٧١).

العروة الوثقى

خرج الأفغاني من الهند في ١٨٨٢م، وقيل إنّه ذهب إلى الولايات المتّحدة وبقي فيها بضعة أشهرٍ على أمل الحصول على الجنسيّة الأمريكيّة، ثمّ عاد إلى لندن في ربيع ١٨٨٣

.Edward Browne (The Persian Revolution) - Cambridge 1910 - P 401

ولم يمكث الأفغاني في لندن طويلاً بل غادرها إلى باريس واستقرّ فيها، والملاحظ أنّه بدأ في باريس يهاجم بريطانيا والاستعمار البريطاني في الشرق مهاجمةً عنيفةً.

استدعى الأفغاني إليه تلميذه الشيخ محمد عبده، وكان هذا منفياً في بيروت على أثر اشتراكه في الثورة العرابيّة، متعاون الرجلان على إصدار المجلّة التي اشتهر أمرها في العالم الإسلامي في حينه أي مجلّة (العروة الوثقى).

صدر العدد الأوّل من المجلّة في ١٣ آذار ١٨٨٤، وكان الشيخ محمد عبده هو الذي يحرّرها بقلمه بينما كانت أفكار المجلّة من نتاج الأفغاني.

وصارت المجلّة ترسل بالبريد إلى مختلف أقطار العالم الإسلاميّ، فكان النّاس يجتمعون لقراءتها، ويتهادونها فيما بينهم، ويتناقشون في

مواضيعها (قدري قلعجي، المصدر السابق، ص٦٥).

وصل تأثيرها إلى العراق، ويقال إنّ السيّد سلمان الكيلاني كان من المشتركين فيها ببغداد فكان كلّما جاء إليه عددٌ منها واطّلع عليه قال:

(يوشك أن تقع ثورةٌ من تأثير هذه الجريدة قبل أن يجيء العدد الذي بعد هذا)
(عبد المنعم شميس، سفير الله، القاهرة، ١٩٦٩، ص٦٥).

وأخذت الصحف الطهرانيّة تترجم بعض مقالات المجلّة إلى اللغة الفارسيّة وتنشرها (لطف الله خان، المصدر السابق، ص٣٠).

وممّا يلفت النظر أنّ المجلّة في الوقت الذي كانت فيه تركّز هجومها على الاستعمار البريطاني تكاد تخلو من ذكر الاستعمار الفرنسيّ والهولنديّ والروسيّ (ألبرت حوراني، الفكر العربيّ في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، بيروت، ص١٤٣)، مع العلم أنّ الكثير من المسلمين كانوا يرزحون تحت وطأة استعمار تلك الدول، فما هو السبب في ذلك؟! الله أعلم!

وكانت بريطانيا تنظر إلى مجلّة (العروة الوثقى) نظرة عداءٍ وخشيةٍ، وعملت على منع دخولها في البلاد الإسلاميّة الواقعة تحت سيطرتها، ففي (صورة) مصر مثلاً نشرت الجريدة الرسميّة إنذاراً بأنّ كلّ من توجد عنده المجلّة يغرم مبلغاً يتراوح بين خمسة جنيهات وخمسة وعشرين جنيهاً، وعندما وصل خبر ذلك إلى الأفغاني بباريس نشر في المجلّة مقالاً تهجّم به على الإنكليز تهجّماً مقذعاً (محمد سلام مدكور، جمال الدين الأفغاني، القاهرة، ١٩٣٧. ص١٥٠. ١٥١).

صدر من مجلّة (العروة الوثقى) ثمانية عشر عدداً، ثمّ توقّفت عن

الصدور، والمظنون أنّ من أسباب توقّفها ما وقع من خلافٍ بين الأفغانيّ والشيخ محمد عبده حول توجيه سياستها، فقد بدأ الشيخ محمد عبده يسأم من الاشتغال بالسياسة ويميل إلى مثل منهج السيّد أحمد خان في مهادنة الاستعمار البريطانيّ والاتجاه نحو إصلاح النّاس عن طريق التعليم والتهذيب، وقد عرض الشيخ محمد عبده رأيه على الأفغانيّ محاولاً إقناعه به، فلم ينجح في ذلك، وكان ردّ الأفغاني عليه: (إنّما أنت مثبطٌ! وقد شرعنا في هذا العمل، ولابدّ لنا من المضي فيه ما دمنا نرى له منفذاً) (محمود قاسم، المصدر السابق، ص٥٦ـ ٦٦)، وقد غادر محمد عبده باريس حيث عاد إلى بيروت.

ذهابه إلى لندن

كان للأفغاني صديقٌ بريطانيٌّ اسمه ويلفرد سكاون بلنت، وكان هذا الرجل أرستقراطيّاً ثريّاً يحبّ العرب والشرق، ويعطف على الثورات الوطنيّة التي قامت في الهند وآيرلندا ومصر.

وفي عام ١٨٨٥م استطاع بلنت أن يقنع اللورد راندولف تشرتشل الذي تولّى يومذاك وزارة شؤون الهند بفائدة استدعاء الأفغاني إلى لندن للتفاهم معه.

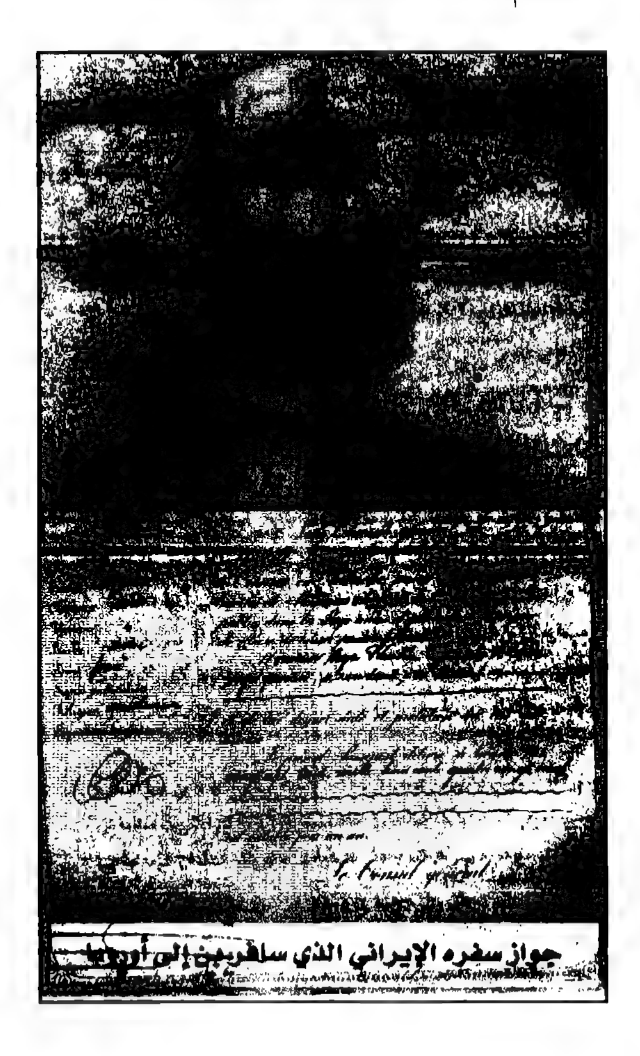
كان بلنت يعتقد أنّ الأفغاني وإن كان خصماً لدوداً للاستعمار البريطاني غير أنّه في خصومته ليس ذا تعصّبٍ أعمى وأنّه يرحّب بأيّ اتّفاق شريفٍ مع بريطانيا إذا كان ذلك ممكناً

.(Edward Browne (op. elt) - P. 402)

وقد كتب بلنت إلى الأفغاني يدعوه لزيارة لندن، فلبّى الأفغاني الدعوة ونزل في ضيافة بلنت ثلاثة أشهر، والتقى هناك باللورد تشرتشل وغيره من كبار الساسة البريطانيين.

يبدو أنّ الأفغاني أثناء مكوثه في ضيافة بلنت قد غيّر رأيه تجاه بريطانيا، فهو أصبح يعتقد كما يروي عنه بلنت أنّ في روسيا خطراً على

العالم الإسلاميّ أشدّ من خطر بريطانيا، وهو يرغب في تحقيق تقاربٍ بين بريطانيا والإسلام *(Albert Hourani (op. cit) - P. 111)*.



جواز سفره الإيراني الذي سافر به إلى أوروبا

ومهما يكن الحال فقد قرّرت الحكومة البريطانيّة أن يذهب الأفغاني مع السير هنري دراموند ولف في بعثةٍ خاصّةٍ إلى اسطنبول لمفاوضة السلطان عبد الحميد من أجل عقد حلفٍ ضدّ روسيا مؤلّفٌ من بريطانيا وتركيا وإيران وأفغانستان، وقد تمّ الاستعداد لسفر البعثة، واشتريت بطاقة القطار للأفغاني، غير أنّ ولف رفض في اللحظة الأخيرة أن يأخذ

الأفغاني معه في البعثة، وقد انزعج الأفغاني من ذلك وحنق حنقاً شديداً
.(Edward Browne (op. cit) - P. 403)

وحدث بعدئذٍ حادثٌ آخر زاد من حنق الأفغاني، خلاصته: أنّ اثنين من أصدقاء الأفغاني تخاصما بحضوره في منزل بلنت، وضرب أحدهما الآخر بالمظلّة على رأسه، فطلب بلنت منهما أن يخرجا من منزله، فلمّا خرج الرجلان من المنزل خرج الأفغاني وراءهما، وعند هذا طلب بلنت من الأفغاني أن يجد له منزلاً آخر *(Albert Hourani (op. cit) - P. 111).*

إنّ بلنت بعبارةٍ أخرى طرد الأفغاني من منزله.

ظلّ الأفغاني يتسكّع في لندن بضعة أسابيع، ثمّ استقرّ رأيه أخيراً أن يذهب إلى روسيا ليعمل على عقد حلفٍ بين تركيا وروسيا ضدّ بريطانيا
.(Edward Browne (op. cit) - P. 408)

ذهابه إلى إيران

بينما كان الأفغاني في لندن يتأهّب للسفر إلى روسيا وردت إليه (صورة) برقيّةٌ من الشاه ناصر الدين[1] تدعوه لزيارة طهران، فلبّى الأفغاني الدعوة ولعلّه اعتزم الذهاب إلى روسيا من بعد انتهاء زيارته لطهران.

غادر الأفغاني بريطانيا عن طريق البحر، فوصل إلى بوشهر في ٢٠ أيّار ١٨٨٦، وبعد أن مكث فيها أيّاماً سافر إلى أصفهان.

وكان الحاكم العامّ في أصفهان يومذاك الأمير مسعود مرزا ابن الشاه ناصر الدين وهو الملقّب بـ (ظلّ السلطان)، والمعروف عن هذا الأمير أنّه كان شديد الطموح يتوق للعرش وقد كوّن لنفسه جيشاً خاصّاً به وجمع حوله الأنصار والدعاة ***(Ibid - P 74. 88. 331)***.

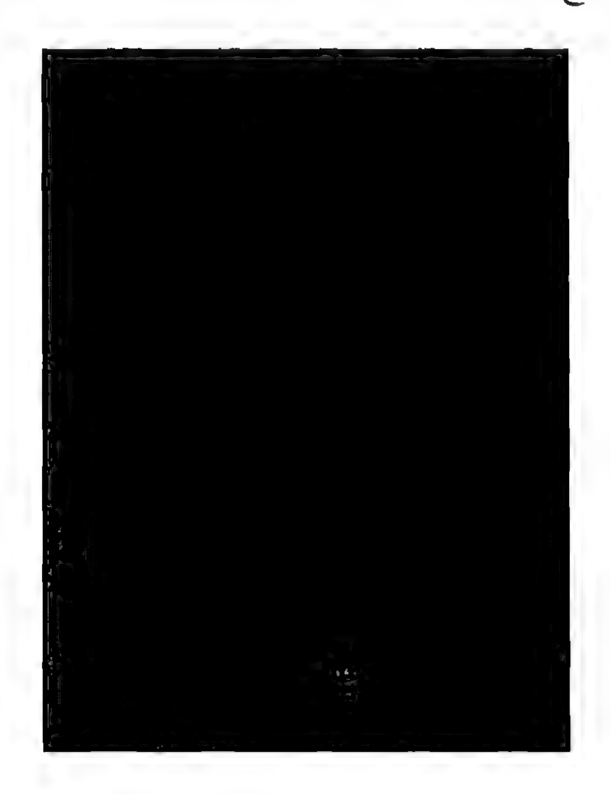
وحين وصل الأفغاني إلى أصفهان أبرق الأمير مسعود ميرزا إلى

---

(١) ناصر الدين الشاه القاجاري رابع ملوك إيران من سلسلة القاجارية. ولد في سنة ١٢٤٧هجريّة، ثمّ اعتلى عرش إيران في سنة ١٢٦٤هجريّة، وقتله الميرزا رضا الكرماني بفتوى من السيّد جمال الدين الأفغاني في سنة ١٣١٣هجريّة، وكان عياشاً سكّيراً سفّاكاً. وحين وصوله إلى الحكم قتل مشاوره ورئيس وزرائه المصلح الكبير الميرزا محمد تقي خان المعروف بالأمير الكبير وكان من أشهر وأبرز الزعماء السياسيين في العصر القاجاري، ثمّ قتل قرّة العين وجمع كثيراً من رجال الإصلاح وممّن لم يرغب بهم تحت تهمة البابيّة.

طهران راجياً السماح للأفغاني بالبقاء في ضيافته برهةً من الزمن.

وقد مكث الأفغاني في أصفهان شهراً ونصف شهر، وجرت بينه وبين الأمير محادثاتٌ لا نعرف عنها شيئاً، غير أنّنا نعرف أنّ الأمير تعهّد للأفغاني بجميع نفقات سفرته المقبلة إلى روسيا.



ثم سافر الأفغاني بعد هذا إلى طهران، فوصلها في شهر آب ١٨٨٦، ونزل في ضيافة الحاجّ محمد حسن كومباني أمين دار الضرب، وقد التقى هنالك بابن أخته الميرزا لطف الله خان، ويقول الشيخ مصطفى عبد الرازق عن الأفغاني في طهران: (فنال مكانةً ساميةً وتزاحم حوله الأمراء والمجتهدون والكبراء وتمكّن من نظم كثيرٍ منهم في سلك الماسونية) [(مصطفى عبد الرزاق، (جمال الدين الأفغاني) في مقدّمة كتاب (العروة الوثقى) ـ بيروت، ١٩٧٠، ص٢٥)].

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أنّ الأفغاني كان منذ وطئت قدماه أرض إيران قد خلع زيّه الأفغاني الذي اشتهر به في تركيا ومصر، وتزيا بزيّ سيّد من علماء الشيعة حيث وضع العمامة السوداء على رأسه، والعباءة على كتفيه، والمداس الأصفر في قدميه، ولقّب نفسه بـ (الحسيني)[1] إشارةً إلى أنّه من سلالة الإمام الحسين بن علي.

ومن ينظر إلى الصورة الفوتوغرافيّة التي أخذت له مع ابن أخته في طهران وهو جالسٌ بين اثنين (صورة) من رجال الدين يكاد لا يميّزه عنهما

(١) بدون شكّ كن للسيّد جمال الدين أمنيةٌ ساميةٌ إذ لم تكن تهمه الألقاب أو الانتماء إلى أيّ قطر من الأقطار الإسلاميّة إلّا أنّ هناك بعض السذج من الكتاب المتعصبين يستندون إلى كلمة الأفغاني ويتخيّلون أنّه كان حقّاً أفغانيّاً، لذا نرى أن نذكر هنا بعض انتماءاته التي كان يلقّب نفسه بها حسب الظروف ومحلّ سكناه بتغيّر لقبه على ما كتبه بخطّه، وجاء في الوثائق المحفوظة في مكتبة مجلس الشورى بطهران للفائدة ولمن يريد الحقيقة وهي كما يلي:

١ـ جمال
٢ـ جمال الدين
٣ـ جمال الدين الاستنبولي
٤ـ جمال الدين الحسيني
٥ـ جمال الدين الحسيني عبد الله بن عبد الله
٦ـ جمال الدين الحسيني الاستنبولي عبد الله
٧ـ جمال الدين الحسيني الأفغاني الكابلي
٨ـ جمال الدين الحسيني الأفغاني
٩ـ جمال الدين الحسيني رومي
١٠ـ جمال الدين الطوسي
١١ـ جمال الدين الحسيني الكابلي
١٢ـ جمال الدين السعد آبادي
١٣ـ رومي (اسمٌ مستعارٌ في الشعر) ويقال بالفاراسيّة (تخلص)

انظر التفصيل أصغر مهدوي وإيرج أفشار، مجموعة اسناد ومدارك، ص١٢ و١٣ و١٥٨، طهران، منشورات جامعة طهران، سنة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م.

بشيءٍ.

قابل الأفغاني الشاه غير مرّة، وقد ذكر الميرزا لطف الله خان شيئاً من المحاورة التي جرت بين الأفغاني والشاه عند التقائهما للمرّة الأولى ننقلها فيما يلي:



قال الشاه مخاطباً الأفغاني:

(إنّي مسرورٌ بقبولك الدعوة وتجشّمك متاعب السفر إلى إيران، كما أنّي مسرورٌ بلقائك، وإنّي أعترف بشأنك بأيّ صورةٍ تكون فيها، كما أنّي أستطيع أن أفخر على الملوك بقيام فيلسوفٍ مثلك في بلاد إيران استفادوا بنتيجة علمه وفضله وحكمته في البلاد الأجنبيّة الأخرى، وإنّ علماء الأجانب وفضلاءهم يعترفون بفضلك وعلمك ومقامك، وإنّي مطّلعٌ على تلك الخدمات التي قمت بها نحو الإسلام والمسلمين في مصر والهند وأفغانستان وتركيا والأقطار الأوروبيّة، والعجب من أنّك بمفردك تستطيع

القيام بكلّ هذه الأعمال العظيمة، ويؤسفني أن تستفيد الشعوب الأجنبيّة من ثمرات أعمالك ويبقى بنو وطنك محرومين منها، فقل لي ما الذي يجب أن نعمله لتعمير إيران ورقّيها، وما هي أنجع الوسائل التي نُرقِّي بها في إيران؟!).

فأجابه الأفغاني قائلاً:

(أستطيع أن أفخر بنفسي بأن أرى عاهل إيران قد استيقظ من سباته العميق وأخذ يفكّر في تعمير البلاد ورقّيها ويثق بي.

نعم إنّني إيرانيٌّ أسد آبادي، وإنّ كافّة العلوم بحمد الله مخزونةٌ في صدري، فلا تنظر إلى وحدتي وصغر جسمي، فإنّي أستطيع أن أطمس جبل دماوند هذا بقبضة يدي الصغيرة، فأينما كنت وأكون لا أبغي إلّا حفظ الجامعة الإسلاميّة ورقي المسلمين واستقلال بلادهم، فبقدر ما أشعر بالنوايا السلطانيّة الخيريّة أبذل ما استطعت الجهد لمؤازرتها وتنفيذها.

إنّ خراب إيران وذلّ وشقاء الإيرانيين التعساء تعود إلى الذات السلطانيّة نفسها).

ثمّ أخذ الأفغاني يظهر للشاه عيوبه ومنها أنّه يملك ثمانين زوجةً ولكلّ زوجةٍ كثيرٌ من الخدم حيث ينفق عليهم ما يعادل نفقات المملكة.

فتأثّر الشاه بكلام الأفغاني كلّ التأثر حسب رواية ابن أخته المرزا لطف الله وتقبّل المقترحات الإصلاحيّة التي قدّمها له وتعهّد بتحقيقها، ثمّ عرض عليه بعدئذٍ منصب رئاسة الوزارة ورئاسة دار الشورى، ولكنّ الأفغاني رفض ذلك وقال: (إنّي لم أطلب ولن أطلب الرئاسة في الدّنيا أبداً ولا أبغي ولم أكن أبغي غير تربية المسلمين ورقّي الوطن، ولا أقول إلّا ما أراه لازماً وجديراً، فلينظر الشاه وعقلاء البلاد إلى ما أقترحه بنظرةٍ

صائبةٍ ودقيقةٍ ثمّ يقرّوا كلّ ما يجدوه صالحاً ويأمروا بتنفيذه).

فوافق الشاه على ما قاله الأفغاني وأمر بأن يجتمع الوزراء والرؤساء والأعيان والتّجار به ويدوّنوا قانوناً خاصّاً بذلك للعمل به (لطف الله خان، المصدر السابق، ص٨٠ ـ ٨٢).

الواقع، إنّ هذه المحاورة بين الشاه والأفغاني حسبما رواها الميرزا لطف الله خان يصعب علينا تصديقها لما فيها من مبالغاتٍ ومثاليّاتٍ تزيد عن الحدّ المعقول.

ويخيّل لي أنّ المرزا لطف الله إنّما نقلها عن لسان خاله الأفغاني وأنّ الأفغاني حين تحدّث بها إليه كان فرحاً بنفسه فأراد أن يتباهى أمام ابن أخته بجرأته على الشاه فأخذ يطنب في حديثه ويبالغ ويجعل من الحبّة قبّةً كما هو شأن المتحدّثين عن أنفسهم في كثيرٍ من الأحيان.

ذهابه إلى روسيا

بعد أن مكث الأفغاني في طهران أربعة أشهرٍ وبضعة أيام استأذن من الشاه بالسفر فجاء إليه الإذن من الشاه على شكل رسالةٍ خاصّةٍ هذا نصّها:

(جناب السيّد جمال الدين إنّ غايتنا تحقّقت من لقائكم، والآن وأنتم تنوون السفر إلى أوربا أرى أنّ ذلك خيرٌ ولكي تتذكّروا ذاتنا العظيمة دائماً فقد أرسلت إليكم علبة ألماسيّة للسعوط، ونحن أنفسنا لن ننساكم أبداً).

ولم يكتف الشاه بذلك، بل أرسل الصدر الأعظم الميرزا علي أصغر خان[1] ليحمل إلى الأفغاني الرسالة مع علبة السعوط، وقد أهدى الصدر الأعظم إلى الأفغاني من عنده خاتماً من الماس مع مبلغٍ من المال قدره ألف تومان، فردّ الأفغاني المبلغ وأخذ الخاتم مع علبة السعوط (المصدر السابق، ص٨٣ ٨٤).

عند وصول الأفغاني إلى بطرسبرغ كان يسكن فيها رجلٌ إيرانيٌّ اسمه

(١) علي أصغر خان بن آقا إبراهيم (١٢٧٥ ـ ١٣٢٥هجريّة) الملقّب بأمين السلطان وأتابك أعظم انتخب وزيرا للبلاط ثمّ رئيساً للوزراء في سنة ١٣٠٠هجريّة في عصر ناصر الدين شاه وابنه مظفّر الدين شاه القاجاري، وكان قويّ الذكاء فطناً، تمكّن من التقرّب إلى الشاه وجلب اعتماده. قتل برصاص شابٍّ من أهالي أذربيجان أثناء خروجه من البرلمان في طهران.

السيّد حسين خان عدالت التبريزي، وقد صار هذا الرجل صديقاً للأفغاني وموضع سرّه، ثمّ كتب بعدئذٍ مقالاً عنه ننقل جزءاً منه فيما يلي:



(قدم السيّد جمال الدين سنة ١٣٠٤ هجريّة إلى بطرسبرغ (لنينجراد) وكان غالبيّة الإيرانيين يزورونه لما له من الشهرة.

وتعرّفتُ به أثناء زيارتي له، وسرعان ما تحوّلت تلك المعرفة إلى صداقةٍ قويّةٍ، ولعلّ السبب المهمّ الذي جعله يرغب في صداقتي هو أنّ السيّد كان شديد الميل إلى أن لا يتدخل الآخرون في سلوكه ومقاصده.

وأمّا أنا فقد كنت أسير حسب رغبته، وفضلاً عن ذلك فإنّه لم يكن يعرف اللغة الروسيّة وكان في حاجةٍ إلى من يترجم له، فكنت أقضي كلّ أوقات فراغي في حضرته، وبلغ انسجامه معي إلى درجة أنّه كان يشرح

لي كلّ أفكاره وعقائده وأهدافه... وكان كلّ غرضه في بادئ الأمر هو إنقاذ الهند من براثن الإنجليز، وقد أصدر لهذا الغرض جريدة (العروة الوثقى) في باريس.. وبعد أن تعطّلت (العروة الوثقى) اعتزم السيّد جمال الدين السفر إلى بطرسبورغ.. وقد بدأت صداقة السيّد مع (كاتكوف) الذي كان من الصحفيين البارزين، والصديق الحميم لإمبراطور روسيا إبان إقامته في باريس.

وكانت دعوة (كاتكوف) هذه من الأسباب القويّة لسفر السيّد إلى روسيا، ولكنّ المنيّة عاجلت (كاتكوف) حينما وصل السيّد إلى بلاد الروس، فاضطرّ إلى العمل وحده في المشروع الذي كان ينوي القيام به هنالك.. وكان أساس خطّته الأصليّة إعداد العدّة لتوحيد البلاد الإسلاميّة وتخليصها من ربقة الاستعمار البريطاني.

وهذا هو السبب لعداء الإنجليز الدائم نحوه، حتّى أنّهم لم يغفلوا لحظةً واحدةً عن مراقبة أعماله في بطرسبرغ.

فكان السيّد في هذه الظروف يعمل على تهيئة الوسائل لإثارة الحرب بين الرّوس والإنجليز حتى تتهيّأ الفرصة له للقيام بمهمّته، ولكنّ الروس كانوا غير راغبين في خوض معركةٍ أخرى لأنّهم كانوا قد انتهوا وشيكاً من حربهم مع العثمانيين فكانت حالتهم الماليّة في اضطرابٍ شديدٍ.

وقد تقابل السيّد جمال الدين عدّة مرّات مع (زنويف) مدير وزارة الخارجيّة الروسيّة، ولكنّ المدير المذكور لم يبد أيّة مساعدةٍ للأخذ بآرائه.

وهذا نصّ عبارة السيّد جمال الدين عند مقابلته لزنويف: (كلّما أرميه إلى الهواء يقع كالقطّة فوق الأرض أي على يديه ورجليه).

ثمّ إنّه أراد أن يقابل الإمبراطور بصورةٍ رسميّةٍ... ولكنّ الإمبراطور لم

يوافقه على ذلك ورأى أن تكون المقابلة بصورةٍ سرّيةٍ، ولذلك لم تتسنّ له إلّا مقابلة الملكة، لأنّ مقابلة الإمبراطور السريّة كانت بلا جدوى.

فيئس السيّد جمال الدين من تنفيذ خطّته في روسيا، وفي أثناء هذه الأحوال اختلّت شؤون الأمير (ظلّ السلطان) ولم يستطع نتيجة ذلك أن يمدّ السيّد بالمال، فأخذ نشاط السيّد بالفتور تدريجيّاً...) (المصدر السابق، ص١٥١ـ ١٥٦).



غادر الأفغاني روسيا في عام ١٨٨٩م فقصد باريس لزيارة معرضها الدولي، وصادف أن كان الشاه ناصر الدين يقصد باريس في ذلك الحين أيضاً، فالتقى الرجلان في مدينة فينا.

كان الشاه قبل هذا قد عقد اتّفاقاً مع الإنكليز سمح فيه لسفنهم بالملاحة في نهر كارون[1] كما منح لرجلٍ منهم امتيازاً بإنشاء بنك بريطاني

(١) نهر كارون أو شطّ كارون: يبدأ من جبل (زردكوه) البختيارية ثمّ يدخل من جهة الجنوب في

في إيران باسم (البنك الشاهنشاهي).

وقد أثار ذلك حنق روسيا واستيائها الشديد، والظاهر أنّ الشاه كان في حاجةٍ إلى رجلٍ يبعثه إلى روسيا لتهدئة المسؤولين فيها، وقد وجد هذا الرجل في شخص السيّد جمال الدين الأفغاني.

يصف الميرزا لطف الله خان ما حدث بين الشاه والأفغاني عند التقائهما في فينا ثمّ يقول: (أمر الشاه أحد حاشيته قائلاً له: مدّ يد العهد وتصافح مع السيّد من قبلي، ولكنّ ذلك السيّد العظيم رفض المصافحة مع الرجل قائلاً له: إنّ يد مثلك لا تليق أن تتصافح معي، لأنّ يدي حرية بأن يصافحها الشاه، ولا يحقّ ليدٍ أن تعاهدني إلّا يد السلطان نفسه.

فقدّم ناصر الدين شاه يده بنفسه إلى السيّد، وأخذ بيد السيّد وأعطاه عهداً أكيداً من كلّ ناحيةٍ، ثمّ ألقى كلّ منهما كلمةً في لزوم مراعاة العهد وتوثيقه...) (المصدر السابق، ص٨٥ ٨٦).

وسافر الأفغاني إلى روسيا حيث قابل المسؤولين فيها وقام بالمهمّة التي كلّفه الشاه بها، ثمّ عاد من هناك إلى إيران، فوصل طهران في أواخر ١٨٨٩م، وكان الشاه وصلها أيضاً فنال الأفغاني حظوةً لديه كالتي نالها في زيارته الأولى.

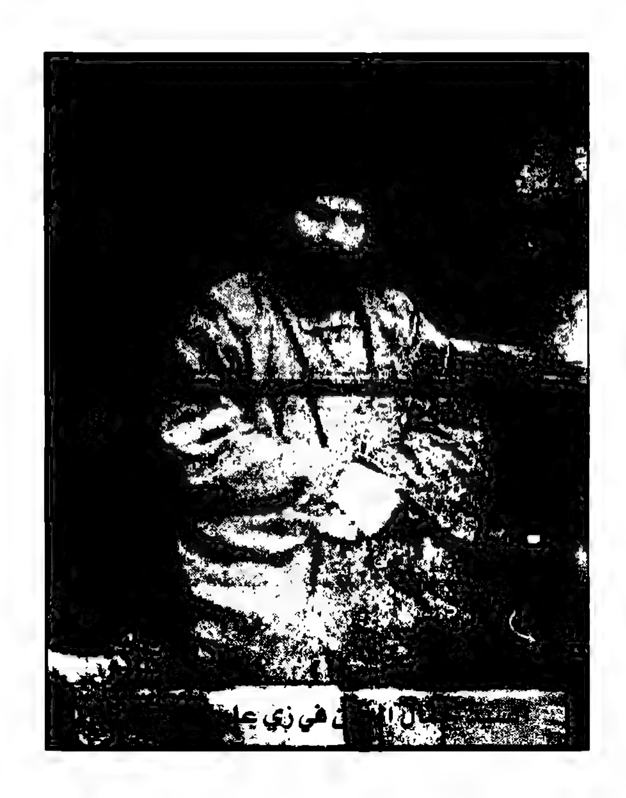
مدينة شوشتر وعند وصوله إلى شمال المدينة يتفرّع إلى فرعين يمرّ أحدهما من جهة شرق شوشتر ويعرف باسم نهر كارون، وأمّا الفرع الثاني الذي حفره الإيرانيون أيّام الإمبراطوريّة الساسانيّة فيمرّ من جهة غرب المدينة ويسمّى بنهر شطيط، ثمّ على بعد كيلو مترين غرب (بندقير) يصبّ في نهر كارون الأمّ ويشكّلون شطّ كارون الكبير الذي يمرّ بمدينة الأهواز ثمّ مدينة خرمشهر وبعدئذ يصبّ في شطّ العرب وهو أكبر ممرّ مائي بعد شطّ العرب في إيران وقابل لملاحة السفن فيها.

إبعاده من إيران

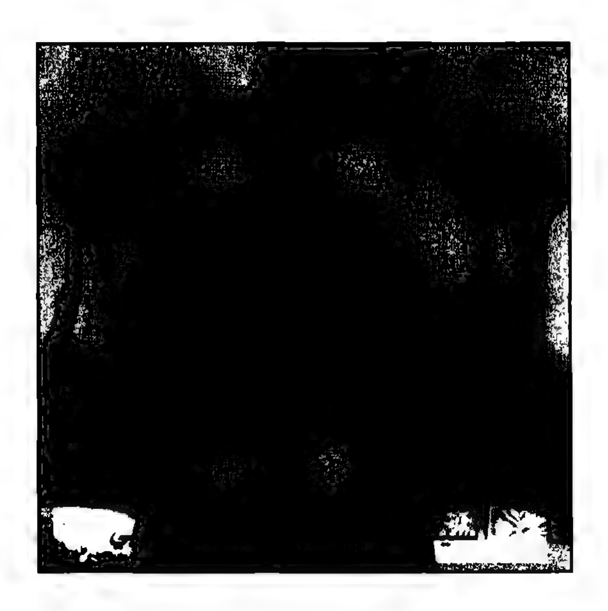
لم يمض على الأفغاني في طهران سوى مدّةٍ قصيرةٍ حتى بدأ النفور يظهر بينه وبين الشاه، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ فليس في مقدور الشاه أن يتحمّل رجلاً فخوراً كالأفغاني، كما ليس في مقدور الأفغاني أن يتحمّل ملكاً مستبدّاً كالشاه ناصر الدين، وسرعان ما استفحلت الكراهيّة بينهما وأخذ الأفغاني على عادته يطلق لسانه في الشاه ويتحدّث عن مثالبه وإسرافه.

يدّعي الأفغاني أنّ السبب الذي أدّى إلى نشوء النفور بينه وبين الشاه هو أنّه كان يدعو إلى إقامة الدستور في إيران، وقد استنكر الشاه منه ذلك وقال له: (أيصحّ أن أكون يا حضرة السيّد وأنا ملك الملوك كأحد أفراد الفلاحين؟!) (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص٣١ـ ٣٢).

ويبدو لي أنّ هذا الخلاف في الرأي بين الرجلين كان نتيجةً للنفور بينهما وليس سبباً له، فقد رأينا الأفغاني حين عاش في كنف السلطان عبد الحميد بعد ذلك لم يدع إلى إقامة الدستور في تركيا، بل أيّد السلطان على استبداده ومدحه كثيراً، وهذا يدلّ على أنّ الأفغاني إنّما دعا إلى إقامة الدستور في إيران تحدّياً للشاه ونكايةً به، ولو أنّه كان على علاقةٍ حسنةٍ معه لفعل كما فعل مع السلطان عبد الحميد.









ومهما يكن الحال فقد أخذ الأفغاني يجهر بنقد الشاه ويثير الشعب عليه، وقابله أعوان الشاه بالمثل فصاروا يبثّون حوله الإشاعات القبيحة، فتارةً يتّهمونه بأنّه (بابي) وتارةً أخرى يتّهمونه بأنّه (غير مختون).

فكان الأفغاني أينما سار يسمع من أفواه بعض العامّة لعناتٍ غير مباشرةٍ توجّه إليه كقولهم (ألا لعنة الله على البابيّة وأعداء الشاه!) (لطف الله خان، المصدر السابق، ص٨٩ ـ ٩٠).

أدرك الأفغاني أخيراً أنّ بقاءه في طهران لا يدعو إلى الطمأنينة، فذهب إلى بلدة (الشاه عبد العظيم)[1] التي تقع على بعد بضعة أميالٍ من جنوب طهران، والتجأ إلى المرقد المقدّس فيها، وهناك أعلن عداءه الصريح للشاه وحكومته، وأخذ يخطب في أهل البلدة والزوّار الذين يفدون إلى المرقد ذاكراً لهم المظالم التي تحلّ بهم ومظاهر التفسّخ المحيطة بهم، ويحرّضهم على الثورة.

وصار الكثير من الناقمين على الحكومة يأتون إليه ملتجئين معه إلى المرقد المقدّس، فكان ذلك بمثابة تجمّع ثوري خطر ضدّ الشاه، وظلّ الأفغاني على تلك الحالة زهاء سبعة أشهر.

نفد صبر الشاه فأوعز إلى الصدر الأعظم بأن يتخلّص من الأفغاني بأيّة صورةٍ، وفي أوائل ١٨٩١م جاء إلى بلدة (الشاه عبد العظيم) جلواز معروفٌ بالغلظة اسمه (آغا بالاخان سردار)، واستعان هذا بستّة رجالٍ من أهل البلدة، فأمسكوا بالأفغاني وأخذوه قهراً، وقيل إنّ عمامته سقطت من على رأسه أثناء الإمساك به ومزّقت ثيابه الداخليّة.

ولم يهبّ لنجدته سوى رجلٌ واحدٌ هو الميرزا محمد رضا الكرماني فقد أخذ يصرخ وينادي (واشريعتاه!) لكي يثير النّاس فلم ينفعه ذلك

(١) وهو ضريح عبد العظيم الحسني (المعروف بشاه عبد العظيم) ابن عبد الله بن علي بن الحسن بن زيد بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) المتوفّى في الرّي سنة ٢٥٢ هجريّة ومرقدهُ مزارٌ معروفٌ لدى الشيعة في العالم يتبرّك به وله مشهدٌ مجلّلٌ وضخمٌ زيّن بأنواع الزخرف، وصحنٌ عامرٌ ويهوى مرقده الزائرون والوفود من مختلف الأقطار الإسلاميّة ويقصدونه لقضاء الحوائج وكشف الملمّات.

شيئاً (المصدر السابق، ص٩٢ـ ٩٣).

سيق الأفغاني عن طريق قم وكرمانشاه إلى الحدود العراقيّة، وكان الفصل شتاء قارس البرد فلقي الأفغاني في سفره عنتاً شديداً واعتلّ بدنه إذ كانت الدوّاب وسيلة السفر، وقد تسلّمته الشرطة العراقيّة عند الحدود فجاءت به إلى بغداد.

حياته في العراق

نزل الأفغاني عند وصوله إلى بغداد في خان عبد الصمد الأصفهاني الواقع قرب سوق الصفارين، والمظنون أنّه في موضع بناية المصرف المركزي الحاليّة.

وقد مكث الأفغاني في بغداد ثلاثة أشهر تقريباً قابل فيها والي بغداد سري باشا والنقيب السيّد سلمان الكيلاني وغيرهما.

روى لي أحد المسنين من البغادة أنّ الوالي عند التقائه بالأفغاني سأله: هل أنت سنّي أم شيعيّ؟

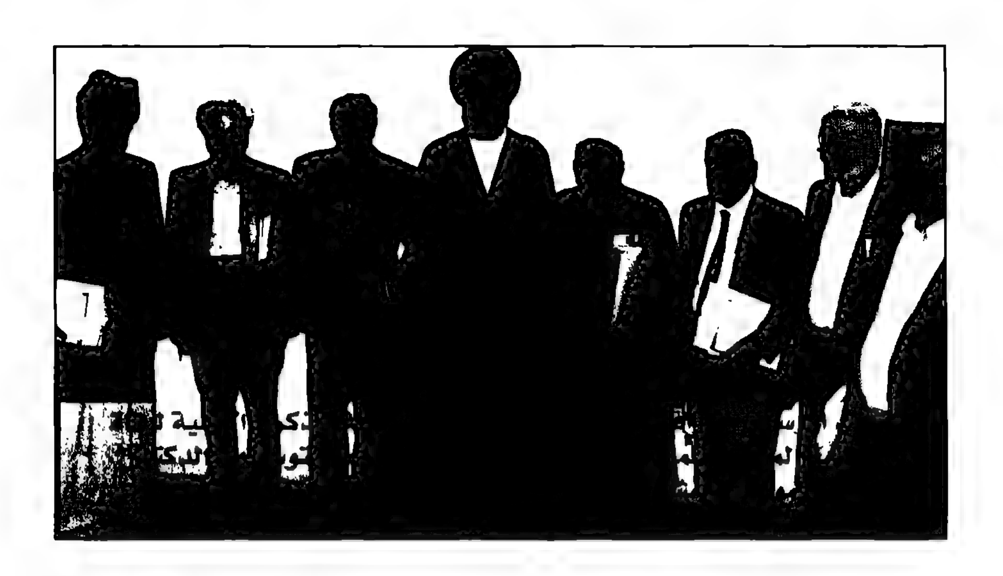
فأدار الأفغاني وجهه تغاضياً عن الجواب.

ومن الطريف أن نذكر أنّ الأفغاني أثناء مكوثه في بغداد نسخ بخطّ يده رسالةً صغيرةً في الكيمياء القديمة، ولا تزال هذه الرسالة محفوظةً في المتحف الخاصّ به في طهران، وقد كتب الأفغاني في آخرها هذه العبارة: (كتبته بيدي في دار السلام البغداد وأنا الغريب في البلدان الطريد عن الأوطان جمال الدين الحسيني الاستنبولي)، ثمّ أعاد الأفغاني النظر في العبارة فشطب بالقلم الأحمر فوق كلمتي (البغداد) و(الاستنبولي)، وكتب فوق الكلمة الأولى (الشريف)، وفوق الثانية (الكابلي) (أصغر

مهدوي وإيرج أفشار، المصدر السابق، ص١٥).

ولا نعلم السبب الذي دفعه إلى ذلك.

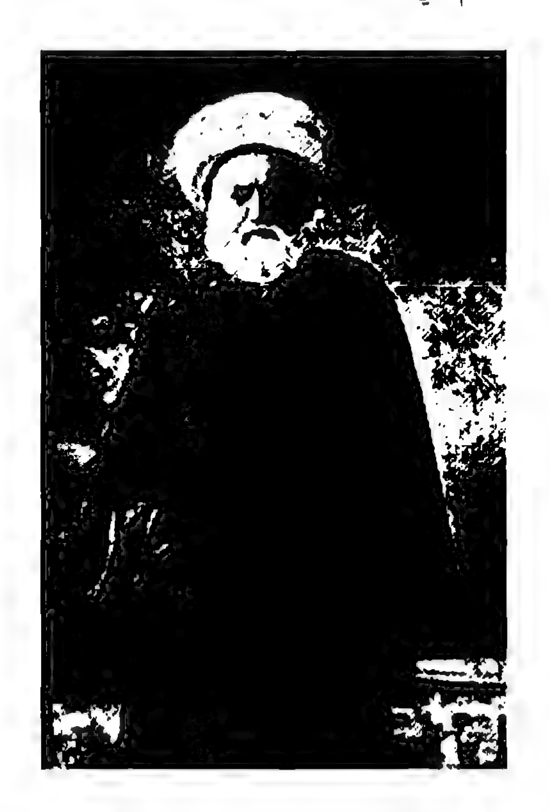




كانت الحكومة الإيرانيّة قد طلبت من الوالي سري باشا أن يمنع الأفغاني من الذهاب إلى العتبات المقدّسة لكي لا يتّصل بعلماء الشيعة فيثيرهم على الشاه، ويزعم الدكتور مهدي البصير أنّ الوالي ضيّق على

الأفغاني وراقبه مراقبةً شديدةً بناءً على الأوامر التي تلقّاها من السلطان عبد الحميد (عبد المحسن القصّاب، ذكرى الأفغاني في العراق، بغداد، ١٩٤٥، ص٨٥).

هذا ولكنّ القرائن تشير إلى خلاف ذلك، فقد تواترت الروايات على أنّ الأفغاني زار الكاظميّة والنجف متنكّراً، والمظنون أنّ الوالي سمح له بذلك بشرط أن يتكتّم في جولاته فلا يعرف الجمهور عنه شيئاً.



زار الأفغاني الكاظميّة ومكث فيها أيّاماً في دار الملا أحمد اليزدي واتصل به في تلك الدار جماعةٌ كان منهم الحاجّ علي أوف التبريزي، والحاجّ علي مطلب، والحاج علي أكبر الأهرابي، فكانوا يجتمعون به سرّاً في سردابٍ تحت الأرض (حسين علي محفوظ، عراقيات الكاظمي،

بغداد، ١٩٦٠، ص٧٦)[1].

والشائع أنّ الشاعر عبد المحسن الكاظمي[2] كان من الذين اتّصلوا بالأفغاني وتأثّروا بأفكاره إذ كانت داره ملاصقة للدار التي نزل الأفغاني بها في الكاظميّة.

وحدّثني ثقة من أهل النجف أنّ الأفغاني حين زار النجف متنكّراً اجتمع بالسيّد محمد سعيد الحبوبي الذي كان زميله في الدراسة سابقاً،

---

(١) الدكتور حسين علي المحفوظ (المولود في الكاظمية ١٣٤٤هجريّة) وقد جمع بين الدراستين القديمة والحديثة فقرأ المقدّمات والمعارف القديمة وعلوم الحديث والفلسفة على أعلام الكاظمين، وحصل على ماجستير الآداب الشرقيّة سنة ١٩٥٣م وعلى دكتوراه الدولة في الآداب الشرقيّة سنة ١٩٥٥م من جامعة طهران، جاوزت أعماله المنشورة ألف كتاب ورسالة ودراسة تأليفاً وتحقيق وترجمة في مختلف الموضوعات، وهو عضو الجمعيّة الملكيّة الأسيويّة في لندن ١٩٥٤م وعضو مجمع اللغة العربيّة في القاهرة ١٩٥٦م، والمجمع العلميّ الهنديّ ١٩٧٦م، شارك في عشرات المؤتمرات العلميّة والأدبيّة والاستشراقيّة في العراق والعالم منذ سنة ١٩٥٤م تربطني معه علاقاتٌ قديمةٌ وكان آخر لقائنا في المؤتمر العالمي للشيخ المفيد في قم حفظه الله وأبقاه.

(٢) عبد المحسن بن محمد الكاظمي (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥م) من فحول شعراء الشيعة ومشاهير الأدباء الأفذاذ، إذ درس العلوم العربيّة والآداب في الكاظمين على أعلامها، وقد اجتمع بالسيّد جمال الدين في الكاظميّة وتأثّر بأفكاره وسار على منهجه في تعرية الحكم العثماني، فضيّق عليه فهاجر سنة ١٨٩٨م قاصداً إيران فالهند فمصر وهي مقرّه الأخير، فاحتفى به الشعراء المصريون الكبار لما عرف به من شاعرية محبوكة النسج رصينة القافية، وقد احتفى به تلميذ السيّد جمال الدين الشيخ محمد عبده وقد عرف بارتجاله الشعر، وقال الأستاذ جعفر الخليلي في وصفه: (.. وهو أوّل من أزال الشكّ من الأذهان فيما نقل عن مرتجلي الشعر في تاريخ الأدب العربيّ فقد شهدت له هناك المحافل والمناسبات الأدبيّة عجائب من الارتجال بحيث كان ينشد عشرات الأبيات مرتجلاً ودون أن يكون مسبوقاً بموضوعها من قبل...)، وله من الآثار ديوان شعر طبع بدمشق سنة ١٩٤٠م، ومجموعته الثانية في القاهرة سنة ١٩٤٨م، وعراقيات الكاظمي نشرها الدكتور حسين محفوظ سنة ١٩٦٠ وغيره.

وكان اجتماعهما في الصحن الشريف في الغرفة التي تقع فوق باب القبلة، وقد طال اجتماعهما منذ صلاة العشاء حتّى مطلع الفجر.

وقيل أيضاً إنّ الأفغانيّ زار سامراء وقابل الميرزا محمد حسن الشيرازي[1] واختلى به برهةً من الوقت، ولا ندري مبلغ هذا القول من الصحّة.

---

(١) السيّد الميرزا محمد حسن بن السيّد محمود الحسيني الشيرازي (١٢٣٠ ـ ١٣١٢هجريّة) المعروف بالمجدّد الشيرازي أحد مراجع التقليد وأعظم علماء عصره، ولد في شيراز وأخذ الأوليّات على أعلامها ومنها انتقل إلى أصفهان ثمّ قزوين التي كانت من أكبر الحوزات الفلسفيّة أنذاك، وحضر على الأخوند الملا آغا الحكمي وغيره وفي عام ١٢٥٩هجريّة استقرّ في كربلاء ومنها ذهب إلى النجف، وكان حسن التدبير، نيّر الفكر، راجح العقل، وهو أوّل مرجعٍ ورئيس شيعي يسكن سامراء، وانهال طلّاب العلوم الدينية من كلّ حدبٍ وصوبٍ نحو سامراء، وعبّر عنه تلميذه السيّد حسن الصدر في كتابه التكمل (... من الفقهاء والمحدّثين والحكماء والمتكلمين والمحققين من الأصوليين وجميع المتفننين...)، وهو الذي أصدر فتواه بتحريم امتياز التنباك ضدّ معاهدة ناصر الدين الشاه القاجاري كما مرّ ذكرها.

ذهابه إلى البصرة

غادر الأفغاني بغداد إلى البصرة فاحتفى به والي البصرة هدايت باشا كلّ الاحتفاء وبالغ في تكريمه، وبعد مرور أيّامٍ معدودةٍ على وصوله البصرة وردت إلى هدايت باشا من اسطنبول برقيةٌ سريّةٌ تطلب منه أن يتحقّق عن نشأة الأفغاني وأصله وهل هو إيرانيٌّ كما يزعم الشاه، والظاهر أنّ الشاه كان قد كتب بذلك إلى السلطان عبد الحميد ليحرّضه على الأفغاني ويستعديه عليه.

اهتمّ هدايت باشا بالأمر فكلّف قاضي البصرة الشيخ عبد الحميد الرافعي بأن يقوم بالتحقيق من غير أن يشعر الأفغاني به، وذهب القاضي إلى الأفغاني يسأله ويحاوره لعلّه يستشف من كلامه ما يدلّ على أصله، وأدرك الأفغاني القصد الخفيّ من محاورة القاضي له فأخذ يؤكّد له أنّه أفغانيٌّ في أصله وفرعه وليس له أيّة علاقةٍ بإيران، وأنّ الشاه إنّما يشيع ذلك بغية التنكيل به، وقد صدّق القاضي بقول الأفغاني، كما صدّق الوالي به وأبرق بذلك إلى اسطنبول (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص٨٥ ـ ٨٦).

يجب أن لا ننسى أنّ إيران كانت في ذلك الحين في عنفوان ثورتها

ضدّ اتفاقيّة التنباك، وبينما كان الأفغاني في البصرة وصل إليها من شيراز مجتهدٌ إيراني كان من زعماء تلك الثورة اسمه السيّد علي أكبر الشيرازي، فالتقى الأفغاني به، وتعاون الرجلان على كتابة رسالةٍ بليغةٍ موجّهةٍ إلى الميرزا محمد حسن الشيرازي في سامراء يشجبان فيها سياسة الشاه ويذكران مظالمه الكثيرة على الشعب الإيرانيّ (صادق نشأت وعبد النعيم حسنين، المصدر السابق، ص٩٣).

كانت الرسالة طويلةً جدّاً وتحتوي على عبارات مهيّجة واستصراخ عاطفي، وقد ذيّلها الأفغاني بتوقيعه (الحسيني) (انظر نصّ الرسالة في كتاب ((تاريخ الشيخ محمد عبده)) للسيّد محمد رشيد رضا، المطبوع في القاهرة، عام ١٩٣١، ج١ ص٥٦ ـ ٦٢)، ثمّ سافر السيّد علي أكبر بنفسه إلى سامراء لإيصالها إلى المرزا، وقد استقبله المرزا بكلّ تعظيمٍ وتسلّم الرسالة منه.

شاع أمر الرسالة في العراق فأخذ النّاس يستنسخونها ويتداولونها فيما بينهم في كثيرٍ من المدن العراقيّة ولاسيّما في العتبات المقدّسة.

وكان لها تأثير كبيرٌ في النجف (محسن الأمين، المصدر السابق، ص٢٥)، كما وصل تأثيرها إلى جبل عامل. يقول الشيخ سليمان الظاهر وهو من علماء جبل عامل: إنّ نسخة من الرسالة وصلت إليه إذ كان قد أرسلها إليه أحد الأصدقاء من النجف مع وصف للاضطراب العجيب الذي ساد إيران في ذلك الحين (ف. و. فرنو (يقظة العالم الإسلاميّ)، ترجمة بهيج شعبان، بيروت، ج٢ ص٢٠٢).

اعتقد أكثر الذين كتبوا في سيرة الأفغاني أنّ رسالته تلك إلى المرزا الشيرازي هي السبب في إصدار المرزا لفتواه المشهورة في تحريم (التنباك). وهذا رأيٌ لا يخلو من مبالغة، فالواقع أنّ المرزا الشيرازي كان

قد وصلت إليه علاوةً على رسالة الأفغاني رسائل كثيرةٌ من مختلف أنحاء إيران وهي كلّها تضجّ بالشكوى من اتّفاقيّة (التنباك) على نحو ما ذكرناه في الفصل الثالث من هذا الجزء.





يقول السيّد محسن الأمين[1] في هذا الصدد ما نصّه:

---

(١) السيّد محسن بن السيّد عبد الكريم الحسيني الأمين العاملي (١٢٨٢ ـ ١٣٧١هجريّة) من

(ولكنّ الحقيقة أنّ الميرزا الشيرازي أفتى بتحريم تدخين التنباك حينما بلغه إعطاء الامتياز إلى الدولة البريطانيّة قبل أن يرسل له السيّد جمال الدين هذا الكتاب، ولم يكن إفتاؤه بتأثيرِ كتاب جمال الدين، ولو لم يكن له مؤثر دينيّ من نفسه عظيم لم يؤثر فيه كتاب جمال الدين، ولكنّ النّاس اعتادوا إذا مالوا إلى شخصٍ أن يسندوا كلّ وقائع العالم إليه.) (محسن الأمين، المصدر السابق، ص٣٢).

مراجع الشيعة المصلحين في عصره، ولد في قرية شقراء وأخذ الأوّليات فيها ثمّ هاجر إلى النجف وتخرّج على أعلامها فاستقرّ في دمشق سنة ١٣١٩هجريّة، وواصل التدريس والبحث والتأليف وصار صيته في الآفاق ومن أشهر مؤلّفاته أعيان الشيعة طبعه مكرراً منها طبعة سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م في بيروت في عشرة مجلّدات ثمّ أعيد طبعه في طهران، وقد استدرك عليها نجله السيّد حسن الأمين بعشر مجلّدات أيضاً مع تعاون كاتب هذه السطور، وكما زرت داره في شقراء مع ولدي المهندس الشيخ حيدر على الحدود اللبنانيّة الفلسطينية وكذلك أروي عنه بواسطة سيّدنا الإمام شهاب الدين المرعشي النجفي.

ذهابه إلى لندن

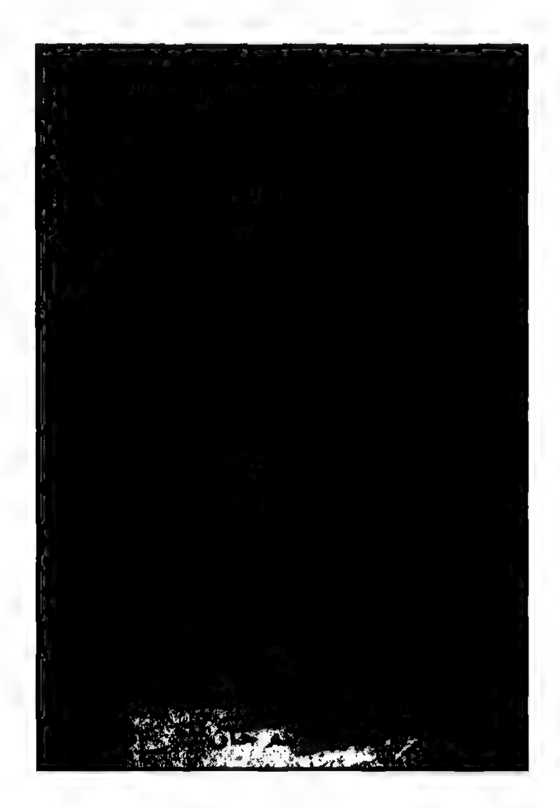
طلب الأفغاني من اسطنبول إذناً بالسفر إلى لندن، فورد الإذن له بذلك، وعندما كان الأفغاني يهمّ بالسفر شعر هدايت باشا بأنّه لا يملك من المال ما يكفيه لنفقات سفره، فتبرّع له بمبلغ خمسين ليرة، كما تبرّع له نقيب الأشراف بمائة وخمسين ليرة، وكذلك تبرّع بعض أعيان البصرة بمبالغ أخرى، حتّى بلغ مجموع التبرّعات خمسمائة ليرة (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص٨٧).

وصل الأفغاني إلى لندن في خريف ١٨٩١، ولم يكد يستقرّ به المقام فيها حتّى شرع يعمل للتشهير بالشاه والطعن فيه، وقد التقى الأفغاني في لندن برجلٍ إيراني تربطه وإياه روابط الماسونيّة هو المرزا ملكم خان[1]،

---

(١) وهو الميرزا ملكم خان بن الميرزا يعقوب خان الأرمني الأصفهاني (١٢٤٦ ـ ١٣٢٦هجريّة) الملقّب بـ (ناظم الدولة) شاعر بارع صحفي فذ كاتب قدير سياسي مخترع. كان والده من أرامنة جلفا في ضواحي أصفهان، وقد أسلم وعرف بـ (جديد الإسلام). ولد ملكم خان ونشأ وأخذ العلوم في أصفهان ثمّ سافر إلى فرنسا وأكمل دراسته هناك ثمّ رجع إلى إيران وعيّن مدرّساً في معهد دار الفنون بطهران، وهو مؤسّس الماسونيّة في إيران وينسب إليه أعمالٌ خارقةٌ محيّرة للعقول، ثمّ عيّن سفيراً في لندن واختلف مع حكومة ناصر الدين شاه القاجاري

وكان هذا الرجل كالأفغاني شديد الحنق على الشاه، وقد أصدر جريدةً باللغة الفارسيّة اسمها (القانون) لمهاجمة الشاه، فتعاون الأفغاني معه في تحرير الجريدة وأخذا يملآن صفحاتها بالطعن بالشاه وذكر مثالبه وتحريض الشعب الإيرانيّ عليه.



يقول السير برسي سايكس: إنّ جريدة (القانون) كان لها في إيران تأثيرٌ عظيمٌ، فقد كان ملكم خان ذا أسلوبٍ في الفارسيّة ممتاز، فأثار الإيرانيّين به إلى درجةٍ لم يسبقه إليها أيّ كاتبٍ آخر، وصارت الجريدة

وأسّس جريدته باسم (القانون) في لندن مطالباً بالنظام الدستوريّ في إيران، وبعد تأسيس النظام البرلماني (مشروطة) في إيران، عيّن ملكم خان سفيراً إلى إيطاليا وتوفيّ في لوزان، نقل جثمانه إلى برن وأحرق هناك حسب وصيّته.

تهرّب إلى إيران خفيةً في بالات البضائع المستوردة، وقد وضعت الحكومة عقوباتٍ شديدة على كلّ من توجد لديه نسخةٌ من الجريدة (Percy Sykes (A History Of Persia) - London 1958 - Vol 2. P 398 - 399.).

وكانت جريدة (القانون) ترسل إلى العراق أيضاً، وكان لها قراؤها والمتأثّرون بها فيه. فقد كان في العراق كثيرون يعرفون الفارسيّة خاصّةً بين طلبة الدين وعلمائه في العتبات المقدّسة، ومن الممكن القول إنّ هذه الجريدة مهّدت الجوّ لحركة (المشروطيّة) التي حدثت فيما بعد.

وكانت تصدر في لندن علاوةً على جريدة (القانون) جريدةً أخرى تهاجم الشاه هي جريدة (ضياء الخافقين)، وكانت تقوم بنشرها شركةٌ بريطانيّةٌ باللغتين العربيّة والإنكليزيّة، فصار الأفغاني يكتب فيها بتوقيع (السيّد)، وقد كتب فيها ذات يومٍ مقالاً عنيفاً استهلّه بأسماء كبار المجتهدين في العراق وإيران، فأخذ يدعوهم إلى خلع الشاه، ووصفه بأنّه (يستلب حقوق العلماء تدريجيّاً ويخفض شأنهم ويقلّل نفوذ كلمتهم... حتّى خلا له الجوّ فقهر العباد، وأباد البلاد، وتقلّب في أطوار الفظائع، وتجاهر بأنواع الشنائع، وصرف في أهوائه الدنيّة، وملاذه البهيميّة، ما مصّه من دماء الفقراء والمساكين عصراً، وما نزح من دموع الأرامل والأيتام قهراً..) (محمد رشيد رضا، المصدر السابق، ج١ ص٦٣- ٦٨).

جاء السفير الإيرانيّ إلى الأفغاني يستعطفه ويقسم عليه (بجدّه المصطفى) أن يكفّ عن مهاجمة الشاه، وعرض عليه أن يطلب ما يشاء مقابل السكوت، فكان جواب الأفغاني عليه: (لا أتمنّى إلّا أن تزهق روح الشاه ويشقّ بطنه ويوضع في القبور) (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص٤٧).

إنّ الدكتور أحمد أمين يلوم الأفغاني على هذا السلوك العنيف الذي سلكه تجاه الشاه، فهو يقول في ذلك ما نصّه: (هذه زلّةٌ كبيرةٌ من السيّد جمال الدين، دعاه إليها حدّته وحبّه للانتقام، إذ كيف أجاز لنفسه التشهير بحكومةٍ شرقيّة إسلاميّة في بلاد أجنبيّة تتّخذ من أقواله حجّةً للتدخّل الذي طالما حاربه في (العروة الوثقى)، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كلّ النّاس؟

لقد كان مدحت باشا في موقفٍ كهذا أنبل من السيّد وأكرم، إذ نفاه (عبد الحميد)، وأخذه رجاله من دست الوزارة إلى السفينة، لا مال ولا ثيابٌ ولا أهل، ومع هذا فما وضع قدمه في أوربة حتّى أخذ يسعى في دفع الشرّ عن أمّته، ويتكلّم الكلام الكثير في فضل الأتراك على أوربة، ولا ينطق بكلمةٍ في ذمّ عبد الحميد الذي عامله معاملة الشاه لجمال الدين. الحقّ إنّها غلطةٌ من غلطات (السيّد) دعا إليها حدّة مزاجه) (أحمد أمين، المصدر السابق، ص٩٨ـ ٩٩).

دعوة السلطان له

في أواخر عام ١٨٩٢ وصل إلى رستم باشا السفير العثماني في لندن (صورة) أمرٌ من السلطان عبد الحميد[1] يأمره بدعوة الأفغاني إلى اسطنبول، وقد عرض رستم باشا الدعوة على الأفغاني وألحّ عليه في تلبيتها، غير أنّ الأفغاني اعتذر عن قبولها قائلاً بأنّه في شاغل وقتي لإصلاح بلاده (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص٣٢).

وبعد أيّامٍ وصل كتابٌ من اسطنبول إلى رستم باشا يتضمّن هذه العبارة:

(لا يقبل جلالته لكم عذراً إذا ما أقنعتم جمال الدين بالمجيء إلى الأستانة، ليقابله ثمّ يعود إذا شاء، منتظرين إشعاركم برقيّاً).

فاضطرّ الأفغاني تجاه هذا الإلحاح أن يجيب دعوة السلطان، ورحل

(١) السلطان عبد الحميد العثماني: الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان في تركيا (جلوس ١٢٩٣ خلع ١٣٢٧هجريّة)، كان مستبدّاً سفاكاً، وفي عصره وقعت الحروب مع الصرب وروسيا واليونان، وقتل الأرمن ما إلى ذلك من كوارث، وثار الشعب التركيّ ضدّه وخلعه في عام ١٩٠٩م، وسجن في جزيرة قبرص حتّى عام ١٣٣٠ هجريّة حيث سقطت جزيرة قبرص بيد اليونانيين، وفرّ عبد الحميد من السجن متوجّهاً إلى أوروبا وبها توفيّ.

إلى اسطنبول.

اختلفت أقوال المؤرّخين في تعليل هذا الإصرار الذي أبداه السلطان عبد الحميد في دعوة الأفغاني، وفيما يلي ننقل باختصار أهمّ تلك الأقوال:



أوّلاً: إنّ الشاه ناصر الدين لما أعيته الحيل في استرضاء الأفغاني وإسكاته كتب إلى السلطان عبد الحميد يرجوه استدعاء الأفغاني إليه ليجعله تحت مراقبته دفعاً لشرّه (قدوري قلعجي، المصدر السابق، ص٨٧).

ثانياً: إنّ السلطان عبد الحميد كان يريد إرسال الأفغاني إلى أوروبا في أمرٍ سياسيٍّ ثمّ عدل عن ذلك (عبد المنعم شميس، المصدر السابق، ص٤١).

ثالثاً: إنّ السلطان عبد الحميد أراد باستضافته للأفغاني أن يظهر أمام النّاس أنّه يرعى العلم والعلماء من كافّة الأقطار الإسلاميّة، وذلك من أجل تدعيم فكرة الجامعة الإسلاميّة التي كان السلطان يسعى إليها (عبد الرحمن الرافعي، المصدر السابق، ص١٣٧).

رابعاً: إنّ السلطان كان يخشى أن ينضمّ الأفغاني إلى جمعيّة (تركيا الفتاة) المعارضة له فيكون قوة كبرى إلى قوّتهم، خصوصاً وقد كان الأفغاني اجتمع في باريس ببعض رجال هذه الجمعيّة وأطلعوه على خطّتهم في إصلاح الدولة العثمانية فراقه مذهبهم وشجّعهم على عملهم وسمّى جمعيّتهم (الجمعيّة الصالحة)، وقد بلغ السلطان ذلك عنه فاستدعاه إليه لكي يمنعه من الانضمام إليهم (أحمد أمين، المصدر السابق، ص٩٩).

إنّ هذه الأسباب التي ذكرها المؤرّخون قد تكون كلّها أو بعضها ذات أثرٍ في دفع السلطان إلى دعوة الأفغاني، ولكنّي أظن مع ذلك أنّ هناك سبباً آخر أولى بالذكر من هذه الأسباب ولكنّ المؤرّخين غفلوا عنه، وهو أنّ السلطان أراد من دعوة الأفغاني إليه أن يجعله وسيطاً بينه وبين علماء الشيعة في العراق وإيران بغية اجتذابهم إلى الجامعة الإسلاميّة.

ممّا يجدر ذكره في هذا الصدد أنّ العلاقة بين الشيعة والسنيين لم تكن حينذاك على ما يرام من جراء هجرة المرزا الشيرازي إلى سامراء على نحو ما بسطناه في الفصل الثالث، ويخيّل لي أنّ السلطان عبد الحميد كان يبحث عن رجلٍ من الشيعة يستطيع أن يرتق الفتق الذي

حدث بين الطائفتين ويجتذب الشيعة إلى الجامعة الإسلاميّة، وكأنّه وجد هذا الرجل أخيراً في شخص الأفغاني فدعاه إليه.

وعلى أيّ حالٍ فقد نال الأفغاني عند وصوله إلى اسطنبول تكريماً من السلطان عظيماً، فقد أنزله في (المسافر خانة) وهو القصر المخصّص لضيوف السلطان والمجاور لحدائق قصر يلدز، وأجرى له مرتّباً شهريّاً قدره خمس وسبعون ليرة وهو مرتّبٌ ضخمٌ لم يكن يناله في تلك الأيام إلّا الأقلّون، ومنحه من (الإسطبل الهمايوني) عربةً يجرّها جوادان مع سائق، كما عرض عليه أن يهديه إحدى جواريه المشهورات بالجمال غير أنّ الأفغاني رفض قبول هذه الهديّة (اللذيذة).

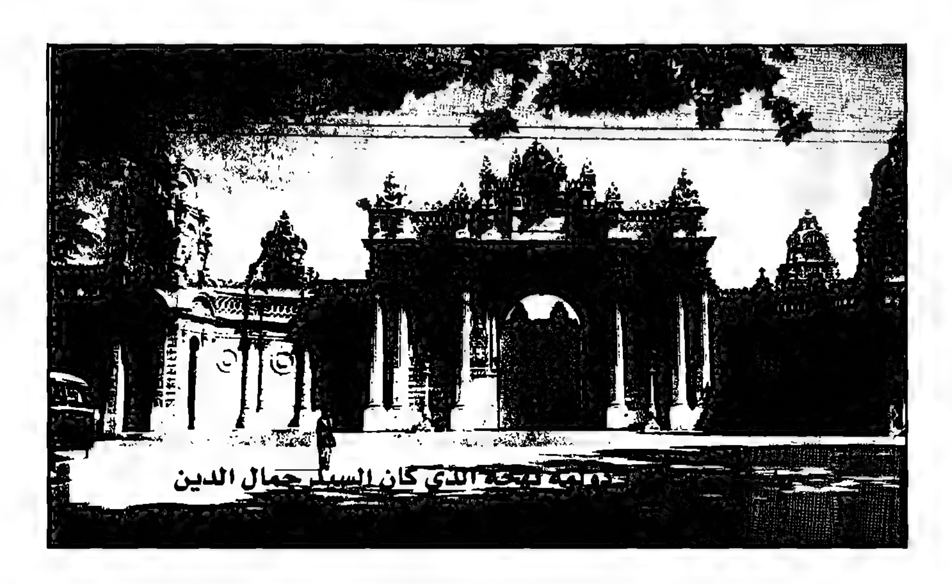


واتّخذ الأفغاني في (المسافر خانة) مجلساً خاصّاً به، وصار يرتاد هذا المجلس الكثير من الكبراء والمفكّرين والشباب المتعلّم، فكان الأفغني يخلبهم بروعة أحاديثه على نحو ما كان يفعل في قهوة (متاتيا)[1] بالقاهرة.

---

(١) سافر كاتب هذه السطور في الستّينات إلى القاهرة وقد زار هذا المقهى في موضعه القديم وهو يسمّى حالياً (يونيفرسال).

وأخذ الأفغاني ينتهز الفرص خلال أحاديثه ليبدي إعجابه بعظمة السلطان وعبقريّته السياسيّة، وكان من جملة أقواله في هذا الشأن: أنّ السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعةٍ من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاءً ودهاءً وسياسةً، وأنّ الممالك الإسلاميّة لا تسلم من شراك أوروبا إلّا بالانضواء تحت راية الخليفة الأعظم (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص٣٤ـ ٣٦).



... الذي كان السيد جمال الدين

وكان السلطان من جانبه لا يردّ أيّ طلبٍ أو شفاعةٍ للأفغاني. يروي الشيخ عبد القادر المغربي قصّةً تدلّ على مبلغ ما كان للأفغاني من جرأة ودالة على السلطان خلاصتها: إنّ الأفغاني طلب من السلطان زيادة مرتب صديقٍ من أصدقائه ورفع رتبته، فوعده السلطان خيراً ولكنّه تباطأ في تحقيق وعده، فذهب الأفغاني لمقابلة السلطان وهو مغتاظ، ووقف أمام السلطان وقد بدت عليه آثار الانفعال وقال بصوتٍ متهدّجٍ: (أمير المؤمنين كسر قلبي، أمير المؤمنين كسر قلبي!).

فلاطفه السلطان وهدّأ خاطره، وأمر بتنفيذ ما طلب منه، ولمّا خرج

الأفغاني من المقابلة ناوله الحاجب كيساً فيه خمسمائة ليرة عثمانية ذهباً (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص١٠٢ـ ١٠٣).

وحدث ذات يومٍ في عام ١٨٩٣ أن أقيم في قصر يلدز احتفالٌ فخمٌ حضره السلطان، وجاء الأفغاني يريد الدخول فمنعه أحد الحجّاب، غير أنّ الأفغاني أصرّ على الدخول محتجّاً بكونه من السادة والعلماء وهذا يجعله مساوياً في المنزلة لأيّ واحدٍ من المدعوين، وحين علم السلطان بالأمر استدعاه إليه وجعله يقف قريباً منه وراء الكرسيّ الهمايوني، حتّى صار الأفغاني عندئذٍ أقرب إلى السلطان من رئيس الخصيان ***(Edward Browne (op. cit)- P***.

وممّا يذكر أنّ الأفغاني ظلّ فترةً طويلةً بعد وصوله إلى اسطنبول مستمرّاً على ثلب الشاه والتشنيع عليه، فاستدعاه السلطان إليه وقال له: إنّ سفير إيران طلب مقابلتي مرّتين فلم أسمح له بالمقابلة، ثمّ أذنت له في المرّة الثالثة، وطلب منّي أن آمرك بالكفّ عن الشاه وترك التعرّض له، وها أنذا أطلب منك تركه والإعراض عنه.

فأجابه الأفغاني: (إنّني امتثالاً لأمر مولانا خليفة العصر عفوت عن الشاه)، فقال السلطان حينئذٍ: (يحقّ لشاه إيران أن يخاف منك خوفاً عظيماً) (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص٨٢).

جهوده في التقريب

أخذ الأفغاني منذ حلوله في اسطنبول يعمل على التقريب بين الشيعة (صورة) والسنّيين وعلى اجتذاب الشيعة إلى الجامعة الإسلاميّة، وقد استعان في ذلك بثلاثة إيرانيين كانوا يسكنون اسطنبول آنذاك هم: المرزا حسن خان الملقّب بـ (خبير الملك)[1]، والشيخ أحمد روحي

(١) الميرزا حسن خان (الشهيد في سنة ١٣١٣هجريّة) الملقّب بخبير الملك: من أفاضل الثائرين. شجاعٌ مناضلٌ كاتبٌ بارعٌ من أصحاب السيّد جمال الدين في اسطنبول، كان له دور هامّ وخطير في وعي الشعب الإيرانيّ والإسلاميّ، ومن دعاة الوحدة الإسلاميّة الكبرى مع رفاقه الشيخ أحمد الروحي وآقا خان الكرماني، وكانوا يحرّرون رسائلَ ومقالاتٍ باسم (الاتّحاد الإسلاميّ) ويبعثونها إلى إيران وسائر الشعوب الإسلاميّة، وفي أواخر أيّام ناصر الدين شاه القاجاري اتّهمهم السفير الإيرانيّ علاء الملك لدى الحكومة العثمانيّة بأنّ لهم ضلعاً في تحريض الأرمن، طالب الحكومة العثمانيّة بتسليمهم إلى إيران فسجنتهم الحكومة العثمانيّة، وبعد قتل ناصر الدين شاه سلّمتهم تركية إلى إيران وعند وصولهم إليها قُطعت رؤوسهم في دار المحافظ محمد علي ميرزا وبُعث بها إلى طهران، ودُفنت أجسادهم في مقبرة ششكلان، وله مؤلّفاتٌ منها في عمران خوزستان وغيره.

الكرماني[1]، والمرزا عبد الحسين الكرماني[2]، وكان أحد هؤلاء الثلاثة، وهو الشيخ أحمد روحي، من أشدّ النّاس حماساً للجامعة الإسلاميّة بحيث نقش على فصّ خاتمه هذه العبارة: (داعي اتّحاد إسلامم، أحمد روحي آمده نامم)، ومعناها: أنا الداعية إلى الاتّحاد الإسلاميّ، أحمد روحي اسمي) *(Edward Browne (op. cit)- P 415).*

كان الأفغاني يجتمع بهؤلاء الثلاثة في قصر السلطان حيث أعدّت لهم قاعةٌ خاصّةٌ، فكانوا يجتمعون فيها والسلطان يراقبهم من وراء ستار (آلما وتلن، عبد الحميد ظلّ الله على الأرض، ترجمة راسم رشدي، القاهرة، ١٩٥٠، ص١٧٥)، فيكتبون الرسائل إلى علماء الشيعة في العراق وإيران يدعونهم فيها إلى نبذ الخلاف مع السنّيين في قضية الخلافة، وإلى الالتفاف حول السلطان عبد الحميد من أجل تقوية الأمّة الإسلاميّة تجاه الكفّار الذين يريدون ابتلاعها.

---

(١) الشيخ أحمد بن الملا جعفر الكرماني (١٢٦٣ ـ ١٣١٣هجرية) من أعلام العلماء وفحول الشعراء في عصره. كان اسمه المستعار في شعره روحي. ولد في كرمان وأخذ على والده وعلماء كرمان وانتقل إلى أصفهان ثمّ طهران ورشت ثمّ استقرّ في اسطنبول وانضمّ إلى حاشية السيّد جمال الدين، وكان من دعاة الوحدة الإسلاميّة، ذكره شيخنا الأستاذ في الذريعة ج٩ ص٣٨٩ قائلا: (... كان أديبا نطاقا شاعراً.. تتلمذ على يد والده العالم جليل بكرمان وجاء إلى طهران وسافر إلى استانبول، فصحب السيّد جمال الدين.. وهناك شاركه في كفاحه للتحرّر، فقبض عليه البوليس العثماني في ١٢ رجب ١٣١٣ هجريّة ومعه الميرزا آقا خان الكرماني والميرزا حسن خبير الملك.. فحبسوا في تبريز، وفي هذا الحين قتل ناصر الدين الشاه في طهران فذبح الشيخ أحمد ورفيقاه في سجن تبريز في ٦ ذي الحجّة ١٣١٣ هجريّة بأمر من محمد علي ميرزا بن مظفر الدين بن ناصر الدين شاه وذلك بعد أن عذّبهم بأنواع العذاب..)، وله مؤلّفاتُ منها هشت بهشت وغيره.

(٢) الميرزا عبد الحسين الكرماني الشهيد في ١٣١٣هجريّة، وكان مصيره مثل مصير رفاقهِ خبير الملك والشيخ أحمد الكرماني الروحي المارّ الذكر.



الشهيد الشيخ أحمد الروحي الكرماني

الشهيد الميرزا حسن خان خبير الملك

الشهيد الميرزا آغا الكرماني

وصلت رسائل الأفغاني إلى علماء الشيعة، والظاهر أنّه عرف كيف يخاطبهم ويؤثّر في عقولهم لأنّه كان واحداً منهم في سالف الأيّام، فهو يقول لهم إنّ الإمام علي صلّى وراء عمر ونصحه وعاونه وزوّجه ابنته، وهو إنّما فعل كلّ ذلك حرصاً على مصلحة الإسلام وتوحيداً لشمله تجاه الكفّار، وهم يجب أن يقتدوا بإمامهم فيلتفّوا حول السلطان عبد الحميد ويساندوه.

ثمّ ذكر الأفغاني لهم كيف أنّ الإمام زين العابدين كان يدعو لنصرة أهل الثغور ومعنى هذا أنّ الإمام كان يدعو الله أن ينصر الجيوش الأمويّة الموجودة في ثغور البلاد الإسلاميّة لحمايتها من غزو الكفّار، وقد

أصبحت الدولة العثمانية اليوم هي حامية الثغور الإسلاميّة ولهذا يجب عليهم مساعدتها والدّعاء لها بالنصر.

تشير بعض القرائن إلى أنّ رسائل الأفغاني أنتجت ثمرتها في أوساط الشيعة، ذكرت جريدة التايمز اللندية في ٣ آب ١٩٠٣ أنّ فريقاً من علماء الدين البارزين في إيران أخذوا يدعون إلى الاعتراف بخلافة السلطان العثماني، ويفسّر براون هذه الدعوة بأنّها ربّما كانت من نتيجة المساعي التي قام بها الأفغاني في التوفيق بين الشيعة وأهل السنّة ***Edward Browne)*** ***.((op. cit)- P 107***

ويغلب على الظنّ أنّ دعوة الأفغاني كان لها بعض الأثر في حركة الجهاد التي قام بها علماء الشيعة في العراق خلال الحرب العالميّة الأولى، فالملاحظ أنّ العلماء عند إعلانهم الجهاد أخذوا ينادون بمبدأ زين العابدين في نصرة أهل الثغور.

وقعت نسخة من تلك الرسائل التي كان الأفغاني يرسلها إلى علماء الشيعة في يد القنصل الإيرانيّ ببغداد، وأسرع القنصل فأرسلها إلى الشاه ناصر الدين مردفاً إيّاها بكتابٍ من عنده يقول فيه: إنّ الأفغاني اتّفق مع نفرٍ من الرعايا الإيرانيين على تسليم إيران إلى السلطان العثماني تحت ستار الوحدة الإسلاميّة وقد جذب إلى صفّه أغلب العلماء (صادق نشأت وعبد النعيم حسنين، المصدر السابق ص١٠٤).

وعندما وصل كتاب القنصل إلى الشاه اشتدّ غضبه وأرسل إلى سفيره في اسطنبول يأمره بأن يتّخذ كلّ وسيلةٍ ممكنةٍ لإلقاء القبض على الإيرانيين الثلاثة الذين تعاونوا مع الأفغاني في كتابة الرسائل وتسفيرهم إلى إيران.

وأخذ السفير يسعى بكلّ جهده نحو تسفير أولئك الثلاثة، واستطاع

أخيراً أن يقنع مدير الشرطة محمود باشا، ويغريه بالوعود والهدايا، لكي يلقي القبض عليهم بحجّة أنّ لهم ضلعاً في حوادث الأرمن الأخيرة.

فقام محمود باشا بما أراد منه السفير الإيرانيّ، وأبعد الثلاثة إلى طرابزون بغية نقلهم من هنالك إلى إيران.

وحين علم الأفغاني بالأمر أسرع إلى مقابلة السلطان وقال له: (إنّ هؤلاء الأشخاص لم يرتكبوا إثماً سوى مشاركتهم إياي في آرائي بشأن الاتّحاد الإسلاميّ). فأبدى السلطان أسفه، وأمر بالإبراق إلى طرابزون لكي يبقى الثلاثة فيها فلا ينقلون إلى إيران، ثمّ أوعز السلطان إلى منيف باشا الذي كان على وشك السفر إلى طهران بأن يتشفّع لهم عند الشاه.

لم ينجح السلطان في مسعاه لإنقاذهم. فقد حدث حينذاك اغتيال الشاه على يد رجلٍ من أنصار الأفغاني، واضطرّت الحكومة العثمانيّة إلى (صورة) تسليمهم إلى إيران، فجرى إعدامهم في تبريز في ١٧ تموز من عام ١٨٩٦، ثمّ سلخت جماجمهم وحشيت تبناً وأرسلت إلى طهران

.(Edward Browne (op. cit)- P 415)

أثر اغتيال الشاه

جرى اغتيال الشاه في الوقت الذي كان يتأهّب فيه للاحتفال بالعيد الخمسيني لحكمه حسب التقويم القمري، ففي ١ أيّار ١٨٩٦ بينما كان الشاه يزور مرقد (الشاه عبد العظيم)، أطلق عليه الرصاص المرزا محمد رضا الكرماني[1] وهو يصرخ قائلاً: (خذها من يد جمال الدين)، فقتله،

(١) الميرزا محمد رضا الكرماني الشهيد في يوم الأربعاء الثاني من ربيع الأوّل سنة ١٣١٤هجريّة، ثائرٌ مجاهدٌ من أحرار إيران الناقمين على حكومة القاجاريّة، سجن مدّة في قزوين ثمّ التجأ في اسطنبول عند السيّد جمال الدين وشكا له حاله، وحرضه جمال الدين على اغتيال الشاه وإنقاذ الشعب الإيرانيّ الباسل من مظالمه التي عاناها الإيرانيون لنصف قرن، ثمّ قدّم له السلاح فقصد الشاه من اسطنبول حتّى وصل إيران وقد بدأت احتفالات بمناسبة مرور نصف قرن على تتويج الشاه، واقترب من الشاه وهو يزور مرقد (الشاه عبد العظيم) في نواحي طهران، وأطلق عليه الرصاص ونادى بأعلى صوته: (خذها من يد جمال الدين) وأرداه قتيلا، ولم يفرّ. وألقي القبض عليه وبعد محاكمةٍ صوريّةٍ حُكم عليه بالإعدام. وحين حضر أمام عمود المشنقة والنّاس مجتمعون، نادى بأعلى صوته: (أيّها النّاس اعلموا أنّي لستُ بابيّاً بل أنا مسلم خالص)، وحين اقترب من عمود المشنق قال: (إنّا لله وإنّا إليه راجعون)، ونظر إلى جلاوزة الشاه ونادى أيضاً بأعلى صوته: (احتفظوا بهذا العمود والمشنقة حيث أنّي لم أكن آخر من يصعدها)، ويروي لنا الأستاذ الأمير شكيب أرسلان المعاصر للحادثة ما هو تلخيصه:

(.. ففي أحد الأيّام قدم على جمال الدين رجلٌ من العجم واسمه رضا آقا، وكان دائماً يحادثه

وقد ذكرت الصحف البريطانيّة في حينه أنّ القاتل كان بابيّاً غير أنّ التحقيق الذي قامت به الحكومة الإيرانيّة مع القاتل دلّ على أنّه من أنصار الأفغاني وأنّه كان قد اجتمع بالأفغاني في اسطنبول وحرّضه على اغتيال الشاه.



البطل الثائر الميرزا محمد رضا الكرماني فوق المشنقة

ويتكلّمان على شقاء الأمّة الإيرانيّة بسوء سلطانها نصر الدين شاه، فقال الميرزا رضا يوماً إنّه هو حاضرٌ أن يفدي نفسه لتخليص أمّته، فقال له جمال الدين: (إن كان كذلك فاذهب وافعل)، فذهب رضا آقا بينما ناصر الدين شاه في جامع عبد العظيم وقتله، وقال له: (خذها من يد جمال الدين)، ثمّ لمّا ورده عددٌ من مجلّة (الاياوستراببيون) التصويريّة الفرنسيّة وفيها صورة رضا آقا مصلوباً والنّاس ينظرون من حوله هتف (علو في الحياة وفي الممات)، وقال: (انظروا كيف علّقوه عالياً عليهم حتّى يكون ذلك رمزاً إلى أنّهم كلّهم كانوا من دونه...) (حاضر العالم الإسلاميّ ج٢ ص٢٩٥ ـ ٢٩٦، الطبعة الرابعة، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٣م).





واعترف القاتل في التحقيق أنّ السلطان عبد الحميد كان قد أوعز إلى الأفغاني بذلك وقال له: (لا تخش شيئاً) *(Ibid. P88 - 92)*.

طلبت الحكومة الإيرانيّة من الحكومة العثمانية تسليم الأفغاني إليها، فرفضت الحكومة العثمانية تسليمه بحجّة أنّه أفغانيٌّ وليس إيرانيّاً.

والظاهر أنّ الأفغاني خشي أن تسلّمه الحكومة العثمانية في نهاية الأمر على نحو ما فعلت بأصحابه الثلاثة، فذهب إلى السفارة البريطانية طالباً حمايتها، فقد كانت السفارة البريطانيّة هي المسؤولة عن الرعايا الأفغانيين لعدم وجود سفارة أفغانيّة في اسطنبول يومذاك.

ولمّا سمع السلطان بأمر التجائه إلى السفارة البريطانيّة أرسل إليه أحد حجابه يستعطفه باسم الإسلام أن لا يهين كرامة الخليفة بهذا العمل، فاستجاب الأفغاني لرجاء السلطان وعدل عن السفر بعد أن كان قد أعدّ حقائبه (محمود أبو ريّة، المصدر السابق، ص١٠٠).

وظلّت الحكومة الإيرانيّة تواصل إلحاحها على الحكومة العثمانيّة بتسليم الأفغاني إليها، وأرسلت إليها أخيراً وثيقة موقعة من أهالي أسد آباد يشهدون فيها بأنّ الأفغاني هو من أبناء بلدتهم، وكان قصد الحكومة (صورة) الإيرانيّة من هذه الوثيقة أن تثبت بها أنّ الأفغاني من رعاياها ويحقّ لها أن تطالب بتسليمه إليها. ولكنّ الحكومة العثمانيّة لم تكترث بتلك الوثيقة وأصرّت على موقفها السابق في عدم تسليم الأفغانيّ إلى إيران (صادق نشأت وعبد النعيم حسنين، المصدر السابق، ص١١٧. ١١٨).

نهاية الأفغانيّ

إنّ السلطان عبد الحميد بالرغم من امتناعه عن تسليم الأفغاني إلى إيران لم يعد يحمل للأفغاني ذلك الودّ الذي كان يحمله له سابقاً. ومن الممكن القول إنّ العلاقة بينهما أخذت تسوء بمرور الأيّام.

وقد انتهز أبو الهدى الصيادي الفرصة، وكان شديد البغض للأفغاني، فصار يكيد له عند السلطان ويشنع عليه ممّا زاد في هبوط مكانة الأفغاني في عين السلطان.

وحين علم النّاس بفتور العلاقة بين الأفغاني والسلطان أخذوا يقلّلون من ارتيادهم لمجلس الأفغاني في قصر الضيافة. يروي بلنت نقلاً عن الشيخ محمد عبده: (إنّ هبوط مكانة الأفغاني عند السلطان جعل أصدقاءه القدامى يتجنّبونه، كما أنّ زملاءه من نزلاء قصر الضيافة هجروه تدريجاً، ولمّا مات الأفغاني أخيراً لم يكن عنده سوى خادم واحدٍ مخلصٍ، وكان هذا الخادم نصرانيّاً) ***(Edward Browne (op. cit)- P 404).***

كان موت الأفغاني من جرّاء داءٍ في فكّه قيل إنّه السرطان. وكان الأفغاني في بداية الأمر يشكو من ألمٍ في أسنانه فأشار عليه الطبيب بقلعها، ولمّا قلعت أسنانه زاد الألم عليه وحصل التهابٌ في اللثة.

وحين علم السلطان بالأمر أرسل إلى الأفغاني جرّاحه الخاصّ إسكندر باشا قنبور زاده، فأجرى هذا له ثلاث عمليّاتٍ متتابعةٍ استأصل بها فكّه الأسفل وجزءاً من لسانه. ويبدو أنّ هذه العمليات لم تنجح في استئصال السرطان كلّه، فظلّ الأفغاني يعاني من الألم الشديد بضعة أشهرٍ حتى لفظ أنفاسه الأخيرة في ٩ آذار ١٨٩٧.



لم يكن مع الأفغاني في ساعة موته كما أشرنا سابقاً سوى خادمٌ نصرانيٌّ، وكان هذا من أقباط مصر اسمه جرجي أفندي كوتجي، وقد أبدى من الإخلاص للأفغاني أمراً عجيباً حيث ظلّ ملازماً له في محنته ولا يفارقه إلّا في ساعات النوم، وقيل إنّه لم يكن خادماً، بل كان صديقاً وقد أنفق على الأفغاني من ماله الخاص مائتي ليرة (محمد رشيد رضا، المصدر السابق، ج١ ص٩١- ٩٢).

وهنا لابدّ لنا من أن نتساءل عن سرّ هذا الإخلاص العجيب!

عندما تيقّن جرجي أفندي من موت الأفغاني أرسل إلى بعض

أصدقائه يخبرهم بموته فلم يحضر منهم سوى اثنين، وجاء رجال الشرطة فاستحوذوا على أوراق الأفغاني ومخلّفاته، ثم جيء بأربعة حمالين فحملوا الجنازة وساروا بها إلى مقبرةٍ تدعى (شيخلر مزارلغي) أي مقبرة المشايخ، فدفنوه فيها.

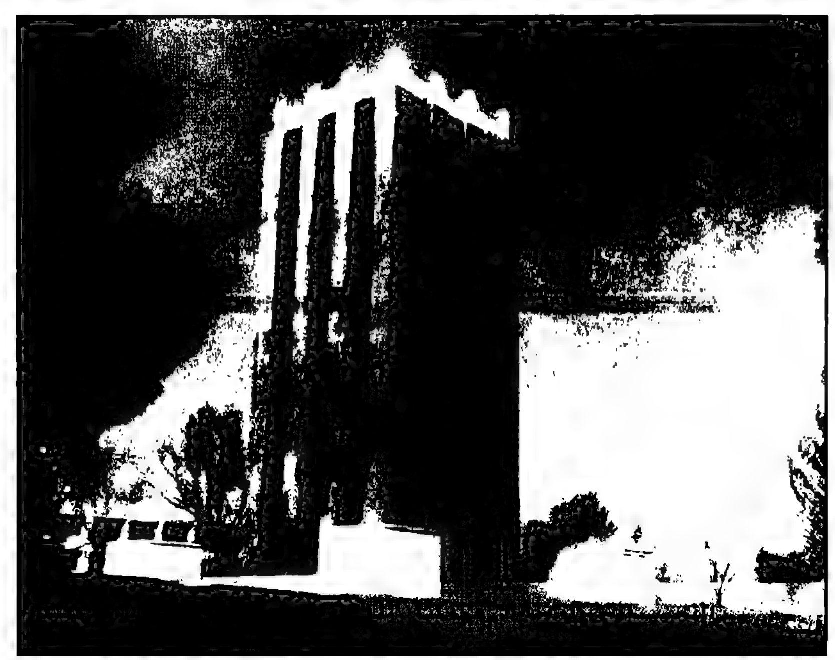
لم يكد خبر وفاة الأفغاني ينتشر بين النّاس حتى بدأت الأقاويل والإشاعات المختلفة تظهر هنا وهناك حول سبب موته، واتّخذ خصوم السلطان ذلك وسيلةً يشنعون بها عليه ويتّهمونه بأنّه هو الذي أوعز بقتل الأفغاني، ومن هنا بدأ اسم الأفغاني يدخل في عداد الأبطال الشهداء، وصار الرواة يحوكون حوله الأساطير كما هي عادتهم تجاه كلّ (بطل شهيد).

نقل رفاة الأفغاني

ظلّ قبر الأفغاني في اسطنبول مهملاً لا يهتمّ به أحدٌ حتى عام ١٩٢٦م، ففي ذلك العام جاء إلى اسطنبول الأمريكي المعروف شارلس كراين، فشيّد على قبر الأفغاني تركيبة جميلةً من الرخام، وأحاطها بسورٍ من حديدٍ، وكتب على أحد وجوهها عبارةً تركيّةً هذه ترجمتها: (أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم، الخير الأمريكاني المستر شارلس كراين سنة ١٩٢٦م).

وفي عام ١٩٤٤م سعت الحكومة الأفغانيّة لنقل رفاة الأفغاني من اسطنبول إلى كابل، وقد تمّ نقل الرفاة عبر العراق، ففي ١٠ كانون الأوّل (صورة) ١٩٤٤م وصل النعش الذي يضمّ الرفاة إلى بغداد من الموصل، فاستقبل النعش في محطّة القطار استقبالاً مهيباً، ثمّ سير به إلى جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني حيث أودع فيه.

واجتمع مجلس أمانة العاصمة في تلك المناسبة فقرّر تسمية أحد شوارع بغداد باسم الأفغاني، وهو الشارع العريض الذي يمتدّ من ساحة عنتر في الأعظميّة حتّى السدّة الشرقيّة الحديثة.



وفي صباح ١٥ كانون الأوّل جرى في جامع الشيخ عبد القادر احتفالٌ لتوديع الرفاة، خطب فيه طه الراوي وخالد الهاشمي وجلال الحنفي وأحمد زكي الخيّاط، وألقى الشاعر محمد مهدي الجواهري قصيدةً كان مطلعها:

هويت لنصرة الحقّ السهادا

فلولا الموت لم تطق الرقادا

ثمّ نقل النعش إلى المطار حيث حملته طائرةٌ خاصّةٌ إلى البصرة، ومن هناك نقل بحراً إلى الهند، ثمّ أوصل إلى كابل براً.

وقد استقبل النعش في كابل استقبالاً فخماً شارك فيه الملك محمد ظاهر شاه ووزراؤه، وكان الملك من بين الذين حملوا النعش على أكتافهم، وتمّ أخيراً دفن الرفاة في ضريحٍ فخمٍ يتوسّط جامعة كابل[1].

---

(١) عندما كانت العلاقات السياسيّة متوتّرةً بين إيران وتركيا قدّمت الحكومة الأفغانيّة طلباً

معالم شخصيّته

كان الأفغانيّ ربع القامة أقرب إلى القصر، أسمر اللون مع شيءٍ من الصفرة، له لمّةٌ مسترسلةٌ إلى شحمة الأذنين، مهيباً جذّاب الملامح، مصاباً بقصرٍ في نظره فإذا قرأ كتاباً أدناه من عينيه، وقد اتّخذ النظارات أخيراً ليستعين بها في القراءة.

مع وساطة بعض الحكومات الغربيّة تطلب فيه نقل رفاة السيّد جمال الدين من اسطنبول إلى كابل، ثمّ وافقت تركيا على الطلب وحين وصل هذا النبأ إلى إيران قامت الاحتجاجات والمعارضة الشديدة من جانب أسرة السيّد جمال الدين وأهالي أسد آباد يطالبون الحكومة بالتدخّل الفوري لمنع هذا العمل، وقدّموا شكوى في تاريخ ١٣ محرّم الحرام سنة ١٣٦٥هجريّة إلى رئيس الوزراء، والثاني إلى مجلس الشورى في طهران بالتدخّل الفوريّ لمنع نقل رفاة جمال الدين إلى كابل.

ومن جهةٍ ثانيةٍ حين وصل القطار حامل نعش السيّد جمال الدين من الموصل إلى بغداد قدّم علماء كربلاء والنجف احتجاجهم وشكواهم إلى القنصليّة في كربلاء والسفارة الإيرانيّة في بغداد يطالبون السفير بالتدخّل لمنع حمل رفاة جمال الدين إلى كابل إلّا أنّ جميع المحاولات كانت فاشلةً وبدون جدوى، فحمل النعش بالتعاون مع الحكومة العراقيّة وعلماء السنّة في بغداد عن طريق البصرة إلى كابل.

وقد نشرت مقالاً عن هذه الحادثة في مجلّة الحوزة القميّة في العدد ٦١ بمناسبة الذكرى المئوية لشهادة السيّد جمال الدين. فليراجع.

ومن مزاياه أنّه كان حسن المعاشرة بشوشاً كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة أصغرهم (جرجي زيدان، المصدر السابق، ج٢ ص٨٢).

وكان يبدو دائماً مشرق الوجه منبسط الأسارير تبرق عيناه عند الحديث وتنفرج شفتاه عن ابتسامة لطيفة عند سماعه النوادر من جلسائه (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص٤٨).

وكانت له نظراتٌ قويّة التأثير في مخاطبيه وقد وصفه بعضهم بقوله: (لقد كان لعينيه بريقٌ عجيبٌ كأنّه بريق النّور الشديد في حلك الظلام) (محمود قاسم، المصدر السابق، ص٨٦).

ولكنّه قد تعتريه أحياناً نزواتٌ من الحدّة تخرجه عن خطّ الاعتدال وتبعده عن المصلحة كما أشار إليه تلميذه الشيخ محمد عبده إذ قال: (كثيراً ما هدمت الحدّة فيه ما رفعته الفطنة).

وكان الأفغاني يستعمل اللغة الفصحى في أحاديثه مع جلاسه، وإذا كان السامع عاميّاً تنازل إلى مخاطبته باللغة العاميّة (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص٤١).

وكانت عبارته بالرغم من فصاحتها لا تخلو من لكنةٍ خفيفةٍ تدلّ على أصله الأعجميّ، وكان يحبّ الإطالة في الحديث ولكن حديثه غير مملول في الغالب.

وكان الأفغاني يفرط في التدخين، ويفضّل (السيكار) على السيكارة الاعتياديّة، وكان لشدّة ولعه بالتدخين لا يعتمد على أحدٍ في ابتياع (السيكار) له، فكان يذهب بنفسه إلى السوق حيث يختار منه النوع الإفرنجي الجيّد، وكان ينفق في ذلك جزءاً كبيراً من دخله.

وكان يعتقد أنّ التدخين يفتح الذهن وأنّه هو الذي ساعد الأوروبيين

على إبداع تلك المخترعات العظيمة، والمظنون أنّ إفراط الأفغاني في التدخين كان من أهمّ الأسباب في ظهور السرطان في فكّه.

وقد اعتاد الأفغاني أن يغيّر لقبه كلّما انتقل من بلدٍ إلى آخر، فقد رأيناه في مصر وتركيا يلقّب نفسه بـ (الأفغاني) بينما هو في إيران يلقّب نفسه بـ (الحسيني).

ويتّضح من أوراقه المحفوظة أنّه كان يتّخذ ألقاباً أخرى مثل (الاسطنبولي) و(الكابلي) و(الرومي) و(الطوسي) و(الأسعد آبادي)، والمظنون أنّه كان يغيّر لقبه حسب تغيّر الظروف أثناء تنقّلاته المختلفة، فكان يتّخذ اللقب الذي يظنّ أنّه يقرّبه إلى النّاس في المحيط الذي يحلّ فيه.

وكان الأفغاني يغيّر زيّه ولباس رأسه مثلما كان يغيّر لقبه، فهو في إيران يلبس العمامة السوداء التي هي شعار السادة من رجال الدين، فإذا ذهب إلى تركيا ومصر لبس العمامة البيضاء فوق طربوش تارةً وبغير (صورة) طربوش تارةً أخرى.

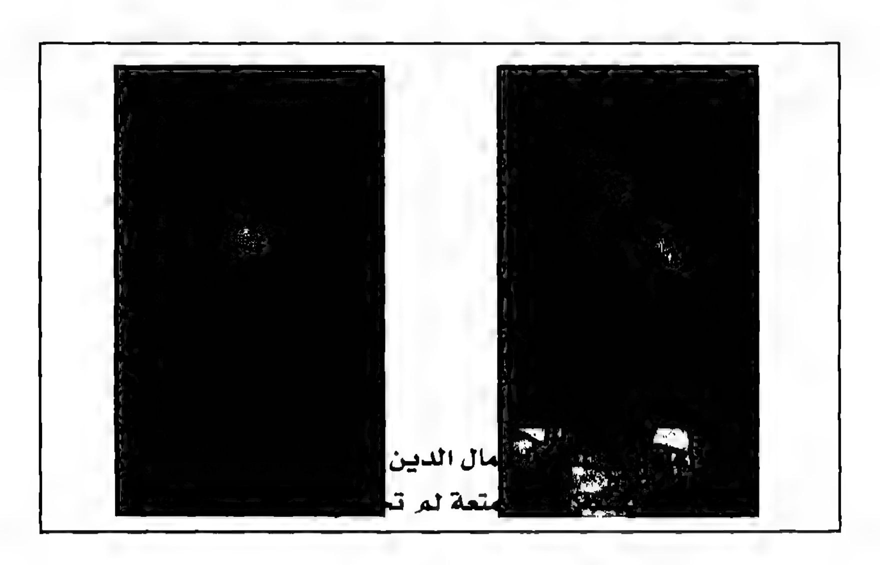
وقد لبس الطربوش مجرّداً في أوروبا أحياناً (***Edward Browne (op. cit)- P 401***)، أمّا في الحجاز فقد لبس العقال والكوفيّة، وقيل إنّه في بعض جولاته لبس العمامة الخضراء (محمود قاسم، المصدر السابق، ص٩٠) ومن يدري فربّما لبس القبعة أيضاً.

وكان الأفغاني لا يتزمّت في سلوكه على نحو ما يفعله أقرانه من أهل العمائم، فهو عندما كان يسكن القاهرة كان يذهب مع أصحابه إلى مشرب البيرة في الأزبكيّة، وكانت في المشرب ساقيةٌ أوروبيّةٌ حسناء، فراهن أصحابه على أنّه يستطيع أن يبكيها ويضحكها ثمّ أخذ يتحدّث إليها حتّى أبكاها وأضحكها كما راهنهم عليه.

وعندما سكن في اسطنبول صار يتردّد على متنزّه (الكاغد خانة) فيذهب إلى أكواخ الغجر الموجودة في ناحيةٍ منه حيث يخاطبهم ويتحدّث إليهم ويقدّم لهم (البخشيش) (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص٣٨ـ ٤٠).

ويروي سليم العنحوري أنّ الأفغاني كان يتعاطى القليل من الكونياك (محمد رشيد رضا، المصدر السابق، ج١ ص٥٢).

وحدّثني رجلٌ من أهل النجف أنّ الأفغاني شوهد ذات مرّةٍ وهو يدخل المبغى العامّ في عشقباد عند زيارته لها.



والمعروف عن الأفغاني أنّه لم يتزوّج ولم تكن له رغبةٌ في النّساء، وقد سئل عن ذلك ذات مرّةٍ فأجاب بما مضمونه أنّه لا يريد الزواج لكي لا يكون ذلك عبئاً عليه في أسفاره الكثيرة وأشغاله المتنوّعة (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص٦٤).

ويخيّل لي أنّ هذا تبريرٌ مصطنعٌ من الأفغاني وأنّ له سبباً آخر يخفيه عن النّاس، وربّما كان الأفغاني ضعيف الشهوة للنساء أو كان عنيناً لا

شهوة له على الإطلاق، لأنّه لو كان ذا شهوةٍ قويّةٍ لما منعه أيّ مانعٍ من الاتّصال بالنّساء على صورةٍ من الصور، وقد رأينا معظم الرجال العظام في التاريخ يتزوّجون ويتّصلون بالنساء على الرغم من كثرة أشغالهم وأسفارهم.

توجد في مخلّفات الأفغاني رسائل تدلّ على أنّه كان على اتّصالٍ ببعض الحسناوات الأوروبيّات، ولاسيّما امرأةٌ منهم اسمها (كاثي)، وربّما كان عاشقاً لها أو هي كانت عاشقة له (أصغر مهدوي وإيرج أفشار، المصدر السابق، تصوير ٢٤٢).

ولا ندري ـ على فرض وجود هذا العشق بينهما ـ هل كان من قبيل الحبّ الأفلاطونيّ أم كان أعمق من ذلك؟!

عقيدته ومذهبه الفكريّ

كان الأفغاني غير متزمّتٍ في عقيدته الدينيّة على نحو ما كان غير متزمّتٍ في سلوكه، والملاحظ أنّ أصحابه ومريديه كانوا من أديان وطوائف شتّى، فكان فيهم المسيحيّ واليهوديّ والبهائي والأزليّ والسنّي والشيعيّ والمجوسيّ والملحد.

وتشير بعض القرائن إلى أنّه في عقيدته الدينيّة كان متأثّراً برأي القطب الصوفي المشهور محي الدين بن عربي الذي كان يعتبر الأديان كلّها على اختلاف عقائدها ديناً واحداً أساسه الحبّ وإنّما يختلف النّاس في إدراك معبودهم تبعاً لتفاوت مداركهم وعقولهم.

وكان الأفغاني على الرغم من أصله الشيعيّ لا يتعصّب للتشيّع تعصّباً أعمى، ففي الوقت الذي نراه فيه ينتقد أهل السنّة على سدّهم باب الاجتهاد (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص١١١) نراه ينتقد الشيعة على عاداتهم في إقامة المآتم الحسينيّة حيث يضربون أنفسهم بالسلاسل (جمال الدين الأفغاني، تتمّة البيان في تاريخ الأفغان، القاهرة، ١٩٠١، ص١٥٠، ١٦٦)، أو في تذهيب المراقد المقدّسة والتذلّل نحوها (***Edward Browne (op. cit)- P 76 -77***).

وكان الأفغاني يعتقد أنّ إثارة قضيّة الخلافة بعد وفاة النبيّ أمرٌ يضرّ المسلمين في الوقت الحاضر ولا ينفعهم، وهو يتساءل في ذلك قائلاً: لو أنّ أهل السنّة وافقوا الشيعة الآن على أحقيّة علي بالخلافة فهل يستفيد الشيعة من ذلك شيئاً؟! أو أنّ الشيعة وافقوا أهل السنّة على أحقيّة أبي بكر فهل ينتفع أهل السنّة؟! ويهتف الأفغاني بعد ذلك قائلاً: (أما آن للمسلمين أن ينتبهوا من هذه الغفلة؟! ومن هذا الموت قبل الموت؟!...) (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص١١٣ـ ١١٤).

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق في وصف الأفغاني: (والسيّد جمال الدين، من الشيعة كان أم من أهل السنّة، قد تسامى عن كلّ معاني التعصّب لفرقة من فرق المسلمين، بل هو تسامى عن كلّ معاني التعصّب الضيّق الذي يلقي بين النّاس إحناً وعداوات) (قدري قلعجي، المصدر السابق، ص٢٥).

وكان الأفغاني يميل إلى ما يشبه مبدأ النسبيّة في نظره إلى الأمور، يقول محمد المخزومي في خاطراته: (إنّ الأفغاني كان ذا موهبةٍ خاصّةٍ في قوّة الإقناع بحيث يستطيع أن يأتي بما يدلّ على استهجان شيءٍ واستحسانه في آنٍ واحدٍ، وقد سئل الأفغاني عن سرّ مقدرته هذه فكان جوابه: إنّ لكلّ شيء وجهين، ولكلّ إنسانٍ صفاتٌ طيّبةٌ وقبيحةٌ، وإنّ الحكم على الأشخاص والأشياء إنّما يختلف باختلاف الظروف واختلاف رغبة الناظر وموقفه، فإذا نظرنا إلى الشخص من جهة المحاسن مدحناه، وإذا نظرنا إليه من جهة المساوئ ذممناه.

ويذكر الأفغاني لتأييد رأيه هذه أمثلة من حياة النبيّ، فقد دُعي النبي ذات يوم إلى طعام رجل فقير، وكان إدامه الخل، فقال النبيّ: (نعم الأدم الخلّ) تطييباً لقلب الرجل الفقير الذي لا يملك سوى الخلّ، ثمّ

دعي النبيّ في يومٍ آخر إلى طعام رجلٍ موسرٍ وكان إدامه الخلّ أيضاً فقال: (بئس الأدم الخلّ)، فالنبيّ إذن قد مدح الخلّ وذمّه حسب اختلاف الظروف (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص٦٢ـ ٦٣).

مذهبه التوفيقي

عاش الأفغاني في عصرٍ كان الصراع في البلاد الإسلاميّة شديداً بين القديم والجديد، وكان أنصار القديم جامدين لا يريدون أن يتحوّلوا قيد شعرةٍ عمّا وجدوا عليه آباءهم، بينما كان أنصار الجديد مندفعين في تجديدهم بحيث كانوا يستهجنون كلّ قديمٍ بغضّ النظر عن محتواه.

وجاء الأفغاني يحمل رسالةً فكريّةً هي التوفيق بين الفريقين.

أحدث الأفغاني بمذهبه (التوفيقي) تأثيراً بالغاً في عقول الكثير من المسلمين لاسيّما ذوي الثقافة الحديثة منهم، فقد كان هؤلاء يعانون صراعاً نفسيّاً من جرّاء ما يرونه في العلوم الحديثة من مخالفة لبعض نصوص القرآن والمأثورات الدينيّة الأخرى، فكان من الصعب عليهم أن يشكّكوا في صحّة دينهم من جهةٍ، كما كان من الصعب عليهم من الجهة الأخرى أن يرفضوا ما جاءت به العلوم الحديثة من مخترعاتٍ ونظريّاتٍ عظيمةٍ.

وحين جاء الأفغاني إليهم بمذهبه (التوفيقيّ) وجدوا فيه ضالّتهم المنشودة فتهافتوا عليه وشغفوا به.

يحدّثنا محمد رشيد رضا عن تأثير المقالات التي قرأها في مجلّة

العروة الوثقى على تفكيره حين كان شابّاً، فيقول: (اتّفق لي أن كنت أقلّب أوراق والدي رحمه الله، فرأيت عددين من جريدة (العروة الوثقى) فقرأتهما بشوقٍ ولذّةٍ، ففعلا في نفسي فعل السحر، فطفقت أبحث عن سائر الأعداد فوجدت بعضها عند والدي، ووجدت الباقي عند أستاذي الشيخ حسين الجسر الطرابلسي، فاستنسخت الجميع وقرأته المرّة بعد المرّة، فانتقلت بذلك إلى طريقٍ جديدٍ في فهم الدين الإسلاميّ، وهو أنّه ليس روحانيّاً أخروياً فقط، بل هو دين روحاني جسمانيّ، أخروي دنيوي... وأحدث لي هذا الفهم الجديد في الإسلام رأياً فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين، فقد كان همّي قبل ذلك محصوراً في تصحيح عقائد المسلمين، ونهيهم عن المحرّمات، وحثّهم على الطاعات، وتزهيدهم في الدّنيا... فتعلّقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامّةً إلى المدنية، والمحافظة على ملكهم، ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقوّمات الحياة، فطفقت أستعدّ لذلك استعداداً، وكنت أبحث عن آثار السيّد وآثار الشيخ محمد عبده، وما قيل فيهما وما كتب عنهما.

وكنت أناضل دونهما، وأدافع عنهما بحماسةٍ وشدّةٍ حتّى لم يعد يتجرّأ أحدٌ على الطعن فيهما أمامي...) (محمد رشيد رضا، المصدر السابق، ج١ ص٨٤).

كان الأفغاني يشبه في مذهبه (التوفيقيّ) السيّد أحمد خان الهندي، إذ كانا كلاهما يواجهان الصراع نفسه بين القديم والحديث، غير أنّهما كانا مختلفين في موقفهما تجاه الاستعمار البريطانيّ، فالسيّد أحمد خان كان يميل إلى مهادنة الاستعمار وحصر الاهتمام بتعليم المسلمين وتثقيفهم، بينما كان الأفغاني يميل إلى العنف والثورة.



وممّا يجدر ذكره أنّ صراعاً يشبه الصراع الذي واجهه الأفغاني والسيّد أحمد خان كان قد حدث قديماً في الإسلام بعد ما ترجمت إليه الفلسفة الإغريقيّة، فقد نشب عند ذاك نزاعٌ شديدٌ بين المتفلسفين والمتديّنين، أي بين العقليين والنقليين، وأخذ كلّ فريقٍ منهما يكفّر الآخر ويحاول اضطهاده عند المقدرة عليه.

وجاء المفكّر الأندلسيّ المشهور ابن رشد[1] يريد التوفيق بين

---

(١) ابن رشد: وهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد الأندلسي (٥٢٠ـ ٥٩٥ هجرية) من أعاظم الفلاسفة وفحول الحكماء والأطباء في القرن السادس الهجري ولد في قرطبة وأخذ على أعلامها وحضر في الطب على أبي مروان بن جزيول وكما نبغ في علوم شتى منها الأدب والمنطق وعلم الأخلاق وسائر الفنون واشتهر بكثرة المطالعة وحسن الرأي ومرونة الفكر ودمثة الأخلاق مما جعله يقترب من ملوك الأندلس واحترمه يعقوب بن يوسف الملقب بالمنصور وقدره فأجله وقدمه وقد اتهمه خصومه بالكفر والزندقة والإلحاد فأوغروا عليه صدر المنصور فنفاه إلى مراكش وأحرق بعض كتبه ثم عفا عنه وأذن له بالعودة إلى وطنه فلم يمهله

الفريقين، فكان رأيه أنّ الفلسفة والدين كلاهما حقّ، فهما إذن لا يتعارضان لأنّ الحقّ لا يعارض الحقّ، وإذا ظهر اختلافٌ بينهما فسبب ذلك أنّ الدين موجه إلى العامة بينما الفلسفة موجهة إلى الخاصة، ومعنى هذا أنه اختلاف في الأسلوب وليس في المحتوى.

كان ابن رشد يعتقد أن الأنبياء والفلاسفة جميعاً يقصدون مصلحة البشر، وقد عرف الأنبياء طبيعة العامة فجاؤوا لهم بالشرائع التي تلائم تفكيرهم، فالأنبياء في رأي ابن رشد يحدثون الناس على قدر عقولهم، واستشهد في ذلك بقول لعلي بن أبي طالب حدثوا الناس على قدر عقولهم). فإذا وجدنا في الدين نصاً يخالف الفلسفة في ظاهره وجب علينا أن نلجأ إلى (التأويل) أي حمل النص على المعنى المجازي وترك المعنى الحرفي الذي هو إشارة ورمز (علي الوردي، منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته، القاهرة ١٩٦٢. ص٢١٥).

حين ندرس أفكار الأفغاني نجد رأي ابن رشد واضح الأثر فيها، يروي محمد المخزومي عنه أنه في أحد مجالسه في اسطنبول تطرق إلى ما يقال عن التناقض الموجود بين النصوص القرآنية والآراء العلمية (صورة) الحديثة فقال ما نصه: (عم الجهل وتفشى الجمود في كثير من المتردين برداء العلماء حتى تخرصوا على القرآن بأنه يخالف الحقائق العلمية الثابتة، والقرآن بريء مما يقولون، أثبت العلم كروية الأرض، ودورانها، وثبات الشمس دائرة على محورها، فهذه الحقيقة مع ما يشابهها من الحقائق العلمية لابد أن تتوافق مع القرآن، والقرآن يجب أن يُجلَّ عن مخالفته للعلم الحقيقي، وخصوصاً في الكليات. فإذا لم

الأجل وتوفي في مراكش ونقل جثمانه إلى قرطبة. له تصانيف نحو خمسين كتاباً منها فلسفة ابن رشد طبع مكرراً. الصالحي.

نر في القرآن ما يوافق صريح العلم، والكليات، اكتفينا بما جاء به من الإشارة ورجعنا إلى التأويل، إذ لا يمكن أن تأتي العلوم والمخترعات في القرآن صريحة واضحة وهي في زمن التنزيل مجهولة من الخلق كامنة في الخفاء لم تخرج لحيز الوجود. ولو جاء القرآن وصرح بالسكة الحديدية، والبرق وما تفعله الكهربائية من الغرائب، وغير ذلك، لضلت الناس وأعرضت عنه، وحسبته كذباً. لذلك نراه قد جاء بالإشارة إلى كل ما هو حادث اليوم، وما هو ممكن أن يحدث في مستقبل الزمن مع مراعاة عقول الخلق وتقريب الأشياء للأذهان عن طريق نظرهم وقابلية فهمهم) ثم أخذ الأفغاني يورد أمثلة من القرآن يؤيد بها رأيه هذا، فالتنويم المغناطيسي والتلغراف والطيران وكروية وما يتنبأ به الفلكيون من اختلاف النظام الشمسي في المستقبل كلها وردت في القرآن عن طريق الرمز والإشارة، والواجب علينا أن نلجأ إلى التأويل لنستخرج المعنى الحقيقي منها وهو المعنى الذي لا يتعارض مع مكتشفات العلم الحديث (محمد المخزومي، المصدر السابق، ص١٠٠ ـ ١٠٤).

إن هذا المذهب (التوفيقي) الذي اتبعه الأفغاني قد تأثر به الكثيرون من بعده، وكان أول من تأثر به في العراق السيد هبة الدين الشهرستاني[1]

(١) هبة الدين الشهرستاني واسمه محمد علي بن السيد حسين العابد الحائري المعروف بالشهرستاني (١٣٠١-١٣٨٦ هجرية) من أعيان العلماء المجددين ومن دعاة الإصلاح الديني. ولد في سامراء، ونشأ في كربلاء، وأخذ العلوم الإسلامية في كربلاء على أعلامها وتخرج من النجف وسكن الكاظمية وشارك في الثورة العراقية الكبرى فاعتقله الإنجليز وحكم عليه بالإعدام. ثم شمله العفو العام وتولى وزارة المعارف العراقية ورئاسة مجلس التميز الشرعي الجعفري ونائباً عن لواء بغداد في مجلس الأمة. وله مؤلفات نافعة منها الهيئة والإسلام المطبوع مكرراً وله فتاوى أحدثت ضجة كبرى منها في تحريم ضرب الرؤوس بالسيوف في يوم عاشوراء، وتحريم نقل الجنائز من الأماكن البعيدة وتحريم طواف الجنائز حول ضريح الأئمة المعصومين (ع) وغيرها. وكان من أصحاب والدي منذ أيام ثورة العشرين. وفي أغلب

إذ هو أخرج في عام ١٩١١م كتاباً عنوانه (الهيئة والإسلام) حاول فيه التدليل على أن جميع النظريات الفلكية الحديثة قد وردت في القرآن أو وردت على لسان النبي والأئمة الاثني عشر.



ونجد هذا المذهب رائجاً اليوم في مصر وله أتباعه والمعجبون به، وقد أصدر أتباعه وما زالوا يصدرون الكتب العديدة يريدون أن يبرهنوا بها على أن القرآن يحوي جميع ما جاءت به العلوم الحديثة من مخترعات ونظريات. ولست أعدو الصواب إذا قلت إنهم أفرطوا في هذا الاتجاه إفراطاً غير مستساغ، فقد أصبح القرآن في أيديهم كأنه كتاب فلك وطب وجيولوجيا وكيمياء وفيزياء، وبهذا خرجوا عن الإطار الذي وضعه الأفغاني والهدف الذي كان يسعى إليه.

الزيارات المخصوصة في كربلاء يراجع مكتبتنا ويحل ضيفاً على والدي. قدس سرهما.

المرزا باقر البواناتي[1]

لعل من المستحسن في ختام سيرة الأفغاني أن نتحدث بإيجاز عن سيرة رجلين كانت لهما صلة وثيقة به هما: المرزا باقر البواناتي والشيخ محمد عبده. ولنبدأ بالأول منهما.

الواقع أن المرزا باقر رجل غامض كل الغموض ونحن لا نعرف شيئاً محققاً عن نشأته وبداية أمره. وقد اختلفت الأقوال والروايات في ذلك. ففي رواية المرزا لطف الله خان: أنه كبير علماء بوشهر وكان يلقب بـ (يوحنا زمانه) لما عرف به من علم وفضل، وقد تعرف بالأفغاني عندما

---

(١) الشيخ الميرزا محمد باقر بن صابر الشيدائي البواناتي (المتوفى حدود ١٣١٠ هجرية) المعروف بإبراهيم المعطر. شاعر مبدع مفكر فيلسوف أديب كبير. ولد في إحدى قرى بوانات في منطقة فارس وهاجر في أوائل شبابه إلى شيراز وأخذ العلوم القديمة على أعلامها وكان فطناً متحرراً. له ذكاء مفرط وفراسة قوية. تعلم الإنكليزية ونزع العباءة والعمامة وظهر منه بعض العبارات الفلسفية التي لم يتوقها العوام وخوفاً على حياته فرَّ من شيراز إلى بوشهر ثم عمل مترجماً في القنصلية البريطانية ومنها سافر إلى لندن وهو أستاذ المستشرق المعروف إدوارد برون وذكره في مقدمة كتابه (تاريخ أدبي إيران) وله مؤلفات مخطوطة ومطبوعة منها شمسية لندنية. طبع في لندن سنة ١٨٨٢م وسدريه ناسوتيه وغيره. الصالحي.

مر هذا ببلدة بوشهر في عام ١٨٥٧م على أثر عودته من الهند، وأعجب بالأفغاني واعتقد بصحة آرائه واتبع نصائحه وإرشاداته (صادق نشأت وعبد النعيم حسنين، المصدر السابق، ص٥٥).

وجاء في رواية أخرى رواها الشيخ عبد القادر المغربي: أن المرزا باقر كان في صغره قد تعلم في مدارس الهند البريطانية وأعلن تنصره وسمى نفسه (مرزا يوحنا)، ثم دخل في خدمة الجيش البريطاني عند احتلاله بوشهر حيث صار ترجماناً لقائد الجيش، وكان أثناء ذلك ينظم القصائد في هجاء النبي محمد، ولما جاء الأفغاني إلى بوشهر وسمع بهجائه للنبي حرض الأهالي على ضربه، وصار الأهالي يضربونه ضرباً مبرحاً حتى أنهكوه وسال الدم من فمه ومنخره وهو يستغيث بالنبي والحسين (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص٥٤ـ٥٥).

وللسيد هبة الدين الشهرستاني رأي آخر في المرزا باقر، إذا قال عنه في مجلة (العلم) ما مفاده: أن المرزا باقر كان من كبار فلاسفة إيران الذين قذفتهم الحكومة الاستبدادية إلى الخارج، وكان من طبقة السيد جمال الدين الأفغاني وفي عصره. وروى الشهرستاني عمن يثق به أن المرزا باقر جمع القرآن على ترتيب أزمنة نزوله ابتداءً من سورة (العلق) حتى ينتهي إلى آخر سورة من القرآن وهي (المائدة)، ثم ترجم ذلك كله إلى اللغة الإنكليزية، فعظم ذلك على أكثر علماء الدين في إيران وتكلموا عليه بما لا يليق به (مجلة العلم النجفية في عددها الصادر في شباط ١٩١١).

هذا هو ما قاله الرواة عن المرزا باقر في بداية أمره، ثم تمر عليه بعد ذلك فترة طويلة لا نعرف بها عنه شيئاً، حتى إذا حل عام ١٨٧٠م نرى المرزا باقر في بغداد مشتبكاً في جدال مع الكاتب التركي أحمد مدحت أفندي الذي كان محرراً لجريدة الزوراء، وكان هذا الكاتب في ذلك

الوقت ملحداً فأخذ المرزا باقر يحاوره ويناقشه حتى استطاع أن يرجعه إلى الإيمان من جديد (محمد رشيد رضا، المصدر السابق، ج١ ص٨١٩).

ورحل المرزا باقر بعدئذ إلى بيروت حيث تزوج فيها بامرأة من أسرة معروفة هي أسرة آل الخطيب فرزق منها ببنت وولد، ولا يزال الولد حياً يعيش في بيروت اسمه (محمد الباقر) وأحسب أنه الآن في العقد العاشر من عمره، أو لعله قد مات بعد كتابة هذه السطور.

وفي عام ١٨٨٣م سافر المرزا باقر إلى باريس، وكان الأفغاني يومذاك فيها يصدر مجلة (العروة الوثقى)، فذهب المرزا باقر إليه يعرض خدماته عليه وأخبره بأنه تاب وكفر عن ذنبه القديم وصار داعية للإسلام ومبشراً به. وقد كلفه الأفغاني بالذهاب إلى لندن ليكون مراسلاً للمجلة فيها يترجم لها من الصحف البريطانية.

صار المرزا باقر في لندن من أكبر الدعاة للإسلام وأشدهم حماساً، فكان يطبع نشرات في الدعوة للإسلام ويقف على أبواب الكنائس ليدس نشراته في أيدي الداخلين والخارجين (عبد القادر المغربي، المصدر السابق، ص٥٦). واتخذ له مُهراً مربع الشكل كتب فيه عبارة (انكسر الصليب) وعبارة (مات الخنزير)، فكان هذا المهر بمثابة شعار له يطبعه على صدور رسائله (أصغر مهدوي وإيرج أفشار، المصدر السابق، تصوير ٩٠-٩١-٩٢).

وحين جاء الشيخ محمد عبده إلى لندن مبعوثاً من قبل الأفغاني لمفاوضة الحكومة البريطانية حول قضية مصر والسودان كان المرزا باقر مترجماً للشيخ في مفاوضاته. والغريب أن المرزا باقر لم يترك التبشير بالإسلام حتى في وقت المفاوضات، فكان الشيخ يقول له (ليس هذا وقته)، ويرجوه أن يؤجل التبشير إلى وقت آخر، ولكن المرزا باقر لم

يكن يصغي للرجاء...

وحدث ذات يوم أن نظم أحد شعراء الهند قصيدة بليغة في مدح الملكة فيكتوريا، فكلفوا المرزا باقر بترجمتها إلى اللغة الإنكليزية وقد أتقن المرزا ترجمتها بحيث نالت إعجاب الملكة فأمرت بمنحه خمسمائة جنيه، ولكن المرزا باقر رد المبلغ وقال إنه يطلب جائزة أخرى هي دخول الملكة فيكتوريا في الإسلام (محمد رشيد رضا، المصدر السابق، ج١ ص٨١٨).

كان المرزا باقر في لندن يسكن غرفة قذرة ضيقة وهو محاط بأكوام من الكتب يعلوها الغبار، وكان أكثر تلك الكتب باللغة الفارسية والعربية وفي مواضيع دينية، وكان بعضها باللغة العبرية والإنكليزية، وقد زاره المستشرق براون في غرفته هذه، وأعطانا عنه وصفاً عجيباً إذ قال: إنه لم يشهد في حياته رجلاً يعيش في عالم خيالي من صنعه مثل المرزا باقر، فهو لا يبالي بمصلحته الشخصية ولا براحته ولا يكترث للمال أو بالتقرب من أولى النفوذ، وكثيراً ما ينفر الناس منه لشدة ما يهاجمهم في أعز معتقداتهم، كما ينفر منه أصدقاؤه لكثرة كلامه الذي لا ينقطع، وهو قد تحول في عقيدته الدينية من التشيع إلى التصوف، ثم إلى المسيحية فالإلحاد فاليهودية، وانتهى أخيراً إلى إنشاء دين خاص به سماه (المسيحية الإسلامية)، فقد كان جدلياً شديد الثرثرة بعيداً عن التعقل وغير واقعي (صورة) إلى أبعد الحدود ولكنه على الرغم من كل ذلك لا يستطيع الإنسان إلا أن يحترمه ***Edward browne. A year among the Persians.)*** ***(14-Cambridge 1927 p13***

وفي أواخر عام ١٨٨٤ عاد المرزا باقر إلى بيروت لابتلاء ابنته بالسل، وهناك التقى بالشيخ عبده مرة ثانية، وكذلك التقى بخادم الأفغاني القديم

عارف أبو تراب، فاتفق الثلاثة على إنشاء جمعية باسم (جمعية التأليف والتقريب) هدفها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة أي الإسلام والنصرانية واليهودية، والدعوة إلى نبذ التعصب في الدين، وتأليف الكتب التي تصور الأديان الثلاثة بروح الإنصاف والمحبة، والتعاون على إزالة الضغط الأوروبي على الشرق، وتعريف الإفرنج بحقيقة الإسلام. وقد انتمى إلى هذه الجمعية عدد من المفكرين الإيرانيين والأتراك والهنود والإنكليز واليهود كالقس إسحق تيلر في لندن، والوزير مؤيد الملك في طهران، وحسن خان مستشار السفارة الإيرانية في اسطنبول، والمستر لينتر مفتش المدارس في الهند.

كان المرزا باقر والقس تيلر من أشد الأعضاء حماساً في العمل لهذه الجمعية بالقول والكتابة، ويقال إن الشيخ محمد عبده أرسل هو وجماعة من علماء الشام رسالة إلى القس تيلر في موضوع التقريب الذي كان القس يعمل له في لندن، فلما علم السلطان عبد الحميد بالأمر كلف سفيره في لندن بالتحقيق فيه والتعرف على أسماء موقعي الرسالة. وعندما حصل السلطان على الأسماء أوعز بنفيهم.... (قدري قلعجي، محمد عبده، بيروت ١٩٤٨، ص٦٣ـ٦٥).

مهما يكن الحال فقد تم إبعاد المرزا باقر فعلاً، وذهب إلى إيران حيث مات فيها في عام ١٨٩٠م أو بعده بقليل. أما الشيخ محمد عبده فله قصة أخرى سنأتي إليها فيما يلي:

الشيخ محمد عبده

ولد الشيخ محمد عبده عام ١٨٩٤م في قرية صغيرة من قرى الوجه البحري من أب فلاح، ونشأ كما ينشأ أبناء الفلاحين حافياً عاري الرأس (صورة) يجري في الأزقة ويلعب في التراب ويسبح في الترع (مصطفى عبد الرزاق، محمد عبده، القاهرة ١٩٤٦ ص١٧)، وحين بلغ الثالثة عشرة أرسله أبوه إلى المسجد الأحمدي في طنطا يتعلم تجويد القرآن ومبادئ العلوم الدينية، وفي عام ١٨٦٦م التحق بجامع الأزهر وبقي فيه اثنتي عشرة سنة.



كان الشيخ محمد عبده من أوائل الذين اتصلوا بالأفغاني وتتلمذوا عليه، وهو يحدثنا في مذكراته عن بداية اتصاله بالأفغاني فيقول: إنه بعد أن حضر حلقات الأزهر ثلاث سنوات سئم الدروس المعتادة فيها وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً وتميل إلى العلوم العقلية، ثم ذهب لحضور درس الشيخ حسن الطويل الذي كان معروفاً في الأزهر بعلم المنطق فلم يجد فيه ما يشفي غليله، وفي ذات يوم جاءه أحد الشاميين من المجاورين في الأزهر يخبره بأن عالماً أفغانياً عظيماً جاء إلى مصر وهو يقيم في خان الخليلي وكان يقصد بذلك السيد جمال الدين الأفغاني فذهب محمد عبده مع الشيخ حسن الطويل إلى حيث يسكن الأفغاني فوجداه يتناول عشاءه، وبعد القيام بما تقتضيه آداب المجاملة طفق الأفغاني يسألهما عن بعض آيات القرآن وما قاله المفسرون المتصوفة فيها، ثم أخذ يفسرها لهما تفسيراً جعل محمد عبده يمتلئ قلبه إعجاباً بالأفغاني وشغفاً به (محمد رشيد رضا، المصدر السابق، ج١ ص٦٥-٦٦) ومنذ ذلك الحين أصبح محمد عبده من تلاميذ الأفغاني المختصين به.

ظل محمد عبده ملازماً للأفغاني حتى يوم نفيه من مصر في عام١٨٧٩م، وعندما قامت الثورة العرابية[1] في عام ١٨٨٢م اشترك محمد

---

(١) الثورة العرابية: زعيمها هو أحمد بن محمد عرابي (١٢٥٧-١٣٢٩ هجرية) من الثوار المصريين الذين تركت لهم ثورتهم ذكراً في تاريخ مصر الحديث. أصله من قبيلة المحامدة. انتقل جدهم من بطائح العراق إلى مصر في أواسط القرن السابع الهجري. ولد أحمد عرابي في قرية هرية رزنة من قرى الزقازيق بمصر ودخل في الأزهر سنتين ثم انخرط في الجيش سنة ١٢٧١هجرية وبلغ رتبة أميرالاي في أيام الخديوي توفيق. اجتمع عدد من الضباط وانتدبوا أحمد عرابي للمطالبة بمطالبهم ومنها عزل عثمان رفقي من الجهادية وتأليف مجلس نواب فقرر الخديوي محاكمة عرابي فقبض عليه مع اثنين من أصحابه فهاج الضباط الوطنيون وأخرجوا المعتقلين وأعيد عرابي إلى الجهادية وظلت مصر بلا وزارة إلى أن تألفت وزارة راغب باشا ووقعت المذبحة الإسكندرية في وضربها الإنكليز سنة ١٢٩٩ هجرية واستولوا على التل الكبير بعد

عبده فيها، فلما أخفقت الثورة واحتل الجيش البريطاني مصر ألقي القبض عليه وأودع في السجن ثلاثة أشهر، ثم حكمت المحكمة عليه بالنفي ثلاث سنوات يقضيها خارج البلاد.



عرابي باشا

كان قد حكم بالنفي مع الشيخ محمد عبده على أشخاص آخرين كإبراهيم اللقاني وحسن الشمسي، وهم كانوا مثله من تلاميذ الأفغاني ومن الماسونيين أيضاً، فذهبوا إلى بيروت، وهناك احتفى بهم الماسونيون اللبنانيون وساعدوهم، يقول شاهين مكاريوس[1] في كتابه (فضائل الماسونية) ما نصه:

معارك طاحنة ودخلوا القاهرة فحلوا الجيش المصري ونفوا عرابي إلى جزيرة سيلان تسعة عشر عاماً ثم عاد إلى مصر في أيام الخديوي عباس ١٣١٩هجرية وتوفي في القاهرة. الصالحي.

(١) شاهين بن مكاريوس (١٢٦٩-١٣٢٨ هجرية) صحفي بارع كاتب فذ ولد في قرية إبل السقي من مرج عيون بلبنان ونشأ وتعلم في بيروت. قُتل أبوه في حادثة سنة ١٨٦٠م وحملته أمه إلى بيروت فتعلم الطباعة وتولى إدارة مجلة المقتطف ببيروت سنة ١٨٧٦م ورحل إلى مصر وهناك خدم الماسونية وألف عدداً من الكتب في تاريخ الماسونية ومات في حلوان ودفن في القاهرة. الصالحي.

(وقد ظهرت الماسونية في سورية في مظهر الإخلاص والمحبة أثناء الحوادث العرابية سنة ١٨٨٢م، فإن الإخوان المصريين والمهاجرين الذي جاؤوا إلى سورية قابلهم إخوانهم بالترحيب العظيم ودعوهم إلى محافلهم ومنازلهم، وكان الأفاضل الشيخ محمد عبده وإبراهيم بك اللقاني وحسن بك الشمسي وجماعة المرحوم السيد جمال الدين الأفغاني وغيرهم يحضرون معنا محفل لبنان ويخطبون فيشنفون أسماع السوريين بخطبهم النفيسة وأحاديثهم الطلية، ونال الأستاذ الشيخ محمد عبده رتبة البلح والصدف من المندوب الأميركي الذي حضر إلى محفل لبنان، وكنا وقتئذ من العاملين في المحفل....) (شاهين مكاريوس، فضائل الماسونية) القاهرة ١٨٩٩، ص١٢٤).

لم يمكث الشيخ محمد عبده في بيروت سوى سنة واحدة، ثم استدعاه الأفغاني إلى باريس لإصدار مجلة (العروة الوثقى) على نحو ما ذكرناه سابقاً. يقول المستر بلنت: إن الشيخ محمد عبده لم يمض على إقامته في باريس شهران حتى أصبح (أوروبياً متفرنساً)، فترك عادة حلق الرأس حلقاً تاماً على طريقة المشايخ، وأطال شعر رأسه ولحيته حتى صار مظهره يحاكي مظهر الفنانين الأوروبيين (قدري قلعجي، المصدر السابق، ص٥٢).

وبعد أن توقفت مجلة (العروة الوثقى) عن الصدور، عاد الشيخ إلى بيروت واستقر فيها. وقد شرح هناك (نهج البلاغة)، كما ترجم كتاب الأفغاني (الرد على الدهريين) من الفارسية إلى العربية وذلك بمساعدة خادم الأفغاني عارف أبو تراب.

صار الشيخ يلقي الدروس في الجامع الكبيرة أو في جامع الباشورة، كما كان يقضي أكثر أمسياته في بيت الحاج محي الدين حمادة رئيس

بلدية بيروت، ثم تزوج بعد وفاة زوجته القديمة امرأة بيروتية هي ابنة أخي الحاج محي الدين. وقد أعجب أهل بيروت بالشيخ محمد عبده وأقبلوا على مجلس سمره وحلقة درسه إقبالاً لم تشهد بيروت له مثيلاً من قبل. يقول شكيب أرسلان وهو من رواد مجلسه: (إن مجلس الشيخ كان يضم علماء السنة ومجتهدي الشيعة وعقال الدروز، وإلى جانبهم أساقفة النصارى وأحبارهم من كل فريق، كما كان يضم بعض الملحدين أحياناً، إذ وجد فيه الجميع مرجعاً عاماً لسعة عقله وعلو إدراكه وإحاطة نظره). (المصدر السابق، ص٥٧-٥٨). وقد كان عباس أفندي رئيس البهائيين[١] من رواد مجلسه كذلك.

كان أصدقاء الشيخ محمد عبده في مصر يسعون لإصدار العفو عنه والسماح له بالعودة إلى مصر، ولكنّ الخديوي توفيق باشا كان يكرهه ولم يقبل بإصدار العفو عنه إلّا بضغطٍ من الإنكليز (أحمد أمين، محمد عبده، القاهرة، ١٩٦٠، ص٦٠).

وقد عُيّن الشيخ عند عودته قاضياً، ثمّ ارتقى في عام ١٨٩٠م إلى منصب مستشار في محكمة الاستئناف، وظلّ في هذا المنصب تسع

(١) عباس أفندي بن حسين علي النوري (١٢٦٠-١٣٤٠ هجرية) الملقب بعبد البهاء وغصن الأعظم وهو زعيم البهائية. أصله من بدة نور في مازندران على بحر قزوين مولده في طهران وبعد محاولته الفاشلة لقتل ناصر الدين شاه القاجاري في قصر (صاحبقرانه) قام الشاه بقتل جمع غفير من أحرار إيران باسم البابية. وعلى الرغم من أنهم كانوا من رؤوس البابية لم يتعرض لهم الشاه فنفي مع أبيه وجمع من أنصارهم إلى العراق فأقاما اثنتي عشرة سنة في العراق ثم أبعدتهم الحكومة العثمانية إلى أدرنة. وبعد مضي نحو خمس سنوات أرسلتهم الحكومة العثمانية إلى قلعة عكة في فلسطين المحتلة. وبعد وفاة أبيه خلفه عباس أفندي في خلافة قومه وزار أوروبا سنة ١٣٣٠ هجرية وأميركا سنة ١٣٣١ هـ وعاد إلى فلسطين ومات بحيفا وكان نشطاً في نشر بدعته وخلفه في زعامة قومه بوصية منه سبطه شوقي رباني المتوفى سنة ١٣٧٧ هجرية وهو آخر هذه السلالة. الصالحي.

سنوات، ثمّ صار أخيراً المفتي الأكبر للديار المصريّة.

ترك الشيخ السياسة وطلّقها ثلاثاً، وقال في ذلك كلمته المشهورة وهي: (أعوذ بالله من السياسة، ومن لفظ السياسة، ومن معنى السياسة، ومن كلّ حرفٍ يلفظ من كلمة السياسة، ومن كلّ خيالٍ يخطر ببالي عن السياسة، ومن كلّ أرضٍ تذكر فيها السياسة، ومن كلّ شخصٍ يتكلّم أو يتعلّم أو يجنّ أو يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس، وسائسٍ ومسوس) (قدري قلعجي، المصدر السابق، ص٧٠ـ ٧١).

ويروي تلميذه محمد رشيد رضا: أنّ الشيخ عند عودته إلى مصر ترك الماسونيّة أيضاً فقد دعاه الماسونيون إلى محافلهم فلم يجبهم، وأهدوا إليه وساماً فلم يقبله، ولمّا سئل في ذلك أجاب: (إنّ عملها في البلاد التي وجدت فيها العمل قد انتهى وهو مقاومة الملوك والباباوات).

وقال تلميذه محمد رشيد رضا: (إنّ دخوله فيها كان لغرض سياسي اجتماعيّ وأنّه تركها من سنين فلن يعود إليها) (مجلّة المنار القاهرية، المجلّد الثامن، ص٤٠٢).

انهمك الشيخ محمد عبده في المرحلة الأخيرة من حياته بأمرين: أوّلهما تنقية الدين الإسلاميّ من الشوائب التي طرأت عليه، والثاني تقريب المسلمين من الحضارة الحديثة ليستفيدوا منها علمياً وصناعياً وتجارياً وسياسياً (جرجي زيدان، بناة النهضة العربية، القاهرة، ص٨٤).

وكان الشيخ مثل أستاذه الأفغاني يتبع منهج ابن رشد في أمر التوفيق بين المعقول والمنقول، فهو يقول في هذا الشأن: (فإنا معشر المسلمين نعلم على القطع أنّه لا يؤدّي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع فإنّ الحقّ لا يضادّ الحقّ، بل يوافقه ويشهد عليه).

ويقول أيضاً:

(ونحن نقطع قطعاً أنّ كلّ ما أدّى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع أنّ ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي) (مصطفى عبد الرازق، المصدر السابق، ص٧٢ـ ٧٣).

وقد أدّى هذا المنهج (الرشدي) بالشيخ محمد عبده إلى تحليل الكثير من الأمور الحضاريّة الحديثة التي اعتاد رجال الدين على تحريمها.

فرجال الدين ينظرون إلى تلك الأمور نظرةً شكليّةً بحتة دون اهتمامٍ بمحتواها وحقيقتها، أمّا الشيخ فكان اهتمامه بمحتوى الأمور أكثر من اهتمامه بالشكليّات والنصوص.

خذ البنوك مثلاً، فرجال الدين يحرمونها باعتبارها ربا استناداً إلى التعريف الشكلي للربا، أمّا الشيخ فيعتبر البنوك وسيطةً بين المالكين للمال من جهةٍ والقادرين على استثمار المال من الجهة الأخرى، أي أنّها كالسمسار الذي يتوسّط في إيجار الدور بين مالكيها ومستأجريها، وهي تأخذ على ذلك أجرةً بنسبة المبلغ كالسمسار.

إنّ البنوك في نظر الشيخ محمد عبده إذن لا تتعاطى الربا أو تستغلّ المعوزين على منوال ما كان المرابون يفعلونه في أيّام الجاهليّة، بل هي تقوم بوظيفةٍ اقتصاديّةٍ ضروريّةٍ، ولولاها لما وصل الاقتصاد الحديث إلى هذا النموّ العجيب.

سئل الشيخ محمد عبده ذات يومٍ عن الحديث النبويّ القائل بحرمة التصوير وهو: (أشدّ النّاس عذاباً يوم القيامة المصوّرون)، فأجاب الشيخ: إنّ هذا الحديث قيل في أيّام الجاهليّة عندما كانت الصور تتّخذ للتبرّك والعبادة، فلمّا زالت عادة التبرّك والعبادة زالت الحرمة معها.

وكان الشيخ في إحدى سفراته قد مرّ بإحدى المدن المصريّة فأقبل عليه أعيانها يسلّمون عليه وكان من بينهم رجال المحكمة الشرعيّة، وأخذ أحدهم يحدّثه عن دخول الكثير من أهل مدينتهم في الإسلام، ولهذا فهو مشغولٌ مع زملائه بأمر تعليم المسلمين الجدد أركان الدين، وذكر مثلاً تعليمهم كيف يغسلون وجوههم في الوضوء وما هي حدود الوجه وأين يبدأ وأين ينتهي.

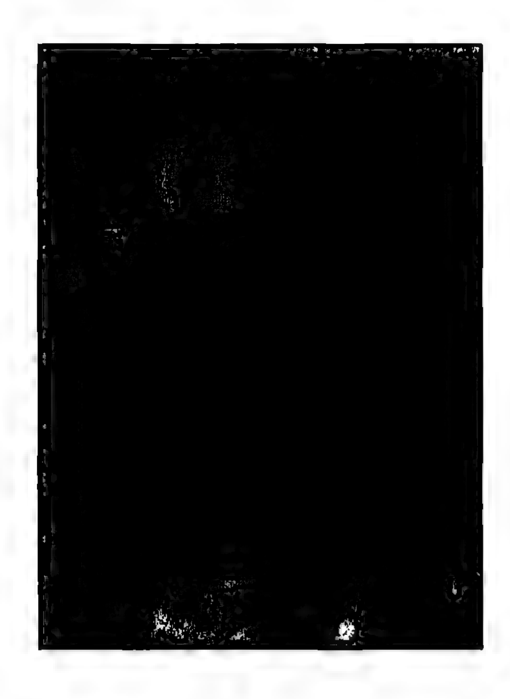
فقال له الشيخ محمد عبده: (سبحان الله ياسي الشيخ! قل له: يغسل وجهه، كلّ إنسانٍ يعرف حدود وجهه من غير حاجةٍ إلى مساح!) (قدري قلعجي، المصدر السابق، ص١٢٠ـ ١٢١).

وفي يومٍ آخر ورد إلى الشيخ محمد عبده استفتاءٌ شرعيٌّ حول لبس القبّعة، وكان الاستفتاء قد جاء من مسلم يسكن الترنسفال في جنوب إفريقيا، فأجاب الشيخ في ذلك ما نصّه: (أمّا لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج عن الإسلام والدخول في دينٍ غيره فلا يعدّ كفراً، وإذا كان اللبس لحاجةٍ من حجب الشمس أو دفع مضرّةٍ أو دفع مكروهٍ أو تيسير مصلحةٍ لم يكره ذلك) (أحمد أمين، المصدر السابق، ص٨١).

أحدث الشيخ محمد عبده بآرائه هذه ضجّةً كبرى في مصر، وانقسم النّاس حوله بين مؤيّدين ومعارضين، فالمؤيدون يعتبرونه إماماً من جملة الذين يبعثهم الله على رأس كلّ مائة سنةٍ لتجديد الإسلام حسبما ورد في الحديث الشريف، أمّا المعارضون فاعتبروه الدّجال الذي يظهر في آخر الزمان.

ومن الجدير بالذكر أنّ الشيخ محمد عبده كان وثيق الصلة بالمندوب السامي البريطاني في مصر اللورد كرومر، ويدافع أنصار الشيخ عنه في هذا الشأن قائلين: إنّه كان يتّصل بالإنكليز ليستعين بهم على (صورة)

القيام بمشاريعه الإصلاحيّة، وقد سئل الشيخ ذات مرّةٍ في موضوع الاستعانة بالأجانب فكان جوابه: (قد قامت الأدلّة من الكتاب والسنّة وعمل السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين غير الصالحين على ما فيه خيرٌ ومنفعةٌ للمسلمين... فعلى دعاة الخير أن يجدوا في دعوتهم، وأن يمضوا على طريقتهم، ولا يحزنهم شتم الشاتمين، ولا يغيظهم لوم اللائمين، فالله كفيلٌ لهم بالنّصر إذا اعتصموا بالحقّ والصبر) (المصدر السابق، ص٦٤ـ ٦٧).



في عام ١٨٩٢م مات توفيق باشا فحلّ محلّه على عرش الخديويّة ابنه عباس الثاني[1]، وكان هذا الخديوي الجديد يومذاك في الثامنة عشرة من

(١) عباس حلمي بن توفيق (١٢٩١ ـ ١٣٦٣هجريّة) حفيد محمد علي الخديوي من الزعماء الذين حكموا مصر من أسرة الخديوي، ولد بالقاهرة وتعلّم في مدرسة عابدين، ثمّ تخرّج من فيينا وولي عرش مصر بعد وفاة أبيه سنة ١٣٠٩هجريّة، وفي أيّامه نبغ مصطفى كامل باشا والشيخ محمد عبده وشوقي الشاعر ونشبت الحرب العالميّة الأولى وهو مصطاف في اسطنبول سنة

عمره وهو يختلف عن أبيه من بعض النواحي ولاسيّما من حيث سياسته تجاه الإنكليز.

كان توفيق موالياً للإنكليز ومنسجماً مع اللورد كرومر، أمّا ابنه عباس فكان يضمر العداء لهم وأخذ يجمع الأنصار حوله لمقاومتهم، ولهذا انشقّ رجال الفكر والسياسة في مصر إلى فريقين متصارعين: فريق الخديوي وفريق اللورد كرومر.

كان فريق الخديوي يدعون إلى مكافحة الاحتلال البريطاني وإلى الالتفاف حول السلطان عبد الحميد وتأييد الجامعة الإسلاميّة، وكان أشهرهم في ذلك شابٌّ نابغٌ اسمه مصطفى كامل[1].

فقد احتضن الخديوي عباس هذا الشابّ ومنحه لقب (باشا) وأيّده بالمعونة الماديّة والمعنويّة.

وقد أسّس مصطفى كامل حزباً شعبيّاً باسم (الحزب الوطني)، كما أصدر جريدةً له باسم (اللواء)، وصار يواصل الخطابة والكتابة بنشاطٍ لا يفتر، فأحدث في الرأي العام المصريّ تأثيراً قويّاً واسع النطاق.

١٩١٤م فخلعه الإنجليز، واستقرّ في لوزان بسويسرة، وقضى حياته مغترباً، وتوفي بسويسرة ودفن في القاهرة.

(١) مصطفى كامل باشا بن علي محمد (١٢٩١ ـ ١٣٢٦هجريّة) من أحرار مصر الثائرين، كاتبٌ بارع ومتكلّم فذّ ساحر البيان وفصيح الكلام، أحد مؤسّسي نهضتها الوطنيّة. مولده ووفاته في القاهرة، أحرز شهادة الحقوق من جامعة (تولوز) بفرنسة قبل بلوغه العشرين ثمّ انصرف إلى مقاومة الاحتلال الإنجليزي بخطبه ومقالاته وكتبه، وأنشأ جريدة اللواء اليوميّة سنة ١٩٠٠م وكذلك جريدة بالإنجليزية وأخرى بالفرنسيّة، وسمّى كلّاً منهما أيضاً باللواء، وأخذ يتنقّل في طول وعرض البلاد وخارجها سعياً وراء استقلال بلاده، وأسّس الحزب الوطنيّ فانعقد أوّل اجتماعٍ له سنة ١٩٠٧م، وانتخب رئيساً له طول حياته وتوفّي شابّاً.

أمّا الفريق الآخر فكان رأيه أنّ جلاء الإنكليز عن مصر لا يتمّ إلّا عن طريق استنارة الشعب وفهمه لحقوقه وواجباته، فالشعب الجاهل يساعد الأعداء على نفسه، ولهذا يجب الاهتمام بتعليم الشعب وتثقيفه قبل الشروع بمحاربة الاستعمار.

وكان من أهمّ رجال هذا الفريق الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ولطفي السيّد، وقد تابعهم على هذا الرأي الكثير من المتعلّمين والباشوات وأصحاب الأطيان.

وأصبح الصراع بين هذين الفريقين أو الحزبين شديداً أشغل النّاس خلال بضع عشرة سنة، وصارت جهود الشيخ محمد عبده في الإصلاح الديني موضع تهمةٍ في نظر خصومه حيث اتّهموه بأنّه متآمرٌ مع الإنكليز لهدم الإسلام.

وأخذ الحزب الوطنيّ وعلى رأسه مصطفى كامل يحاربه ويرميه بالمروق من الوطنيّة، صارت التقارير تكتب ضدّه إلى اسطنبول، فلمّا زار الشيخ محمد عبده اسطنبول استقبل فيها استقبالاً سيّئاً، واتّخذت التدابير لإهانته لولا لطف الله (المصدر السابق، ص٧٩ـ ٨٠).

وعندما انتشرت فتوى الشيخ في تجويز لبس القبعة اتّخذ خصومه تلك ذريعةً للتشنيع عليه، وانبرت جريدة اللواء وبعض الجرائد الأخرى تهيّج العامّة عليه، وعمد بعضها إلى تشويه سمعته وشتم عرضه، ولفّقوا عليه صورةً فوتوغرافيّةً تمثّله وهو يخاصر فتاةً إفرنجيّةً وكلبها يعبث بأطراف جبّته (عباس محمود العقاد، محمد عبده، القاهرة، ١٩٦٣، ص٢٤٣).

وفي عام ١٩٠٥م أصيب الشيخ محمد عبده بالسرطان، ومات في ١١ تموز من العام نفسه، وقد جرى لجنازته تشييعٌ عظيمٌ، وكان الخديوي

يومذاك متغيّباً عن مصر، فلمّا عاد إليها غضب على الذين شاركوا في جنازته وقال فيهم موبّخاً: (ألم يعتقدوا ما كان عليه المفتي من العداء والمعاكسة للدين وأهله وأنصاره...) (قدري قلعجي، المصدر السابق، ص١١٦).

الملحق

إلى هنا تمّ كلام الدكتور علي الوردي ونضيف ما يلي عندما يستعرض الإنسان حياة السيّد جمال الدين وكفاحه ضدّ قوى الشرّ وتحرير الشعوب الإسلاميّة من حكّامها الجائرين والاستعمار البغيض يرى أنّه قد حقّق آماله ووصل في نضاله إلى جميع أهدافه السامية، إلّا أنّه لم يمهله الأجل المحتوم حتى يشاهد ثمرات كفاحه وجهاده لإعلاء كلمة الإسلام وحريّة الشعوب الإسلامية التي ناضل من أجلها، حيث قتل الدكتور السفاح ناصر الدين شاه القاجاري على يد رمز الجهاد وبطل الحرية الميرزا رضا الكرماني بفتوى السيّد جمال الدين في سنة ١٣١٣هجريّة، ثمّ اعتلى نجله مظفر الدين شاه القاجاري عرش إيران، وقامت ضدّه المظاهرات الشعبيّة والثورات العارمة، ممّا اضطرّه إلى إصدار مرسومٍ شاهنشاهيّ بتاريخ ١٤ جمادى الثاني سنة ١٣٢٤هجريّة بنظام البرلماني (مشروطة) ثمّ ثار الشعب التركيّ على السلطان عبد الحميد العثماني وخلعه عن الملكيّة في سنة ١٩٠٩م، وأودعه رهن السجن حتّى تمكّن في ظروفٍ خاصّةٍ من الفرار إلى أوروبا، ومات هناك ذليلاً، وقد تحرّر الشعبان المصري والعراقي وغيرهما من الشعوب الإسلاميّة.

إلّا أنّنا نشعر بوفاة السيّد جمال الدين فراغاً لا يسدّه شيءٌ حيث تربّع

على الحكم في الأقطار الإسلاميّة الاستعمار مرّةً ثانيةً بأزياءٍ جديدةٍ لا تقلّ خطورةً عن أوّلها، وقد شاهدنا الحكم الصليبيّ العفلقي في عراقنا الحبيب وتشريد الشيعة من أوطانهم عاصمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وكذلك الضغط المتزايد على الأقطار الإسلاميّة ودول الخليج وعلى رأسهم شبه الجزيرة العربيّة، ونشر الفساد والفحشاء والمخدّرات وما إلى ذلك من الفساد والاستعمار بشكلٍ جديدٍ ولم نجد طريق التخلّص منها إلّا بوجود جمال الدين الثاني.

وأختم كلامي بالقول: يا جمال الدين! لا يزال كفاحنا مستمرّاً والشعوب الإسلاميّة بحاجةٍ إلى من هو مثلك، حيث رجع المستعمرون بثيابهم الجديدة وشعاراتهم البرّاقة. ويعاني شعبنا من الرجعيّة الحمقاء، ولا يزال شبابنا يعذّب ويقتل بدون هوادة ولا رحمةٍ بيد الحكّام في الأقطار الإسلاميّة تارةً باسم الإسلام وطوعاً باسم العروبة.

ولابدّ أن أذكر هنا بعض رجال الإصلاح الديني الذين حذوا حذو السيّد جمال الدين، وسلكوا طريقه ومنهم الشيخ أحمد بن مسعود بن عبد الرحمن الكواكبي من كبار العلماء ورجال الإصلاح الديني ومدرس في جامع الأمويّ بدمشق.

قال شيخنا الأستاذ الشيخ آغا بزرگ الطهراني في موسوعته الخالدة (طبقات أعلام الشيعة) ضمن ترجمة ولده الشيخ عبد الرحمن الكواكبي: (... كان مدرّساً في الجامع الأمويّ الكبير في دمشق وهو من العلماء المطلعين ورجال العلم الأفاضل، وهو شيعيّ لكنّه يكتم ذلك للاستمرار في التدريس بالجامع وغيره من المجالات التي كانت تمهّد له نشر الحقائق وتعينه على خدمة العلم الصحيح، وكان نظيراً للسيّد جمال الدين الأفغاني بجميع المعاني، كما وصفه بعض العارفين له والمطلعين

على واقع أحواله..)، وقد استدرك على كلام شيخنا الأستاذ صديقنا العلّامة الأستاذ السيّد حسن أمين في موسوعته الخالدة (مستدركات أعيان الشيعة ج٣ ص١٢٢. ١٣١)، الطبعة الأولى مفصّلاً عن أسرته وولده الآتي ذكره.

ومنهم الشيخ الثائر عبد الرحمن الكواكبي (١٢٦٥ ـ ١٣٢٠هجريّة) من كبار علماء الإماميّة ورجال الإصلاح الدينيّ وعلماء النهضة الحديثة، وكان يلقّب بالسيّد الفراتي. ولد ونشأ وتعلّم في حلب وأصدر فيها جريدة (الشهباء) فأقفلتها الحكومة العثمانيّة ثمّ نشر جريدة (الاعتدال) فعطّلت وأسندت إليه مناصبٌ عديدةٌ، ثمّ حنق عليه أعداء الإصلاح فسعوا به فسجن وخسر جميع ماله وساح في الدول العربيّة وبلاد الهند واستقرّ في القاهرة حتّى توفي بها. ذكره شيخنا الأستاذ الشيخ آغا بزرگ الطهراني في موسوعته الخالدة (طبقات أعلام الشيعة) قائلاً: (... من الأدباء البارعين والفضلاء الكاملين، كان من كبار رجال النهضة الحديثة وهو يرى رابطة الوطن فوق كلّ رابطةٍ كما دلّتنا عليه تصانيفه وكان نابهاً منذ صغره...

ونشأ على أبيه الجليل فربّاه وأطلعه على الحقايق وخرّجه على يده فنمّى مواهبه وتعهّد قابليّاته بالرعاية حتّى شبّ كما أراد له، أصدر جريدة (فرات) وهو ابن سبع وعشرين سنة، واستمرّت خمس سنين وأنشأ جريدة (الشهباء) وله آثارٌ أخرى منها (أمّ القرى)، ذكرناه في (الذريعة) ج٢ ص٣٠٣)، وفصّل عنه الأستاذ السيّد حسن الأمين في (مستدركات أعيان الشيعة ج٣ ص١٢٢. ١٣١).

ومنهم الشيخ محمد مأمون بن أحمد (١٣٠٢ ـ ١٣٦٩هجريّة) شيخ الجامع الأزهر ومن رجال الإصلاح. أرسل بعثةً تعلّمت الإنجليزية في إنكلترا فكان أعضاؤها رسل الأزهر إلى العالم الإسلاميّ في الخارج

كباكستان والملايو والهند وغيرها، وفَتَحَ أبواب الأزهر فبلغ الوافدون في أيّامه نحو ألفي طالبٍ.

ومنهم الشيخ الميرزا حسن بن علي الجابري الأنصاري الأصفهاني (١٢٨٧ ـ ١٣٧٦هجريّة) من كبار العلماء في أصفهان، ورجال الإصلاح الديني. مؤلّفٌ مكثر. وُلد في شيراز وأخذ العلوم العقليّة والنقليّة في أصفهان، وإنّ السيّد جمال الدين في سفرته الأخيرة إلى أصفهان قد حلّ في دار والده. ونقل المترجم له في بعض مؤلّفاته قضاياه في اجتماعه مع جمال الدين. كما ذكره شيخنا الأستاذ في (نقباء البشر ج١ ص٤١٥ ـ ٤١٦).

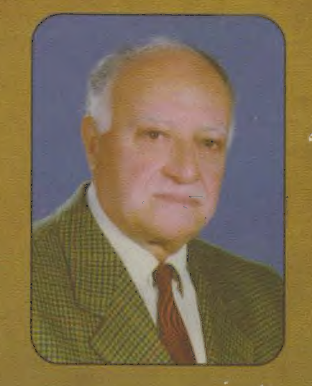
وقد انتهيتُ من المقدّمة والتحقيق والتعليق وتنظيم الصور مع تراكم الهموم وتشويش البال والخاطر في قزوين المحروسة. صانها الله من الحوادث خلال أربعين يوماً تقريباً، في شهر محرّم الحرام سنة ١٤٢٩هجريّة، وأنا العبد الفاني أحوج الخلق إلى عفو ربّه الغنيّ عبد الحسين الصالحي آل الشهيد الثالث عفا الله عنه وغفر لوالديه، حامداً مصلّياً مستغفراً إلى الله تعالى.

المحتوى





الدكتور علي الوردي من فحول العلماء في علم الاجتماع ، ولد في الكاظمية سنة ١٩١٢ و توفي فيها سنة ١٩٩٥ م ، من بيت علم و نقابة و زعامة ، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت بدرجة الشرف و حصل على الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة تكساس في امريكا عام ١٩٥٠م ثم تصدر رئاسة قسم الاجتماع بجامعة بغداد أحيل على التقاعد عام ١٩٧٢م بناء على طلبه ، ومنحته جامعة بغداد لقب (أستاذ متمرس) و قد أصبحت كتبه مرجعاً هاماً في الحواضر العلمية و الجامعات العملاقة في العالم و ترجمت الى عدة لغات حية منها الانجليزية و الفارسية و الألمانية و البولونية ، من أشهر مؤلفاته (وعاظ السلاطين) و (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) طبع منها ثمان مجلدات و أعيد طبعه مكرراً.



البحاثة الاستاذ عبد الحسين الشيخ حسن الصالحي ولد في كربلاء ١٤ شوال سنة ١٣٥٤ هـ ١٩٣٥م في بيت علم ورئاسة و مرجعية و شرف و إمامة. جمع بين الدراستين القديمة و الحديثة فقرأ المنطق و الاصول و الكلام و الفلسفة و الفقه في المدرسة الهندية بكربلاء على أعلامها ، و اختص في النجف بالشيخ اغا بزرگ الطهراني و منحه اجازة مورخة ١٣٨٨ هـ و رحل في طلب العلم ولاقي العلماء و المشايخ و اتصل بكبار قادة الفكر وساهم في كثير من المؤتمرات العلمية في البلاد الاسلامية و الاجنبية منها مؤتمر الشيخ المفيد في قم. هاجر من العراق لأسباب سياسية بعد أن ضيّق عليه سنة١٣٩١هجرية١٩٧١م و اقام مدةً في السيدة زينب في سوريا ثم قزوين و من هناک یواصل نشاطه العلمي من التاليف و التحقيق و كتابة البحوث و نشرها باللغتين العربية والفارسية و حصل علي عدد من الجوائز العلمية منها بمناسبة كتابه (تفسير و تفاسير شيعه) الفارسية من وزارة الثقافة والإعلام الاسلامي سنة٢٠٠٥م في طهران له مؤلفات مطبوعة و مخطوطة طبع له اكثر من مائة بحثاً علمياً غير مقالاته العلمية في الصحف و المجلات و كتب اربعين مولفاً منها الحوزات العلمية و مستدركات اعيان الشيعة بالتعاون مع السيد حسن الامين في عشر مجلدات و دائرة المعارف تشيع الفارسية صدر منها اثني عشر مجلداً بالتعاون مع جامعيين وحوزويين و حقق موسوعة البرغاني في فقه الشيعة صدر منها ثمانية مجلدات وپژوهش هاي فلسفي بالفارسية و هكذا قتلوا قرةالعين و غيرها.



مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع

بئر العبد ـ مدخل مدرسة حارة حريك الرسمية الثانية ـ بناية فوعاني ـ الطابق الأول
ص.ب: ١١ـ٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠ـ١١٠٧ ـ هاتف: (٠٣/٥١٤٩٠٥) ـ تلفاكس: ٠١/٥٥٣١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني: www.albalagh-est.com
E-mail : Albalagh-est@hotmail.com